د. عبد الرحمن بن صالح العشماوي

بشِّروا

ولا تنفِّروا

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العشماوي، عبدالرحمن صالح

بشروا ولا تنفرو. /عبدالرحمن صالح العشماوي. ـ الرياض، ١٤٢٥هـ

٣٥٦ص؛ ١٤X ٢١ سم.

ردمك: ٢ ـ ٦١٧ ـ ٤٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الأدب العربي ـ مجموعات أ ـ العنوان

ديوي ٨١٠،٨ ٤١٢٠ / ١٤٢٥

ردمك: ٢-٦١٧-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٥/٤١٢٠

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشـــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

بوابة الدخول:

الحمد لله الذي خلق لنا الكون وسخَّر ما فيه

وأمرنا أن نمشي في مناكب أرضه، ونركض في نواحيه

وحثَّنا على الخير ومعانيه

ونهانا عن الشرِّ ودواعيه

والصلاة والسلام على الذي قال:

«بشّروا ولا تنفّروا، ويسّروا ولا تعسّروا»

وعلى آله وصحبه أجمعين، الذين حملوا البشارة إلى العالمين

اللهم إني أسألك التوفيق، وأطلب منك التيسير، وأسألك بأنك أنت الله الواحد الأحد، والفرد الصَّمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

أسألك بأن تسهل ما صَعُب، وتليِّن ما قَسا، فلا سهل إلا ما جعلته ـ يا حي يا قيوم ـ سَهْلا، وأنت تجعل الحَزْنَ إذا شئت سَهْلا

اللهم إني أسألك أن تُضيء بشمس البشارة دياجيرَ الأسى، والحزن، والخوف، والقلق يا ربَّ العالمين، آمين.

عبدالرحمن صالح العشماوي

إليكَ أنت

نعم، إليكَ أنتَ يا من تصافح عيناك سطور هذا الكتاب، أزفُّها إليكَ طاقات من أزاهير الحكم والأمثال، وأعاجيب الأقوال والأفعال، أزفُّها إليك معطَّرةً بشذا العلوم النافعة، مضيئةً بشموس الأحاديث الساطعة، ضاحكةً مستبشرة، في هذا العصر الذي احتدم فيه ليل الأباطيل، واشتدَّت فيه أعاصير الأكاذيب والأقاويل.

إليك أنتَ يا من تتنقَّل بين أفياء هذه الواحة الخضراء، لعلك تجد في ربوعها المزهرة ما يقيكَ من رَمْضاء أحداث هذا العصر الملتهبة، ويحميك من مواقفه المضطربة.

إليك أنت، حتى لا يضيق صدرُك، ويستحكم فيك يَأْسُك، فتظنّ أن الدنيا قد خلت من بشائر الخير، وأقفرت من ثمار الخلق الحسن، والعمل الطيب، وحتى لا تسرقك وسائل هذا العصر الخادعة من عقلك وقلبك ووعيك، وحتى لا تنأى بك الفتن عن إيمانك ويقينك.

هنا دوحة وارفة الظلال، وأوراقُها خضراء نَضِرَة، قد كتبتْ أناملُ النَّدى عليها عبارةً جميلة مشرقة تقول: «بشِّروا، ولا تنفِّروا».

وهنا نَبْعٌ من الكلمة الطيبة التي لها أثرُها المبارك في النفوس، ووقْعها الطيِّب في القلوب الذي يُشبه وَقعَ الماءِ البارد الصافي من ذي الغُلَّةِ الصادي.

ادخل معي راشداً مسترشداً، ضاحكاً مستبشراً إلى أوَّل رابيةٍ في هذه الواحة الخضراء:

حِلْمُه يَسبقُ جهلَه

«قال عبدالله بن سلام رضي الله عنه: إنَّ الله عزَّوجل لما أرادَ هَديَ زيدِ بنِ سَعْنة ـ اليهودي الثريِّ ذي المكانة في قومه ـ، قال زيد: ما من علامات النبوةِ شيء إلاَّ وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرتُ إليه، إلاَّ اثنتان لم أَخْبُرْهما منه «يسبقُ حلمُه جهلَه» و«لا تزيده شدَّةُ الجهلِ عليه إلاَّ حِلْماً»، فكنت أنطلق إليه لأخالطه، فأعرفَ حلمه من جهله، فخرج يوماً من الحُجرات ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومعه عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فجاء رجلٌ يسير على راحلته كالبدوي، فقال:

يا رسول الله، إنَّ قرية بني فلانٍ أسلموا، ودخلوا في الإسلام، وحدَّثتُهم أنَّهم إنْ أسلموا أتتهم أرزاقُهم رَغَداً، وقد أصابتهم سَنَةٌ وشدَّةٌ وقحوط من العيش، وإني مشفق أن يخرجوا من الإسلام طمعاً، كما دخلوا فيه طمعاً، فإنْ رأيت أن ترسل إليهم بشيء تُعينهم به، فعلتَ.

فقال زيدُ بنُ سَعْنة: فقلت: أنا أبتاع منك بكذا وكذا وسقاً فبايعني، وأطلقتُ هِمياني ـ أي حزامي ـ وأعطيته ثمانين ديناراً، فدفعها الرسول ﷺ إلى الرجل وقال: أعجل عليهم بها وأغثْهم، فلما كان قبل المَحَلّ بيومٍ أو يومين أو ثلاثة ـ أي قبل موعد السَّداد ـ خرج رسول الله ﷺ إلى جنازةٍ بالبقيع، ومعه أبو بكر وعمر، في نَفَرٍ من أصحابه، فلما صلى على الجنازة ودنا من الجدار جذبتُ

برديه جَذْبَةً شديدة حتى سقط عن عاتقه، ثم أقبلتُ عليه بوجه جَهمٍ غليظ، فقلت: ألا تقضيني يا محمد، فوالله ما علمتكم بني عبدالمطلب لَمُطْلٌ ـ أي تماطلون في القضاء ـ ولقد كان لي بمخالطتكم علم، قال زيد: فارتعدَتْ فرائصُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كالفلك المستدير، ثم رمى ببصره ثم قال: أيْ عدوَّ الله، أتقول هذا لرسول الله؟ وتصنع به ما أرى؟ وتقول ما أسمع؟ فوالذي بعثه بالحقّ لولا ما أخاف فَوتَه لسبقني رأسُك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في تُؤَدَة وسكون، ثم تبسَّمَ، ثم قال: **«لأنا أحوَجُ إلى غير هذا؛ أنْ تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن اتباعه...»** ثم قال عليه الصلاة والسلام: **«اذهب به يا عمر فاقضِ حقَّه وزده عشرين صاعاً من تَمْرٍ، مكانَ ما رُعْتَه»**.

قال زيد بن سَعْنة: فذهب بي عمر رضي الله عنه فقضاني حقي، وزادني عشرين صاعاً من تمر، فقلت: ما هذا؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ أنْ أزيدَك مكانَ ما رُعْتُك، فقلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، فمن أنتَ؟ قلت: أنا زيدُ بن سَعْنة، قال: الحَبْر؟ قلت: نعم الحَبْر، قال: فما دعاك إلى أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلت؟ وتقول له ما قلت؟ قلت: يا عمر، إنَّه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه رسول الله حين نظرتُ إليه، إلا اثنتان لم أَخْبرهما منه، «يسبق حلمهُ جهلَه» و«لا تزيده شدَّة الجهل عليه إلاّ حلماً، فقد اختبرتُه منه، فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبيّاً، وأشهدك أنَّ شَطْرَ مالي ـ فإني أكثرها مالاً ـ صدقةٌ على أمةِ محمد ﷺ.

فقال عمـر: أو على بعضـهم، فإنك لا تسـعهم كلَّهم، قلت: أو على بعضهم، قال: فرجع عمر وزيد بن سَعْنة إلى رسول الله ﷺ، فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فآمن به وصدَّقه، وشهد معه مشاهدَ كثيرة».

ما رأيك في هذه الرَّابية الخضراء، وفي هذا البستان المُورق؟ حلمٌ يَسَعُ الناسَ كلهم، حلم يسبق الغضب، ويتجاوز الجهل، ويفتح نوافذ الأمل في قلوب الناس، حلم يجعل صاحبه لا يزداد أمام جهل الجاهل إلا حِلماً، فهو كالأفق الفسيح لا يضره أن يصطدم به شيء أبداً، حلم لا يجد منه صاحبه إلا خيراً، يقرِّب به النفوس، ويأسر به القلوب، ويؤدِّي به الحقوق، ويمتنع به من الظلم، والغضب والقسوة على الناس.

إنَّها النبوَّة الصادقة تقول لنا: **«بشِّروا ولا تنفِّروا»**.

إليك أنت أيها القارئ الكريم أوجِّه ما تحمله صفحات هذا الكتاب من بدائع الأقوال، وعجائب الأفعال، فمرحباً بك.

❊ ❊ ❊

بين الحُسْن والقُبح

قال عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود:

ما أحسنَ الحسنات في إثر السيئات!

وما أقبحَ السيِّئات في إثْر الحسـنات!

وأحسن من هذا وأقبح من ذلك:

الحسنات في إثْر الحسنات

والسيِّئات في إثر السـيئات

وعبيدالله هذا هو ابن أخي عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وهو أحد السبعة من فقهاء المدينة، وهو الذي قال له سعيد ابن المسيِّب: أنت الفقيه الشاعر؟ وكأنه ينتقده لما يقول من الشعر، فقال عبيدالله: لابد للمصدور أن ينفث.

والمصدور هو الذي به ألم في صدره يضيق به فيحتاج إلى النَّفث.

وعبيدالله هذا هو الذي قال عنه عمر بن عبدالعزيز: وَدِدتُ لو أنَّ لي مجلساً من عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود بدينار.

يتمنَّى عمر لو أنَّه جلس مع الرجل جلسة واحدة للإفادة من علمه وأدبه، وأنه خسر ديناراً، وأقول: ربما قال عمر ذلك بعد أن أصبح زاهداً في الدنيا زُهداً يجعل قيمة الدينار عنده كبيرة، مع أن عمر بن عبدالعزيز كان ينتقده في شعر الغزل.

وكان عبيدالله فقيهاً عابداً شاعراً صاحب هيئةٍ حسنة، ومنطق جميل، معروفاً بالبشر والبشاشة وحسن العشرة.

وصدق الله عزوجل: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾.

❦ ❦ ❦

نـــور

قال ابن عباس رضي الله عنهما لما أكرمه الله عزوجل بكَفِّ بصره:

إنْ يأخـذِ الله من عـينـيَّ نورَهمـا
فـفي لسـاني وقلبي منهـمـا نورُ
قلبي ذكي وعـقلي غـيـرُ ذي دَخَلٍ
وفي فـمي صـارم كـالسـيف مـأثورُ

❦ ❦ ❦

بعد ليلٍ طويل

وقفت أمام حائط مظلم لذلك الليل الطويل الذي داهمني فيه من الهمِّ، وانشغال الذهن ما أثار كوامن الألم في نفسي؛ وقفت حزيناً أتأمل عقارب الساعة التي كانت تشير إلى بداية الثلث الأول من ذلك الليل الذي أرخى سدولَه عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي، ومعنى

ذلك أن رحلةً طويلةً من العناء ستجعل معاناتي شديدةً صعبةً في خضمٍّ ذلك الليل الطويل.

إن إحساسي بثقل خطوات ذلك الليل قد أدخلني إلى سراديب الوحشة وكهوفها، وضخَّم صورة الهمِّ الذي كان قد أحكم سياجَه على ذلك الخافق النابض في صدري، ورسم أمامي صورة مخيفة لعملاقٍ ظلاميٍّ مخيف.

وكذلك النفس البشرية إذا استسلمت لآلامها، وخضعت لأوهامها، وغرقت في محيطات أحزانها، فإنها تحكم على صاحبها بالسجن المؤبَّد في غياهب اليأس والقنوط، ولا يمكن أن ينقذها من هذا السجن التمنِّي، ولا ينفعها التسخُّط والتجنِّي، وإنما ينفعها دواء اليقين، الذي يُكشف أمامها الحجب، فترى ساحة التفاؤل المشرقة، وراء ذلك الظلام الكثيف.

حينما تطاول على قلبي ألمه، وتحامل عليه حزنه، وتضخَّمت في عيني صورة ذلك الليل الطويل الثقيل حتى ما عدت أرى فيه بصيصاً من نور، رجعت إلى ذخيرتي وكنزي العظيم من إيماني بخالقي، ورفعت عينيَّ إلى السماء لأناجي الذي لا يغفل ولا ينام، وبدأتُ أتأمَّل أديم السماء في خضمِّ ذلك الظلام، فلاحت أمامي أضواء النجوم والكواكب تتزاحم على أديم ذلك الليل في أجمل صورةٍ وأبهاها، وبدأت نوافذ الأمل تفتح، وأنوار التفاؤل تدخل إلى عالمي خيوطاً من نور قد اتصلت أطرافها بقلبي الخافق، وأطرافها الأخرى بواحات الإيمان واليقين.

سبحان الله!

لم أتحرك من موقعي في ذلك المكان، ولم أتقدم أو أتأخر عنه خطوةً واحدة، قبل قليل كنت أرى الكون ظلاماً دامساً لا ضياء فيه، وها أنذا الآن أرى النجوم والكواكب تزدحم أمامي على أديم السماء.

ما الذي جرى؟

إنها النفس البشرية هي مصدر الظلام ومصدر النور، مصدر السعادة ومصدر الشقاء، «كن جميلاً تر الوجود جميلا».

تلك حقيقة لا ينكرها عاقل.

إذا انشرح الصدر، واطمأنَّت النفس، أشرق الكون.

وإذا ضاق الصدر، واضطربت النفس، أظلم الكون.

ومع هذه الحقيقة حقيقة أخرى هي:

إذا امتلأ القلب بالإيمان، تحقَّق الاطمئنان، وانشرح الصدر، وهدأت النفس.

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾.

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾.

كل ما في الدنيا صغير أمام عظمة الله، ولا تتحقق السعادة للإنسان إلا إذا استشعر عظمة خالقه؛ لأنه عند ذلك يصبح غنيَّ النفس عمَّا سواه.

«ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس».

غنى النَّفس؟؟

ما أعظم بيانَ محمد بن عبدالله، وما أبلغَه عليه الصلاة والسلام.

❦ ❦ ❦

رؤية مشرقة

من شعري:

آفاقُ هذا الكون تعتبر
والناسُ، بعضُ قلوبهم حَجَرُ
كم ليلةٍ جاءت مكدَّسةً
ظلماؤها ما زفَّها قَمَرُ
غابت كواكبُها فليس بها
إلا الأسى، والحزن والضَّجَرَ
أحيَيتُها بالذكر فابتهجت
فرأيتها تزهو وتزدهرُ
ياليل، طُلْ ما شئتَ أنتَ على
بوَّابةِ الإيمان مُختَصَرُ

بيني وبينك كوكبٌ ضحكتْ
في وجهه المستملَح الدُّرَرُ

بيني وبينَك شمعةٌ دَمُها
زيتٌ من الجوزاء مُعتصَرُ

بيني وبينك دعوةٌ صعدتْ
كالسهم، والظلماء تعتكر

يا ليل إنْ أشقيتَ من يَئسوا
فلسوف يسعد فيكَ منَ صبروا

عندي يقينٌ، لو بَصُرتَ به
لتألَّقَتْ في ذهنك الصُّوَرُ

يا ليل كُنْ بحراً بلا طرفٍ
فزوارقي الآياتُ والسُّوَرُ

❀ ❀ ❀

ماذا نصنع؟

شابٌ دون العشرين من عمره، دخل عليَّ منقبض الصدر، مقطِّب الجبين، مكفهرَّ الوجه، وقال:

ماذا نصنع في هذا العالم المضطرب؟ أين نغدو من هذه الأحداث المظلمة؟ كل ما نراه يوحي بأن الكارثة التي ستدمِّر الجميع قد أزِفَتْ، الدنيا تحترق، الأخبار العالمية تغرق في الدماء

نراها رأيَ العين، الكذب يسيطر على الناس، الإلحاد ينتشر كالنار في هشيمٍ لا ترى نهايته العين، الظلم أصبح هو الأسلوب الأمثل لتعامل الأقوياء مع الضعفاء، أمريكا تعلن الحرب على الجميع، وهي دولة تعيش في أوجِ قوَّتها، فكل التقارير تؤكد أنها تملك قوَّةً تفوق قوى دول العالم مجتمعة، اليهود يقتربون من تحقيق حلمهم في تكوين «إسرائيل العظمى»، نحن ـ المسلمين ـ نُحاصر في كل مكان، نُقتل، ونُشَرَّد، وتُغتصبُ حقوقنا، وتُنتَهك أعراضُنا، ونُتَّهم بالعنف والإرهاب حتى ولو كان أحدنا لا يحسن استخدام مسدَّس من مسدَّسات ألعاب الأطفال.

فتاوى متضاربة، فرق وأحزاب ومذاهب، أعداؤنا يتحركون داخل عالمنا الإسلامي، ونحن نتجادل في أمور معلومةٍ من الدين بالضرورة.

ماذا نصنَع؟ كل شيء أصبح بائساً حزيناً مخيفاً، مستقبلُنا مظلم معتم مُرْعب.

ماذا نصنع؟ نعم ماذا نصنع؟

ظلماتٌ بعضها فوق بعض، شعرتُ أنَّ ذلك الشاب قد غرق فيها غرقاً كاملاً، حتى ساورني الشك ـ وهو يتكلم ـ في بقاء الأرض خارج المكان الذي كنا نجلس فيه على حالتها الطبيعية، ربما مادت الأرض، وربما نخرج من مكاننا ذاك، فلا نرى أرضاً ولا بشراً، ولا شيئاً في الكون يردُّ العين.

قلت لذلك الشاب: على رسلك يا فتى، الدنيا بخير، هذا التشاؤم طريق الهزيمة والهلاك، تفاءلوا بالخير تجدوه.

صرخ في وجهي مغضباً قائلاً: هذا الكلام الذي تقول سمعته عشرات المرات، من أمي، وأبي، وإخوتي، وأعمامي، وأساتذتي، والمشايخ الذين سألتهم، كلكم تقرؤون من كتابٍ واحد، وتحفظون نصوصاً واحدة، بينما الفضائيات، والبرامج تقول غير ذلك؛ تقول لي: لقد انتهى كل شيء، فلا تفكر في النجاة.

قلت له: على رسلك أيها الفتى، فالدنيا ـ فعلاً ـ بخير، وأنت شاب مسلم تملك في قلبك كنوز الدنيا كلَّها حينما تكون قويَّ الإيمان بربك، إنَّ هذا اليأس الذي يملك مشاعرك هو السلاح الفتَّاك الذي يفعل بالناس ما لا تفعله أسلحة الدَّمار الشامل التي يتحدثون عنها، الم تأت إلى هذا المكان بسيارتك؟ ألم تشاهد الشوارع مليئة بالناس، ألم ترى المحلات التجارية تستقبل زبائنها بالمئات، ألم تسمع هذا اليوم صوت المآذن يتعالى مردِّداً «الله أكبر».؟

إنَّ الحياة تسير وفق ما كتب الله لها، وإن أصحاب القوى من الشر لا يستطيعون أن يفعلوا كلَّ ما يريدون، نحن الذين نضخمهم، ونبالغ في تصوير مقدرتهم مبالغةً تناقض معنى إيماننا بأن الله محيط بكل شيء.

نستطيع أيها الفتى أن نصنع أشياء كثيرة لننقذ أنفسنا وبلادنا والمستضعفين في هذا العالم الفسيح، ولكننا لن نستطيع أن نفعل شيئاً واحداً إذا استسلمنا لليأس الذي تستسلم له أنت الآن.

لا تقل: ماذا نصنع؟ ولكن قل: سوف نصنع شيئاً لإنقاذ العالم.

حينما وقف الرسول ﷺ أمام كفار قريش بعتوهم وجبروتهم وضلالهم وانحرافهم في أول خطبة ألقاها أمامهم، كان على يقينٍ أنه سيصنع شيئاً لإزالة ذلك الليل الجاهلي البهيم، كان وحده في عُرف البشر، ولكنَّه كان في جيشٍ قويٍّ من يقينه بربه، وعزيمته، وصبره، وتفاؤله، وإشراق أمله؛ وأنت أيُّها الشاب وريثٌ لذلك كلِه إذا كنتَ وثيق الصلة بربك ودينك وقرآنك وسنة نبيك ﷺ.

بشِّر نفسك بالفرج، ولا تنفِّرها من الأمل في نصر الله.

❀ ❀ ❀

الرائد لا يكذب أهله

حينما وقف الصادق المصدوق وحيداً أمام قريش إلا من إيمانه بربه، قال كلمته الصريحة الواضحة:

«إنَّ الرَّائدَ لا يكذب أهله، والله لو كذبتُ الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غَرَرْتُ الناس جميعاً ما غَررْتُكم.

والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصةً، وإلى الناس كافةً، والله لتموتُنَّ كما تنامون، ولَتُبعثُنَّ كما تستيقظون، ولتُجزَوُنَّ بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنَّها للجنَّة أبداً، أو النار أبداً».

رسالة خالدةٌ مدعومةٌ بالقسم الصادق الذي لا يحنثُ صاحبهُ.

❀ ❀ ❀

إشراقة أمل

من شعري:

ستار ظلام الليل سَوفَ يُجابُ
وتُسقى بأضواء الصّباح رِحابُ

وسوف يُبين الفجر ما كان خافياً
ويُفتَحُ من بعد التغلُّقِ بابُ

وتشدو عصافير المُنَى بعد صمتها
ويَخْلَعُ ثوبَ الشؤم عنه غُراب

وتَخلُصُ من معنى التشاؤم بُومَةٌ
لها لغةٌ من حبِّها وخطابُ

وما الشؤم إلا في نفوسٍ مريضةٍ
عليها من اليأس الثقيل حجابُ

وما الليل إلا رائد الفجر بعده
تغرِّدُ شمس يستبين صوابُ

❁ ❁ ❁

تفاؤل

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا عَدوى ولا طِيَرَة، ويُعجبني الفَال، قالوا: وما الفَأل؟ قال: كلمة

طيبة» وفي رواية: **«ويعجبني الفَأل الصالحُ:** الكلمةُ الحسنة». وفي رواية أخرى: **«ويعجبني الفأل: الكلمة الحسنَة، الكلمة الطيبة».**

التفاؤل بالخير أسلوب الراشدين الأقوياء الأسوياء.

أما التطيرُ، وهو التشاؤم الذي يجعل نظرة صاحبة إلى الأشياء والأحياء نظرةً سوداء، فهو أسلوب المنهزمين الضعفاء المضطربين.

❀ ❀ ❀

توجيه

إذا رأى الإنسان ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك.

❀ ❀ ❀

قـوَّة

يروى عن عيسى عليه السلام أنه مرَّ برجلٍ كان جالساً على قارعة الطريق، وهو يردِّد: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه، وتأمَّله عيسى فرآه أعمى مقعداً ترتعش أطرافه من الشلل، فتعجب من حاله، وأعجبه ما سمع من مقاله، فاقترب منه وقال له: يرحمك الله، أسمعك تقول ما قلت مع أنك على هذه الحالة من الابتلاء.

قال الرجل: إني أحمد الله على نعمة عظيمة يفقدها كثير من الناس الأصحّاء، ألا وهي إيماني بربي وقدرتي على ذكره وتسبيحه.

فالحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه.

❦ ❦ ❦

متفائلون

رجالٌ عصاميون عرفتهم الحياة أقوياء بإيمانهم بالله، صامدين صابرين، حامدين لربهم شاكرين، واثقين بما عند الله سبحانه وتعالى قلت لجدي ـ رحمه الله ـ وقد اتجه إلى مزرعته الصغيرة ذات يوم: كيف تستطيع هذه المزرعة يا جدي أن تنهض بأعباء أسرتين كبيرتين؟

قال لي مباشرة: ألا تسمع أصوات الطيور؟ قلت: بلى.

قال مبتسماً: لا تَخف يا بنيَّ، يرزقنا رازق الطير، وقد رأيت بعد ذلك من بركة تلك المزرعة الصغيرة ما يثلج الصدر.

❦ ❦ ❦

فأين الله إذن؟!

لقيت شيخاً فلسطينياً طاعناً في السن، وجرى بيني وبينه حديث عن قصة خروجه من فلسطين، فتحدَّث حديثاً مشحوناً بالإيمان واليقين.

قال: كنت غلاماً حينما هربنا من قريتنا الصغيرة القريبة من الخليل، لقد كانت رحلة شاقة مع أبي وأمي وإخوتي وبعض جيراننا، جوع وخوف، وحزن على فقد الوطن، وبعد أيام وصلنا إلى عمان عاصمة الأردن، وصلينا في مسجد صغير، وبنا من التعب والجوع ما الله به عليم، سألنا مؤذن المسجد عن حيٍّ يسكنه بعض أصدقاء أبي فقال: يبدو أن الرحلة كانت شاقة، ثم أقسم علينا أن ننزل ضيوفاً عليه، وما زلت أذكر حينما دخلنا إلى منزله الصغير كيف شعرنا بالأنس والاطمئنان برغم تزاحمنا في منزل ذلك المؤذن الوقور.

قال أبي وهو يبكي: لقد سلبونا كلَّ شيء، لم يبق لنا شيء لقد انتهينا، ولن تقوم بعد هذه المأساة قائمة ورأيت المؤذن ينتفض ويقول لأبي: استغفر الله يا رجل، لا تيأس من رحمة الله.

قال أبي: قلت لك: انتهى كل شيء بالنسبة إلينا، أصبحنا مشردين بلا سكن ولا مأوى ولا مال ولا أسرة مجتمعة الشمل ما أظن فلسطين ستعود إلينا أبداً.

قال المؤذن بصوت مرتفع: استعذ بالله من الشيطان الرجيم، إن كان ما تقول صحيحاً فأين الله سبحانه وتعالى إذن؟

الله موجود وهو المتصرف في هذا الكون، فاعتصم بربك، واربط بإيمانك على قلبك، وإني لأرجو أن ترى عن قريب ما يرضيك.

قال الشيخ: والله لقد مَلأتْ كلمات المؤذن قلوبنا بالاطمئنان وإني لأرى الانتفاضة المباركة اليوم وأقول: فأين الله إذن؟

صدق ذلك المؤذن الوقور.

❦ ❦ ❦

العلم والاستبشار

صاحب العلم المتمكن يحلّق بعلمه في أجواء السعادة والاستبشار، ويرتفع به عن أوحال الاضطراب واليأس والقنوط، ولهذا نجد العلماء العاملين أكثر الناس تفاؤلاً حين نزول النوازل وحصول الأزمات؛ لأنَّ العلم نور، والنور يكشف الظلمات، وما أروع تلك الوصية الجليلة التي أوصى بها الفقيه الحافظ أبو الوليد الباجي الأندلسي المتوفى سنة ٤٧٤هـ، ولديه: أبي القاسم أحمد، وأبي الحسن محمد، وهي وصية جليلة القدر جامعة لكثير من التوجيهات المهمة للتربية وبناء الشخصية، وكان من أبرز ما ورد فيها ما يتعلق بجلال العلم وأهميته في إسعاد صاحبه حيث قال: «العلم سبيلٌ لا يُفضي بصاحبه إلا إلى السعادة والسلامة، ولا يقصُرُ به عن درجة الرِّفعة والكرامة، قليلُه ينفع، وكثيره يُعلي ويرفع، كنزٌ يزكو على كل حال، ويكثر مع الإنفاق، ولا يَغصبه غاصب ولا يُخاف عليه سارقٌ ولا محارب.

فاجتهدا في طلبه، واستعذِبا التَّعَبَ في حفظه، والسَّهر في درسه، والنَّصب الوطيل في جمعه، وواظبا على تقييده وروايته، ثم

انتقلا إلى فهمه ودرايته، وانظرا أيَّ حالةٍ من أحوال طبقات الناس تختاران، ومنزلة أي صنفٍ منهم تُؤثِران، هل تريان أحداً أرفع من العلماء؟ وأفضل منزلة من الفقهاء؟ يحتاج إليهم الرئيس والمرؤوس، ويقتدي بهم الوضيع والنفيس.

والعلم ولاية لا يُعزَل عنها صاحبها، ولا يعرى من جمالها لابسُها».

هكذا يدل عقلاء الناس أولادهم على طريق السعادة والسَّلامة والاستبشار.

وقد رأيت أثناء بعض الأزمات المعاصرة شقاء أناسٍ شغلوا أنفسهم بمتابعة البرامج الحوارية الصَّاخبة، والمقالات المتهورة، والتحليلات الإخبارية المبالغة التي تعبر عن آراء أصحابها، والأحزاب التي تقولها أو تكتبها، فما كانوا يزدادون بتلك المتابعة إلا يأساً، وشعوراً بالانهزام والإحباط، ونظرةً سوداوية للمستقبل، وإحساساً بعظمة الأعداء وقوتهم وسيطرتهم، ورأيت في الوقت نفسه سعادة من كنت على صلةٍ بهم من أهل العلم والمعرفة، والصلاح والاستقامة، حيث كانوا ينظرون إلى الأحداث والأزمات بمنظار سليم قائمٍ على قاعدة قوية من العلم الراسخ بأنَّ هذا الكون كله خاضع لتدبير الله عزوجل، وأنَّ جَلجَلة الباطل وأهله سرعان ما تخبو كسيرة ذليلة، وأن أحداث التاريخ، وسير الأنبياء والصالحين والعلماء العارفين تؤكد هذا المعنى الجميل الذي يفتح

نوافذ التفاؤل والأمل والاستبشار في أحلك المواقف وأشدها اضطراباً وحيرة.

«العلم نور، والجهل ظلام»، ولهذا فإنّ العلم يقول بملء فمه: «بشروا وأبشروا»، و«لا تُنفّروا وتيأسوا».

الإبداع والاستبشار

تشير دراسات المتخصّصين في مجالات التربية الفكرية وتنمية روح الإبداع عند الإنسان إلى أهمية الصحة النفسية في رفع مستوى الإبداع البشري، وتؤكد تلك الدراسات أهمية التفاؤل وصفاء النفس، واستقرار المشاعر في صناعة الإبداع، ويشيرون إلى أنّ الثقافة الواعية، والصفاء الروحي، والتديُّن المعتدل الذي لا إفراط فيه ولا تفريط تقود النفس البشرية إلى الاستقرار، والهدوء، وتبعدها عن اليأس والقنوط، وتدفعها إلى استقبال أعباء الحياة ومشكلاتها بحكمة ووعي وصبر، وتفكير سليم.

إن التشاؤم، والانقباض، وانغلاق النفس هي أعدى أعداء الإبداع، وأشدّ خصوم التفوقِ والنجاح.

يقول (شيلي) أحد شعراء الرومنتيكية الذين عاشوا في القرن الميلادي التاسع عشر: «الواقع أن العبقرية الحقة تخلِّص نفسها من شوائب القلق والحيرة، والشعور بالهزيمة والانقباض».

ونقـول نحـن: الإيمان بالله عـز وجل هو الذي يخلص صـاحب العبقرية من شوائب القلق والحيرة والشعور بالهزيمة والانقباض، بدليل ما حدث ويحدث في العالم من انتحار بعض كبار المفكرين والفلاسفة الذين ابتعدوا عن الإيمان برب العالمين ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾.

* * *

الاستغفار والاستبشار

إذا صدق المسلم في استغفاره، كان القبول نتيجة سريعة، وكانت المغفرة حاصلة بإذن الله، فالآيات القرآنية تدل على ذلك بوضوح، قال: قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾، ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾، ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾، ﴿لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

هكذا توضح لنا آيات القرآن أنَّ قبول الاستغفار مؤكد إذا صدق المستغفر وأخلص نيته لربه سبحانه وتعالى.

إنَّ الاستغفار الصادق من أهم وسائل الاستبشار عند الإنسان، فالمسلم المستغفر لا يستسلم لليأس والقنوط، ولا يعرف معنى لخيبة الأمل، وسوء الظن مهما اشتدت حوله ظلمات

الأحداث، فالاستغفار يمنع العذاب في الدنيا ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، والاستغفار يقرب الوعد بالنصر لأهل الحق، ويحققه ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، والاستغفار يحقق للإنسان الاستمتاع بحياته في راحة وهدوء بال ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾، والاستغفار يعين الإنسان على عمله في الدنيا وعمارته لها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾، والاستغفار يعين على الصَّبر، ويفتح أبوابه للناس ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، والاستغفار يمحو السيئات ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، والاستغفار يدخل صاحبه في رحمة الله ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، والاستغفار يعين على تحقيق الحياة الطيبة ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾، والاستغفار يُستوفى به الأجر ويزيد به الفضل ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾، والاستغفار من أدعية الاستسقاء والاستغاثة حين الجدب، وهو من أسباب الإمداد بالمال والبنين، وزيادة الخير في حياة البشر، ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾، والاستغفار يخلص الإنسان من عواقب ظلمه واعتدائه إذا صدق في توبته ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، ومع هذا الفضل العظيم للاستغفار فإنَّ ميدانه فسيح، وساحته واسعةٌ لا حدود لها ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

إن المسلم اليوم بأمسِّ الحاجة إلى الاستغفار، والإكثار منه، فالأخطاء كثيرة، والذنوب كبيرة، والأحداث مدلهمَّة، ولا يتحقق مع ذلك كله النصر، والاستبشار وحياة القلوب إلا بذكر الله سبحانه وتعالى والاستغفار. استغفرْ واستغفر، وبشِّر بالخير ولا تنفِّرْ.

❁ ❁ ❁

مرجعُك القرآن والسُّنَّة فلا تقلق

المؤمن بربه يعاني دائماً من أهل الباطل الذين لا يعتصمون بخوفٍ من الله ولا يستشعرون عظمته، فهم دائماً يثيرون الشُّبهات، ويجاهرون بالمعاصي والشهوات، ويعملون على إغاظة المؤمن الغيور على دينه بأسوأ العبارات، ويضايقونه بالسخرية والاستهزاء، والجدل العقيم والمراء.

والواجب على المؤمن المطمئن أن يسكن نفسه بإيمانه ويقينه بربه، وأن يتسعين به ـ سبحانه وتعالى عليهم ـ، ولا بأس أن يدعو لهم بالهداية بعد الضلال، وبالرَّشاد بعد التيه، فإنَّ توبة المذنب تسرُّ قلب المؤمن.

وإنَّ في بعض برامج الحوار القائمة على الإثارة والجدل العقيم في كثير من القنوات الفضائية ما يجعل العاقل البصير بدينه يعجب لأولئك المنجرفين وراء ألسنتهم المتهورة، التي تدلُّ على انحراف خطير، وجهلٍ كبير، وفيها نرى بعض المسلمين الغيورين من ضيوفها من يتمعَّر وجهه غضباً لله وينفعل، ويفقد قدرته على

الاتزان، ويرفع صوته غاضباً راداً على أولئك الذين ماتت ضمائرهم، فما عادوا يشعرون بفظاعة ما يقولون.

ويا ليت أولئك الذين يشاركون في برامج الجدل العقيم من المؤمنين بربهم يريحون أنفسهم من المشاركة في برامج الثورات والفورات العاطفية التي لا انضباط فيها، ولا تقدير، ولا حكمة فيها ولا تدبير، نقول لهؤلاء: خذوا منا هذا الموقف النبوي الكريم حتى تريحوا وتستريحوا، وحتى تستبشروا وتبشروا.

نَقَل ابن هشام عن سعيد بن جبير أنه قال: «أتى رهطٌ من يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هذا الله خَلَق الخلق، فمن خلقَ الله؟ قال: فغضب رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى انتُقعَ لونهُ ـ أي تغيَّر ـ، ثم ساورهم وغاضبهم وباطشهم غضباً لربه سبحانه وتعالى، قال: فجاءه جبريل عليه السلام، فسكته، فقال: خفِّض عليك يا محمد، وجاءه من الله سبحانه وتعالى بجواب ما سألوه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

قال: فلما تلاها عليهم، قالوا: فصِفْ لنا يا محمد كيف خلقُه؟ كيف ذراعه؟ كيف عَضُدُه؟ فغضب رسول الله ﷺ أشدَّ من غضبه الأوَّل، وساورهم، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال له مثل ما قال له أوَّل مرة، وجاءه من الله عز وجل بجواب ما سألوه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ويا لها من آيةٍ كريمةٍ تطمئن بها القلوب.

هكذا يكون المؤمن مقتدياً برسول الله ﷺ، إذا أغضبه أهل الباطل بأقاويلهم التي تدلُّ على عدم شعورهم بعظمة خالق هذا الكون، أو عدم تقديرهم لمكانة أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام، ومكانة من سبقه من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، فما عليه إلا أن يلجأ إلى كتاب ربه الكريم، وسنَّة نبيه المطهَّرة، ومواقف الأنبياء والصالحين، فسوف يجد الهدوء، ويحظى بالرَّاحة والسكون.

وليتذكرْ أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يوشك الناس أن يتساءلوا بينهم حتى يقول قائلهم: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، ثم لِيَتفُلِ الرجلُ عن يساره ثلاثاً، ولْيَستعذ بالله من الشيطان الرجيم»**.

إنها وصفةٌ طبية نبوية بالغة الأثر، فعليك بها.

❀ ❀ ❀

تملأ الأفق

من شعري:

فالشمس لا تشتُم الليل البهيم ولا
تقسو عليه ولكنْ تَمْلأُ الأُفقَا
وتسكب النور في روح الوجود فما
يقاوم الليلُ في أهدابها الألَقَا

❀ ❀ ❀

أيُّها الشاعر

من شعري:

سـر على دربك حـرّاً واثقـاً
واجعل الشعر أبيّاً سامقا
لا تقف للكبوة الأولى فما
يُعرفُ الفارسُ إلا سابقا
أيها الشاعر ابحـرْ، ربما
يُنقذ البحر جيلاً غارقا
إنني أبصر كفراً حانقاً
كيف استأمن كفراً حانقا
كيف استصفي عدوّاً غاشماً
لم يزل يبني أمامي العائقا
أيُّها الدّاعي، تأمّل سترى
نَبْعَ الحاني قوياً دافقا
ربما أمطرت السُّحبُ وما
أبصرتْ عيناك فيها البارقا
خسر اليأس الذي يطلبني
سوف يلقاني بربّي واثقا

❀ ❀ ❀

تشجيع المواهب

لايمكن لموهبةٍ بشريةٍ أن تنمو وتُصقَل دون تشجيع، وإنَّ العقلاء ليحرصون في أحلك الأوقات على صقل مواهب النابغين من أولادهم، وفي هذا من الحكمة والحزم ما ينفع الله به العباد والبلاد.

حينما كان الملك خوارزم شاه يواجه عنفوان التتار وطغيانهم في هجماتم الشرسة على بلاده في مناطق خراسان، لم يكن غافلاً برغم ظلام الأحداث عن ذلك الطفل الصغير الذي يحبو في منزله وهو ابن اخته الذي أطلق هو عليه اسم «محمود»، ولا غافلاً عن تلك الطفلة الصغيرة التي كانت تحبو في منزله مع ابن عمتها وهي ابنته التي أطلق عليها اسم «جهاد»، ولذلك فقد حرص على تربية صغيريه تربيةً فيها حزم وشدَّة، تحسُّباً لطوارق الأيام، وحينما رأى مَخايلَ النَّجابة تظهر على «محمود» زادت عنايتُه به، ورعايتُه له، وأوصى به رجلاً ثقة من رجاله، وأمره أن يربيه على الشجاعة والفروسية، وركوب الخيل، وبعد أن عصف التتار بخوارزم شاه وبملكه، وعصفت به الحروب مع بعض أمراء وملوك المسلمين في تلك البلاد، بقي له من ذريته هذان الصغيران محمود وابنةُ خاله جهاد، وجرى لهما من ضروب العناء والمتاعب، والتحوُّل من حياة الملك والسلطان والحرية إلى حياة الرقّ والعبودية، ما زادهما صقلاً وصبراً وقدرةً على التحمُّل، خاصة وأنهما قد رُبيا على الصِّلة بالله عز وجل، والتعلق به منذ الصغر.

وكانت النتيجة بعد رحلة العناء الطويلة أن ذلك الطفل محمود ترقّى في مدارج الهمَّة والشجاعة والفروسية حتى أصبح ملك مصر، وأصبح أسمه من أبرز الأسماء المنقوشة في ذاكرة التاريخ وهو المعروف عالمياً باسم «الملك المظفَّر قطز» قائد المسلمين في معركة «عين جالوت» الشهيرة التي أوقف الله بها طوفان التتار الجارف، وقضى بها على جيشهم الغاشم، فلم تقم لهم بعدها قائمة.

إنَّ اليقين، والاستبشار الدائم بما عند الله عز وجل، والأمل المشرق في نصر الله وتأييده، هي التي تجعل الإنسان بعيداً عن ظلام اليأس والقنوط، قادراً على عمل ما يستطيع لتحقيق المراد، ناجحاً في نقل الشعور بالتفاؤل واليقين والثبات إلى نفوس من يربيهم من أبنائه وبناته.

وهذا عمل عظيم، له نتائج عظيمة، كما رأينا في تربية الملك المظفر قطز.

❀ ❀ ❀

مراتع الصِّبا

من شعري:

علمتني جبالُها كيف أبقى
صاعداً في مراتب الأخيار
علَّمتني صخورُها كيف أبقى
صامداً رغم قُوة التيار

علّمـتني غـيـومـهـا كـيف أبني
فـوق أرض العطاء صَـرْح فـخـار
علّمـتني أشـجـارُها كـيف أرمي
في أكفّ الحسّـادِ حُلْوَ الثّمـار

❋ ❋ ❋

ولكنّ الخِبّ لا يخدعني

الخِبُّ بفتح الخاءِ وكسرها «المخادع» الذي لا يستقر على رأي، ولا يُوثق به لأنه يغدر، ويختل صاحبه.

سؤال وجّهه أحد الشباب إلى أستاذه قائلاً: كيف يتحقق لنا الأمن النفسي والاستقرار، والأمل المشرق مع كثرة المخادعين المنافقين من البشر؟ الذين لا تستقر بهم حالٌ، ولا يُؤمَنُ لهم جانب، وما تزال قصصهم القديمة والجديدة تُروى لنا، ومازلنا نرى آثار خداعهم ومخاتلتهم رأيَ العين، فكم من كريم أساؤوا إليه، وكم من مصيبةٍ أشعلوها، وكم من أملٍ مشرقٍ لأمتهم حطّموه؟

كيف أواجه الحياة بالاستبشار مع وجود هؤلاء؟ وكيف أسلم من التنغيص مع كثرة كيدهم وغدرهم؟ ومن أين تتحقّق لنا الصحة النفسية وسلامة الصدر مع وجود هؤلاء المكّرين المثيرين للفتن؟!

قال الأستاذ: هذا الذي تقول لا يمكن أن يعطّل نواميس الكون، ولو أنَّ أهل الخِبِّ يوقفون مسيرة البشر لتوقّفت مواكب الحياة البشرية منذ أن استخدم الشيطان وسائل الخداع والمخاتلة

مع أبينا آدم وأمنا حوَّاء عليهما السلام حيث ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ وهو كاذب.

إنَّ الخبَّ لا يصل إلى ما يريد عند أهل الجد والبصيرة والحذر ويقظة الذهن والضمير؛ ولذلك كان المؤمن ممدوحاً بأنه لا يُلدغُ من حجر مرَّتين، وقد قالها عمر بن الخطاب رضي الله عنه صريحة واضحة: «لست بالخبّ، ولا الخبُّ يخدعني» وهو ميزانٌ دقيق يجب علينا استخدامه بقوَّة واقتدار؛ لأنه يحول دون أهل الخداع ودون ما يطمحون إليه، فالمسلم ليس خبّاً أي: ليس خادعاً مخاتلاً غادرا، ولكنَّه ليس غافلاً عن خداع المخادع وغَدْر الغادر، فهو يقظ الذهن، حاضر القلب، مستنير البصيرة، مستعينٌ بالله عز وجل في كلِّ شؤون حياته، لا تنقطع صلته بربِّه صلاةً، ودعاءً، وذكراً في صباحه ومسائه، وعند صَحْوهِ ومَنامه.

نعم، إن أهلَ الخداع يكيدون، ويمكرون بالليل والنَّهار، ويمكن أن يتحقَّق لهم بعضُ ما يريدون، أو أكثره، أو كلُّه، ولكنَّ ذلك كلَّه بسبب غفلة غيرهم عنهم، وتهاونهم بهم، وبُعدهم عن مقاييس الشرع الصحيحة في التعامل مع المواقف والأشخاص.

ولا بأس أن أقرِّب المراد بهذا المثل المستَقَى من التاريخ:

هنالك رجل مخادع مرَّ بتاريخنا الإسلامي وكان سبباً في حادثة من أسوأ الحوادث التي أصابت الأمة الإسلامية في الصميم، إنه الوزير ابن العلقمي الذي تولى الوزارة لآخر خلفاء بني العباس (المستعصم) لمدة أربعة عشر عاماً.

ابن العلقمي هذا اسمه: محمد بن محمد بن علي مؤيد الدين الأسدي البغدادي، وكان يكنَّى بأبي طالب، وكان ذا ذكاء وحزم وخبرة ومعرفة دقيقة بسياسة الدولة، وطريقة إدارة الحكم، وكان مغرماً بالقراءة والاطلاع، ومحباً للعلم، وقادراً على الكتابة الممتازة، وخطيباً بليغاً فصيحاً، ولكنَّه مع ذلك كلِّه كان مخادعاً، كاذباً، لا يهتم بأمور الدولة، وشؤون الناس إلا بما يحقق له هو المصلحة الخاصة، وكان يقدم مصلحته الشخصية على كل شيء، وكان كثير من رجال الدولة والعلماء في وقته يدركون هذه الصفات السيئة في الرجل وينبهون بطرق متعددة الخليفة المستعصم إلى ذلك، ولكنَّ الخليفة ما كان يستجيب.

فما الذي حدث حتى وقعت الكارثة؟

استسلم الخليفة لابن العلقمي، ووثق به ثقة (عمياء)، واستحكمت في قلبه الغفلة عن رؤية الرجل على حقيقته، وألقى إليه بزمام الأمور كلِّها، فكانت النتيجة الطبيعية لمثل هذه الغفلة المؤلمة القاتلة أن أخذ ابن العلقمي يتلاعب بالسلطة التي وضعت في يده حتى بلغ به خداعه وغدره أن يكتب إلى هولاكو التتري يحمسه على غزو بغداد ويجسره عليها، طامعاً في أن يكون له شأن مع ذلك الطاغية، وكانت النتيجة، خيانة للأمة، وسقوطاً محزناً لبغداد في أيدي التتار، ونهاية سيِّئةً لابن العلقمي حيث عاش بعدها ذليلاً حقيراً حتى مات.

أين تكمن المشكلة؟

إنها في غفلة المستعصم، وضعف رجاله، وضعف رأي العلماء المحيطين. أما السبب الأهم في ذلك كله فهو البعد عن الله سبحانه وتعالى؛ البعد عن الله الذي أصاب المستعصم بتلك الغفلة القاتلة، إذاً كان ـ حسب ما يروي التاريخ ـ مشغولاً بملذّاته وملاهيه، وسهراته وجواريه، حتى أصبح بلا بصيرة، وكيف يمكن أن يرى خداع وزيره ابن العلقمي وهو في هذه الحال؟ البعد عن الله سبحانه وتعالى أورث الخليفة غفلة ولهواً ساقتاه وساقتا الأمة إلى تلك النهاية المؤسفة.

إذن، فإنَّ طريق التخلُّص بعون الله وتوفيقه من غَدَرات الغادرين، وخداع المخادعين هو اليقظة الكاملة روحاً وعقلاً، والإحساس العميق بالمسؤولية، وعدم الانخداع بمظاهر الذكاء والمعرفة، والحزم من الأشخاص الغادرين، أمَّا أن نكون من المستسلمين لأهوائنا وغفلاتنا استسلاماً يتيح الفرصة للمخادعين، ثم نقول بعد ذلك: كيف حدث هذا؟ وكيف يمكن لنا أن نطمئن وأن نستبشر بالخير مع هذا؟ فإننا نُخادع أنفسنا بهذا مخادعة لا تزيدنا إلا ضعفاً وغفلة وارتكاساً، بشّر نفسك بالخير حينما تكون من أهل الخير.

* * *

صُحْبَةُ الرِّجال

قال علقمة بن لبيد العُطارديّ لابنه:

يا بُنيَّ، إن نزعتك إلى صُحبة الرجال حاجة، فاصحب من إن صحبته زانك، وإن خدمته صانك، وإن عركتَ به مانَك، مَنْ إنْ قُلت صدَّق قولك، وإن صُلت سدَّد صَولك، وإن بَدَرَت منك ثُلمَةٌ سدَّها، وإنْ رأى منك حَسَنَةً عدَّها.

❀ ❀ ❀

دَعَوتُ، ودعوت

قال رجلٌ من عامة الناس لعالم: إنني دعوت ودعوت ربي كثيراً، وما زلتُ أنتظر الإجابة، والله تعالى يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فما رأيك يا شيخ.

قال له العالم: أريد أن أسألك سؤالاً قبل إعطائك رأيي.

قال الرجل: حُبّاً وكرامة.

قال العالم: أرأيت لو أنَّ لك ابناً مجفياً لك، تأمره فلا يطيع، وتنهاه فلا ينتهي، وتطلب منه الشيء فلا يعطيك، ولا يقدِّر مقامك عند الآخرين، يُخجلُك بكثرة أخطائه وإساءته إلى الناس، ثم جاءك طالباً منك مالاً، أو هديَّة، أو كسوةً جديدة مع كونه متمادياً في إساءته إليك، أكنتَ تعطيه ما سأل؟؟

قال الرجل: كلاَّ، بل أزجره وأطرده، فمثل هذا يستحق العقاب.

قال العالم: أرأيت ابنك هذا لو جاءك تائباً معتذراً، عازماً على إصلاح أمره ، صادقاً في عزمه، مقدِّراً لمقامك، حريصاً على رعايتك وتقديرك وخدمتك، ثم طلبك مالاً أو هديَّة، أو كسوة جديدة، أكنت تعطيه ما سأل؟؟

قال الرجل: إي ـ والله ـ فهو خليقٌ بذلك جديرٌ به.

قال العالم مبتسماً للرجل: أتعرف أنك قد أجبت عن سؤالك بنفسك.

قال الرجل ـ بعد لحظة صمت ـ: نعم يا شيخ عرفت ذلك، فجزاك الله عني خيراً.

❀ ❀ ❀

وقفة مع الدعاء

● عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: العبادة هي الدعاء، ثم قرأ ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

● عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عزوجل: «يا عبادي: كلكم جائع إلا من أطعمتُ، فاستطعموني أُطعِمكم، يا عبادي: كلكم عارٍ إلا من كسوتُ، فاستكسوني أكسكم، يا

عبادي: لو أنَّ أولكم، وآخركم، وجنكم، وإنسكم، اجتمعوا في صعيدٍ واحد، فسألوني جميعاً فأعطيت كل إنسانٍ مسألته لم ينقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المخيط إذا غُمس في البحر».

● عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يردُّ القدرَ إلا الدُّعاءُ، ولا يزيد في العمر إلاَّ البر، وإن العبد لَيُحرم الرزقَ بذنبٍ يُذنبه».**

● قال قيس بن عباية وهو مولى لسعد بن أبي وقاص: إنّ ابناً لسعدٍ كان يدعو وأبوه يسمع فذكر الجنة فقال: اللهم إني أسألك الجنة من نعيمها وأزواجها وثمارها، وأكثر من نحو هذا، وأعوذ بك من النار من سلاسلها وأغلالها وسعيرها، وأكثر من هذا، فلما فرغ من صلاته قال له سعد: لقد سألتَ الله نعيماً طويلاً، وتعوَّذت به من شر طويل، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّه سيكون قوم يعتدون في الدعاء، ويحسبك أو «كفاك» أن تقول: «اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قولٍ أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قولٍ أو عمل»**، وقرأ: **﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾**.

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ أعجزَ الناس من عجز عن الدعاء، وأبخل الناس من بخل بالسلام».**

● عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إذا دعا أحدكم فليُعظم رغبته، فإنَّ الله عز وجل لا يتعاظم عليه شيء أعطاه».**

إنَّ فضل الله سبحانه وتعالى واسع، وإنَّ بابه مفتوح لعباده؛ يرى ويسمع وهو بكل شيء محيط، والدُّعاء مخُّ العبادة، وهو الحبل المتَّصل بالسماء لا ينقطع أبداً، وإنما يخسر الإنسان خسارة عظيمة حينما ينقطع هذا الحبل عنه؛ إما بغفلته، أو بذنبه، أو بكبريائه وغروره، أو بموالاته لأعداء الله عز وجل، أو بخوضه في المال الحرام خوضاً، أو بظلمه وطغيانه وتسلُّطه على عباد الله، أو بانشغاله بأمور دنياه انشغالاً يقتل فيه الإحساس بالحاجة إلى خالقه عز وجل.

الله سبحانه وتعالى يفرح بدعاء عباده، وتضرُّعه إليهم، ويقول لهم عز وجل: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، دعاءً صادقٌ من العبد الصالح الموقن بربه، المؤمن به، تقابله استجابةٌ من الحي الذي لا يموت، أيُّ فضل أعظم من هذا الفضل؟

ومن أخصُّ خصائص دعاء الله عز وجل؛ أن الإنسان يدعو سميعاً مجيباً قريباً في كل وقت، وكل مكان، حينما يكون الناس غارقين في غَفَلاتهم، ارفع يديك إلى السماء تجد الله سبحانه وتعالى راعياً لك مستجيباً، وحينما يغيب الناس في غَفَواتهم، ارفع يديك إلى السماء تجد الله منك قريباً، وحينما تكون طريداً وحيداً شريداً، ارفع يديك إلى السماء تجد الله لك مؤنساً وناصراً ومُعيناً.

الدعاء، الدعاء، يا له من بساتين لا ينبت فيها إلا الصدق، والحب، والخير، والعطاء، والاطمئنان، والسعادة بالقرب من العظيم المنَّان.

الدعاء، الدعاء، الذي لا يملك أحد من أعدائك، أو حاسديك، أو مخادعيك، أو منافسيك له رَدّاً، ولا يستطيعون لك عنه صَدّاً، لأنك حينما تدعو صادقاً إنَّما تدعو بقلبك، فإذا دعوت بقلبك، فما عليك أن يفعلوا بباقي جسدك ما يريدون، ربما توضع القيود في الرِّجلين، وتوضع الأغلال في العنق واليدين، وربما يوضع اللجام على الفم، والعُصابة على العينين، وربما تُوضع اللُّفافة في الأُذنين، وربما يُلقى بالإنسان في غياهب السجون أو في مجاهل الغابات، أو من وراء المحيطات، أو بين كثبان الصحاري القاحلات، ربما، وربما، لكنَّ ذلك كلَّه لا يمكن أن يمنع هذا الإنسان من أن يتجه بقلبه إلى السماء، متضرعاً إلى ربه عز وجلّ الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

من هنا كان الدعاء مخَّ العبادة، ومن هنا حثَّ الله عز وجل عباده وحثَّهم رسوله ﷺ على الدُّعاء الصادق؛ لأنه يخترق كلَّ الحواجز والحُجُب التي قد يضعها شياطين الإنس والجن في طريق الإنسان؛ ولأنه لا يتأثر بأي عاملٍ من عوامل الكيد والمكر والخديعة التي يستخدمها المتجبرون من أشقياء البشر.

«واتقوا دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

سهمٌ نافذٌ يخترق كلَّ شيء؛ لأنه خارج عن قدرة البشر، وعن طاقة احتمال الحواجز الطبيعية في الأرض، أو في الفضاء، سهمٌ نافذٌ لا يمكن أن يخطئ هدفه أبداً.

الدُّعاء من أهم أبواب الاستبشار بالخير، والأمل المشرق في النَّصر والنجاة والنجاح، وما دام الدُّعام موجوداً، فلا خوف على المظلوم والضعيف، والمحتاج والمكروب؛ لأن الله سبحانه وتعالى يجيب دعوة المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، فهيًّا إلى بساتين الدعاء.

❀ ❀ ❀

أعرابي يدعو

يحدِّث راويةُ الأدب والشعر الأصمعيّ بقصة طريفة من بين عشرات القصص التي حصلت في رحلاته في الجزيرة العربية بحثاً عن الأدب والشعر، فيقول: بينما كنت أسير في الصحراء ميمِّماً شَطْر إحدى القبائل العربية بحثاً عن شعرها وشعرائها، وكان الوقت وقت قيظٍ وجفاف إذا بي أرى خباءً يلوح لي من بعيد بجانب كثيب مرتفع من الرَّمل، فأسرعت سيري إليه، حتى دنوت منه، وقد جئته من ورائه، فاستدرت إلى مقدمته من أحد جانبيه، فإذا بي أرى أعرابياً شيخاً جالساً على رَحْله أمام خبائه وبجواره امرأة عجوز، وقد رفعا يديهما إلى السماء وهو يقول:

يا رب إني جالس كما ترى
وزوجتي جالسة كما ترى
والبطن مني جائع كما ترى
وارضنا ظامئة كما ترى
فما ترى يا ربنا فيما ترى

وقد سمعت في نبرات صوت الرجل من دلائل الصدق ما أيقنت معه بصدق التوجُّه، وسرعة الاستجابة، وما غربت شمس ذلك اليوم حتى ساق الله سبحانه وتعالى إلى ذلك المكان سحابة أمطرته.

بمثل هذا يكون الاستبشار بالخير، بعيداً عن الاستسلام للتوجُّع والتحسُّر اللذين يسوقان إلى السَّلبية، والانهزام، فلو أنَّ ذلك الأعرابي الذي روى الأصمعي قصَّته اكتفى بالتقوقع على أحزانه مع زوجته داخل خبائه، لكان لهما حكاية أخرى غير هذه الحكاية، ربما كانت حكاية عن زوجين ماتا من الظمأ.

❁ ❁ ❁

ناصح الطريق

قال الرجل: كنت جالساً وراء مِقْوَدِ سيَّارتي في حالة تضايق شديدة بسبب الوقوف الطويل عند تلك الإشارة الضوئية التى أصبحت عائقاً مزعجاً يحول دون وصولي إلى الاجتماع في الموعد المحدَّد.

تضايقتُ، وأصابني إحساسٌ بالتبرُّم الشديد، حتى أطبقت شفتيَّ على بعضهما بطريقة غاضبة توحي لمن يراني بما أنا عليه من الضيق الشديد.

وسمعت صوت منبِّه السيارة التي بجواري يرتفع أكثر من مرَّة مما زادني ضيقاً على على ضيق، فالتفتُّ إليها، ونظرت إلى

سائقها نظرةً لا يخفى على من يراها ما فيها من التأنيب الشديد، وفوجئت بأن الرجل كان يريد أن يتحدَّث إليَّ حيث أشار إليَّ بأن أرخي زجاج سيارتي ليحدثني، وأرخيت الزُّجاج، وعلامات التضايق مفصحة عن نفسها، قال لي:

السلام عليكم، قلت له متثاقلاً: وعليكم.

قال لي مبتسماً: ما لي أراك مبلَّماً يا رجل؟

قلت: أما ترى هذا التزاحم الذي أمامك؟

قال: بلى، أراه، وهو يَبعث على التضايق، ولكنَّ لدينا دواءً يقضي على إحساسنا بالضيق.

قلت وقد زاد إحساسي بالتبرُّم من الرجل:

وما هذا الدواء أيها الطبيب الماهر؟

قال: سبحان الله، والحمدلله، والله أكبر، ولا إله إلا الله، إنها ستجعلك تنسى ما أنت فيه.

قال الرجل: نظرت إليه نظرة احتقار لهذه العقلية التي تتحدَّث معي في هذا الوقت بهذه الصورة، مع أنني على يقين بصحة ما قال، ولكنني كنت في تلك اللحظة أرى أنه لا مكان لهذا التوجيه هنا، فما زدت على أن أغلقت زجاج سيارتي وأهملت الرجل، ولم أقل له كلمة واحدة.

ثم إنني رجعت إلى حالة الضيق، وكأنني أصبحت استمتع بها.

وطال الوقوف حيث أصبحت السيارات أرتالاً، وتبيَّن لنا أن حادثاً مرورياً مؤسفاً كان سبباً في هذا التزاحم.

وفكَّرت فيما قال الرجل، واختلست النظر إليه فرأيت شفتيه تتحركان وعلى وجهه علامات البِشْر والارتياح.

فأخذت أردِّد ما أرشدني إليه من الذكر والتسبيح، وما كرَّرت ذلك مرتين حتى بدأت أشعر بالارتياح، ثم أحسست بأن غيوم ذلك التضايق تنجلي عن قلبي، وذلك الشعور بالتبرُّم يتلاشى حتى خفَّت روحي، وانشرح صدري، وما شعرت بعد ذلك إلا بالسيارات تنطلق بعد أنْ زال سبب التزاحم، وانطلقت وأنا أدعو لذلك الرجل، وأشعر بالخجل من نفسي حين واجهته بالتبرُّم، ولم أقل له كلمة شكر على ما قال، ولولا أنني تأخرت عن موعدي للحقت به، واستوقفته وعبَّرت له عن أسفي على ما بدر مني وشكري له وتقديري.

وقلت لنفسي: سبحان الله! كم نغفل عن هذا الكنز العظيم، وهذه الغنيمة الباردة، وهذا الدواء الناجع للضيق والتبرُّم؟

وكم نقف واجمين بشفاهٍ «مبلَّمة» وقتاً طويلاً، كان الأولى بنا أن نستثمره في ذكر الله عز وجل والاستغفار حتى نفوز بخيري الدنيا والآخرة.

لقد صدق «ناصح الطريق»، وقد جربتُ، فجرِّبوا.

إنَّ وسائل الاستبشار والسعادة في الدنيا كثيرة، إنما المشكلة في الإنسان الغافل.

❀ ❀ ❀

مجيب

من شعري:

أسائل قلبي الشاكي وأنّى
لمجروح المشاعر أنْ يُجيبا
فؤادي أيُّها الشاكي تصبَّر
ودَعْ عنك التأسُّفَ والنَّحيبا
إذا قست الخطوب عليك فاصبر
عليها وانتظر فرجاً قريبا
إلهك حين تدعوه مجيبٌ
وكيف يخيب مَنْ يدعو مجيبا؟

❀ ❀ ❀

تلوين

• قيل لسقرط حكيم اليونان: لماذا لا نراك تهتمُّ على فائتة، ولا تفرح لفائدة، قال: لأن تلك لا تُتلافى بعَبْرةٍ، وهذه لا تُستدام بحَبْرةٍ. والحبرة: هي السرور.

• لما دخل المأمون بغدادَ بعد قتل أخيه الأمين، دخلت عليه أمُّ جعفر؛ زُبيدة والدة الأمين فقالت:

الحمد لله، لئن هَنّأتُك في وجهك لقد هَنَّأتُ نفسي قبل أنْ أراك، ولئن فقدتُ ابناً خليفةً، فقد اعتضتُ ابناً خليفةً، وما خسر من اعتاض مثلك، ولا ثَكلت أمٌّ ملأت يدَها منك، فأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ، وإمتاعاً بما وهب.

فقال المأمون: ما تلد النساءُ مثل هذه.

• كان عطاء بن أبي صَيفيّ الثقفي أوَّل من عزَّى وهنَّأ شخصاً واحداً في موقف واحد فأصاب وأحسن.

وذلك أنه دخل على يزيد بن معاوية حينما بُويع بالخلافة بعد أبيه فقال:

يا أمير المؤمنين، أصبحتَ قد رُزيتَ خليفةً، وأُعطيتَ خلافةَ الله، وقد قضى معاويةُ نَحبه، فغفر الله ذنبه، وقد أُعطيت بعده الرياسَةَ، ووليتَ السياسة، فاحتسبْ عند الله أعظم الرزيَّة، واشكره على أفضل العطيَّة.

• أسرتْ قبيلة مُزينة حسان بن ثابت رضي الله عنه في الجاهلية، فأراد أهلُ حسان أن يفتدوه، فقالت مزينة: لا نُفاديه إلا بتيس أجَمّ، فقالوا: والله لا نرضى أن نفتدي لسانَنا وشاعرنا

بتيس. فقال حسان: ويحكم أتغبنون أنفسكم عياناً؟ إنَّ القوم تيوس، فخذوا من القوم أخاكم وأعطوهم أخاهم.

❁ ❁ ❁

السعة وحسن الرأي

يروي داود عن سلمة بن صخر البياضي رضي الله عنه الحديث التالي:

كنت امرءاً أصيب من النساء ما لا يصيب غيري، فلما دخل شهر رمضان خِفت إنْ أصبتُ من امراتي شيئاً تتابع بي حتى أصبح، فظاهرتُ منها حتى ينسلخ شهر رمضان، فبينما هي تخدمني ذات ليلةٍ، إذ تكشَّف لي منها شيء، فما لبثت أن نزوتُ عليها، فلما أصبحت خرجتُ إلى قومي، فخبرتهم الخبر، قال: فقلت: امشوا معي إلى سول الله ﷺ، قالوا: لا والله، فانطلقت إلى النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: **أنتَ بذاك يا سلمة؟** قلت: أنا بذاك يا رسول الله، مرتين، وأنا صابر لأمر الله، فاحكم فيَّ ما أراك الله، قال: **حرِّرْ رقبة**، قلت: والذي بعثك بالحق، ما أملك رقبة غيرها ـ وضربتُ صفحةَ رقبتي ـ قال: **فصم شهرين متتابعين**، قلت: وهل أصبت الذي أصبت إلا من الصيام؟ قال: **فاطعم وسقاً من تمرٍ بين ستين مسكيناً**، قلت: والذي بعثك بالحق، لقد بتنا وحشين، ما أملك طعاماً، قال: **فانطلق إلى صاحب صدقة بني زريق، فليَدفعها إليك، فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر، وكل انت وعيالُك بقيَّتها**،

فرجعتُ إلى قومي فقلت: وجدتُ عندكم الضيق وسوءَ الرأي، ووجدت عند النبي ﷺ السَّعَةَ وحسن الرأي، وقد أمر لي بصدقتكم، فادفعوها إليَّ، فدفعوها إليه».

أيُّ رُقيٍّ في التعامل البشري كهذا الرُّقي؟ وأيُّ وضوح كهذا الوضوح؟

وأي (شفافية) كهذه الشفافيَّة التي يقول فيها الإنسان رأيه صريحاً أمام سيد الخلق، فلا يجد إلا التوجيه والرّعاية والرحمة؟.

حينما نتأمل الحديث السابق نخرج بما يلي:

١ ـ صدق ووضوح يعبرٌ عن نفوس مطمئنّة بيقينها.

٢ ـ صراحة مؤدَّبة في التعبير عن مشكلةٍ خاصة.

٣ ـ حرص على براءة الذمة، وخوف من الله عز وجل لا من الناس.

٤ ـ ثقة متبادلة بين الرسول وأصحابه.

٥ ـ استسلام كامل لأمر الله سبحانه وتعالى تحقيقاً لقوله: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

٦ ـ سعة صدر، وحسن رأي، ورعاية نبوية كريمة لرجل أخطأ وسعى إلى التوبة بنفسه.

٧ ـ حياة خالية من التعقيد، وسوء الظن، ومصادرة المخطئ بسبب خطئه.

٨ ـ مجتمعٌ مسلم مستقرٌ قائم على النصح والصدق والرٌفق، بعيد عن العنف، والشدَّة، وغِلظة الطبع، مجتمع يبشّر ولا ينفّر.

❀ ❀ ❀

مرحباً وأهلاً وسهلاً

قال الأصمعي: مرحباً: أي لقيتَ سَعَةً ورحابةَ صدر.

وأهلاً: أي لقيت أهلاً كأهلك

وسهلاً: أي سَهلت عليك أمورك

وقال الفرَّاء: فيه معنى الدعاء، كأنه قال: رحَّب الله بك مرحباً، وأهَّلك اهلاً، وأنشد بيتاً لعمرو بن الأهتم:

فقلت له اهلا وسهلاً ومرحباً

فهذا مَقيلٌ صالحٌ وصديقُ

والرُّحبُ: السَّعَةُ، وإنما سُمِّيت الرَّحَبَة رَحَبةَ لاتساعها.

يقول أبو الأسود الدؤلي:

إذا جئتُ بوَّاباً له قال مرحباً

ألا مرحبٌ واديكَ غير مَضيقِ

الترحيب بالقادم شيمةٌ يتسابق إلى فعلها الكرماء

وأقول:

مــرحــبــاً بـالنَّدى وأهلاً وســهــلاً
اخصب الروض بعـد انْ كـان مَحلا

❀ ❀ ❀

سبحان ذي العرش

قال ورقة بن نوفل:

لقــد نصــحت لأقــوام وقلتُ لهم
أنـا النَّذيـر فــلا يَغْــرُرْكمُ أَحَــدُ
لا تعــبــدُنَّ إلهــاً غــيــر خــالقكم
فــإن ابيــتم فـقــولوا: دونه حَــددُ
سبـحـان ذي العـرش سبـحـاناً يدوم له
رَبُّ البــريَّةِ فــردٌ واحــدٌ صَــمَــدُ

❀ ❀ ❀

لا تغلق باب الابتسامة

عندمـا تشـاهـد مناظر الـرعب والقـتل والدَّمـار، وعندمـا ترى ألسنة النيـران تتصاعد أمام عينك في بلاد المسلمين، وعندما ترى جنـود الأعـداء يجـرُّون أمـام عـينيـك رجـالاً ونسـاءً وأطفـالاً من المسلمين في الشوارع المقفرة من العدل والرحمة جرّاً، وعندما ترى أسلحة الأعداء تسـتخدم بكل أصنافها وأنواعها على مرأى منك

ومسمع فإنك ـ هنا ـ ستشعر بضيق يملك عليك مسارب نفسك، ويسدُّ على قلبك منافذ سعادته وفرحته، فتصبح ـ في هذه الحالة ـ بين أمرين: القنوط والإحباط والتوقُّف عن التفكير في الخلاص.

أو: اللجوء إلى الله عز وجل، ومراجعة النفس في أخطائها وتجاوزاتها، والعودة إلى منابع العزة والقوة في كتاب الله وسنة رسوله، وفتح نوافذ التفكير السليم في الخلاص.

أنت بقنوطك تساعد عدوك على تحقيق أهدافه، وتسلِّم إليه زمام نفسك وعقلك وقلبك ليركلك بقدمه القاسية.

وأنت بلجوئك إلى ربك، وثقتك به تصدُّ عنك عدوَّك الغاشم مهما كانت قوته وقدرته، وتصون نفسك عن التذلُّل له، وتصبح حكيماً في مواجهتك للموقف.

إن لك حق الاختيار، ولكنني أحب أن أساعدك في التوجيه إلى اختيار الطريق الأمثل بك، إنه الطريق الثاني، الطريق الذي يوصِّلك إلى النجاة، الطريق الذي يجعلك حينما تقول: حسبي الله ونعم الوكيل قادراً على مواجهة أعدائك بقوةٍ واقتدار، وعلى رؤية ما وراء الجدار، وعلى رسم معالم الثبات في المحن ورفع راية الانتصار.

هنا ستكون قادراً على ترك باب ابتسامتك المضيئة مفتوحاً بالرغم من ظلام المآسي.

❀ ❀ ❀

محمد بن واسع يرشدك

افتقد القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي الفقيه (محمد بن واسع) في ليلة من ليالي المرابطة في مواجهة التُّرك، فسأل عنه من كان حوله من أصحابه فأخبروه أنهم لا يعلمون أين هو، فأمر بالبحث عنه، وهناك في ناحية منزوية من مَيمنَةِ المعسكر وجده أحدهم متجهاً إلى القبلة مائلاً على طرف قوسه، وقد رفع سبَّابته يحرِّكها نحو السماء، فلمّا فرغ، قال له الرجل: القائد يبحث عنك، وظل قليلاً في مكانه قبل أن ينطلق مع الرجل، ثم اتجه معه إلى قُتيبة، فلمَّا رآه قتيبة بن مسلم هَشَّ له وبشَّ، وقال: يرحمك الله أين كنت عنا يا ابن واسع في هذه الساعة، هنا ابتسم له ابتسامة الانشراح والرِّضا وقال له: أبشرْ أيها القائد البطل، فقد كنت آخذ لك بمجامع الطرق، قال قتيبة: تلك الإصبع الفاردة أحب إليَّ من مائة ألفِ سيفٍ شَهير، وسنان طرير، وقد كان النصر حليف المسلمين.

نعم. إنَّ تلك السبَّابة التي ترتفع في التشهُّد في صلاة خالصة لله تعالى، كاملة الخشوع تامة الأركان، لتفعل ما يَعجز عنه أشد الأبطال قوةً، وأعظم الأسلحة فتكاً.

نعم.. أبشر يا قتيبة بسهام الدعاء التي لا تخطئ مواقعها.

نعم... في أحلك المواقف يتحقق معنى «بشِّروا ولا تنفِّروا».

نظرة الإنصاف

لابد من نقد الباطل وأهله نقداً عادلاً يتضح به للغافلين من الناس ما في الباطل من خطورة، وما لأصحابه من أساليب خافية في نشره، ولكنَّ ذلك لا يعني الحكم على كل جوانب حياة أهل الباطل بالبطلان، فلربما تكون لديهم بعض الجوانب الحسنة مع كونهم أهل باطل، ومن هنا كانت نظرة الإنصاف مهمة جداً للناس وللحياة، فاللّص مذموم العمل مستحق للعقاب، لكنه إذا ساعد ضعيفاً محتاجاً، أو دافع عن بريء اعتدى عليه ظالم، يشكر على فعله الحسن مع ذمّنا للصوصيّته، ودعوتنا إلى عقابه عليها.

في المدينة الغربية المعاصرة انحراف شديد، ومبارزة لله سبحانه وتعالى بالإلحاد والمعاصي وكبائر الذنوب، ولابد لنا من التحذيرالقويّ من انحرافها وسوئها، ومخالفاتها لمنهج الله في الكون، ولابد لنا من إعلان كلمة الحقّ صريحة مدوّية لبيان باطلها، ولمواجهة ظلمها وتسلُّطها، ولكن ذلك كلّه لا يعني أن الغرب قد فقد الخير بصورة عامة، فما تزال فيه للخير أبواب مفتوحة، ومجالات متاحة.

قال لي صاحبي: لا أظن أنَّ للعفَّة في الحب، وفي العاطفة نحو المرأة مكاناً في الغرب، فقد فقدوا معنى العفّة، وأصبحت الرذيلة أمراً اجتماعياً مقبولاً، بينما نرى العفَّة في الحب عندنا نحن العرب موجودة بصورة بارزة حتى عند أهل الجاهلية قبل بزوغ فجر الإسلام

قلت لصاحبي: في كلامك صواب وخطأ، وحق وباطل، ولابد أن تكون عادلاً في حكمك، منصفاً في نظرتك، دقيقاً في معلوماتك؛ لأن الحبَّ العفيف للمرأة موجود عند كل الأمم بما فيهم (الغرب) يؤكد ذلك التاريخ، ويؤكده الواقع، وإن كان للعرب في هذا المجال قصب السبق خاصةً بعد أن رفعهم الإسلام إلى مستوى العفَّة الحقيقية.

فإذا كان ابن خفاجة الأندلسي يقول:

إني وطبع العفاف من شيمي
آبي الدنايا وأعشقُ الحَسَنَا

فإن الشاعر الفرنسي (مار كابرو) يقول:

«أنَّ الحبَّ الصادق العفيف، والحبَّ الزَّائف لن يلتقيا».

❀ ❀ ❀

التلاميذ يحلقون رؤوسهم

مديرة مدرسة ابتدائية في الصين نالت جائزة (العمل الخيري الإنساني) لأنها شجَّعت طلاب مدرستها الصغار على حلق رؤوسهم كيف ذلك؟

أصيب أحد تلاميذها بمرض السرطان، وبادر أهله بعلاجه، واستخدم له العلاج بالأشعة، حتى تساقط شعر رأسه كله، وكانت تتابع حالته، وتزوره طيلة أيام العلاج، حتى إذا استقرت حالته

الصحية، وأصبح قادراً على العودة إلى صفوف الدراسة، نظرت مديرة المدرسة إلى شكل رأسه وقد أصبح بلا شعر فانقدحت في نفسها فكرة إنسانية جميلة، وبادرت بالتنفيذ.

في آخر اليوم الدراسي جمعت التلاميذ وأعلنت عن جائزة مالية جيدة لكل تلميذ يأتي اليوم التالي حالقاً شعر رأسه تماماً، وعن هدية ثمينة له، ولما جاء التلاميذ صبيحة اليوم التالي وجدت معظمهم قد حلق رأسه فعلاً، وكان ذلك التلميذ الذي أصيب بالسرطان قد حضر لأول مرة إلى المدرسة في ذلك اليوم بعد إجازته للعلاج، فدخل برأسه الحليق مع عشرات الرؤوس الحليقة.

ابتسمت المديرة ابتسامة الفرح، وعبَّرت لمن حولها عن سعادتها بنجاح خطتها فقد كانت حريصة على مشاعر تلميذها المريض، لأنه لو زار المدرسة حليق الرأس دون زملائه لكان مثار تعليقاتهم وسخريتهم، ولربما كان لذلك أثر سلبي كبير في نفسه، أما الآن فإن معظم الطلاب مثله. إنها تستحق جائزة هذا العمل الإنساني بجدارة.

أليس هذا العمل من الأعمال الجليلة في بلد وثني؟؟

كم من مدير مدرسة في العالم الإسلامي يكون أوَّل من يسخر من بعض تلاميذه، ويكون أول من يحمل معول التحطيم النفسي لهم!

هنا يكون لنظرة الإنصاف معنى عظيم.

ابدأ بنفسك

يا أيُّها الرجل المعلِّم غيره
هلاً لنفسك كان ذا التعليم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها
فإذا انتهت عنه فأنتَ حكيمُ

كم من رجلٍ ينتقد بعض الأعمال بشدَّة حينما تقع من غيره، بينما ينظر إليها بمنظارٍ آخر حينما تقع منه، أو من أحد من يعنيه أمرهم.

والشواهد في حياة البشر كثيرة ...

قال لصاحبه: ما أكثر الذين لا يرعون حرمة إشارة المرور الحمراء، إنهم سبب في كثير من الحوادث التي تحدث.

قال له صاحبه: صدقتَ، ولكني رأيتك أكثر من مرَّةٍ تنتهك حرمة هذه الإشارة.

ابتسم قائلاً: لا أفعل ذلك حتى أتأكد من عدم وجود سيارات في الاتجاهات الأخرى.

قال له صاحبه ضاحكاً: كل من يقطع إشارة المرور الحمراء يقول ما تقول، ويعتقد أنه صادق فيما يقول.

«ابدأ بنفسك» شعار مهم يجعل البشارة بصلاح الأحوال واقعاً معاشاً.

حكاية طريفة

كان الصانع منهمكاً في عمله، ينفخ بالكير النار المشتعلة، ويضرب بمطرقته ما أمامه من صفائح الحديد التي يحولها بمهارته إلى خناجر وسكاكين، وبعض الأواني المنزلية، وبلغه خبرٌ عن غنمٍ دخلت إلى مزرعته الصغيرة، وأفسدت بعض ما فيها من صغار الغرس، فأخذ يصرخ وهو في مكانه مستنكراً مطلقاً للسانه العنان في السبِّ والشتم، فجاءه أحد الصبيان ليخبره أن الغنم لم تدخل في مزرعته هو، ولكنها دخلت في مزرعة جاره، فهدأت ثورته قليلاً، ولكنَّه ظلَّ يقول: لابد أن يعاقب هذا الراعي الذي يفسد على الناس مزارعهم، وأن يعاقب أهله معه، وبينما هو كذلك جاءه من أخبره أن الغنم غنم الصانع وأن الراعي ولده، وأنها دخلت في مزرعة جاره فلان فأفسدت زرعها.

هنا سكن الرجل وجلس في مكانه، وقال موجهاً الخطاب إلى ولده الذي يساعده في صناعته: انفخ الكير يا ولد، وكأن شيئاً لم يكن.

يبدو أنَّ كل إنسان يمكن أن يقف الموقف نفسه، إلا من خاف مقام ربِّه ونهى النفس عن الهوى.

«أحب لأخيك ما تحب لنفسك».

«عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به».

هنا تكون من أهل «بشّروا ولا تنفّروا».

❀ ❀ ❀

اثنتا عشرة جوهرة

● **الأولى:** هدية من محمد بن واسع: الإبقاءُ على العمل أشدُّ من العمل.

● **الثانية:** هدية من أبي حيَّةَ النميري:

إني رأيت، وفي الأيّام تجربةٌ
للصبر عاقبةً محمودةَ الأثَر
وقلَّ من جدَّ في أمرٍ يطالبه
فاستصحب الصَّبْرَ، إلاَّ فاز بالظَّفَرِ

● **الثالثة:** هدية من الأحنف بن قيس:

من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، ورُبَّ غيظٍ قد تجرَّعتُه مخافةَ ما هو أشَدُّ منه.

● **الرابعة:** هدية من الحسن البصري:

المؤمن لا يجهل وإن جُهِلَ عليه، حليمٌ لا يظلم، وإن ظُلِمَ غَفَر، كريم لا يبخل، وإن بُخِلَ عليه صَبَر.

● **الخامسة:** هدية من عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لو كان الصبر والشكر بعيرين، ما باليتُ أيَّهما رَكبت.

● **السادسة:** هدية من أعرابي:

كن حُلْوَ الصَّبر عند مُرِّ النَّوازل.

● **السابعة:** هدية من علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

القناعة سيفٌ لا يَنْبُو، والصبر مطيَّة لا تكبو.

● **الثامنة:** هدية من سعيد بن حميد الكاتب:

لا تَعتَبَنَّ على النوائب ... فالدَّهر يُرغِمُ كلَّ عاتب
واصبر على حَدَثانه ... إنَّ الأمور لها عواقبْ
كم نعمةٍ مطويَّةٍ ... لك تحت أثناءِ النوائبْ
ومسرَّةٍ قد أقبلتْ ... من حيث تنتظر المصائبْ

● **التاسعة:** هدية من عبدالرحمن الداراني:

إنْ سرَّك أن تذوق حلاوةَ العبادة، وتبلُغَ ذِروةَ سنامها فاجعل بينك وبين شهوات الدنيا حائطاً من حديد.

● **العاشرة:** هدية من ابن السمَّاك:

المصيبة واحدة، فإن جزِعَ صاحبها فهما اثنتان؛ فقد المصاب، وفقد الثواب.

● **الحادية عشرة:** هدية من حكيم العرب أكثم بن صيفي:

اصبر على عملٍ لا غنى لك عن ثوابه، وعن عملٍ لا صبر لك على عقابه.

● **الثانية عشرة: هدية من لقمان الحكيم**

يا بني كذب من قال: إنَّ الشَّرَّ يُطفئ الشرّ، فإن كان صادقاً فَلْيوقد نارين ثم لينظُر هل تُطفئ إحداهما الأخرى؟ إنما يُطفئُ الخيرُ الشرَّ، كما يُطفئ الماءُ النَّار.

❀ ❀ ❀

سيُفتَح الباب

من شعري:

يا أمَّةَ الحقِّ، عينُ الظلم سوف ترى
من صارم العدل حداً قاطعاً وشَبَا
لا يَفْطَنُ الظالم الباغي لما اقترفتْ
يداه من ظلمه إلاَّ إذا نُكِبَا
في حينها، رُبَّما يُبدي ندامتَه
لكنَّه ندمٌ لا يُبلغُ الأرَبا
سيُفتَح البابُ، بابُ الفجر، تفتحه
يَدُ المصلِّي الذي لا يعرف الكذبا

❀ ❀ ❀

تلوين

● يشير الكاتب محمد نضال الحافظ في كتابه (الحقيقة بين النبوءة والسياسة) إلى أنَّ لدى العالم الغربي، وأتباع الديانتين

النصرانية واليهودية هَوَساً منذ عقود من الزمان حول النبوءات التوراتية والإنجيلية عن المستقبل، فاليهود ونصارى الغرب يعتقدون أن قيام دولة اليهود للمرة الثانية في فلسطين هو علامة لقرب ظهور الملك المنتظر بالنسبة إلى اليهود، وقرب المجيء الثاني للمسيح بالنسبة للنصارى، ولذلك يعكف الكثير منهم على اختلاف تخصصاتهم العلمية والمهنية في هذه الفترة على دراسة وتحليل وتفسير النبوءات التوارتية والإنجيلية التي تخبر عن أحداث آخر الزمان، خاصة فيما يتعلق بنهاية دولة اليهود في فلسطين، ودمار العالم الغربي، وعودة الإسلام في نهاية المطاف لواجهة الصدارة، ومن أراد أن يعرف مقدار سيطرة هذه الأفكار وتلك النبوءات على العقل اليهودي والنصراني في أمريكا وأوروبا خاصة بريطانيا وفرنسا، فما عليه إلا أن يزور بعض المواقع من آلاف المواقع على شبكة «الإنترنت» ويبحث عن بعض الكلمات مثل «الحرب العالمية الثالثة» و«هر مجدون» و«نبوءة» و«معجزة»، فسوف يرى من ذلك عجباً عُجاباً وربما يدرك أن سياسة شن الحروب الأخيرة من قبل الغرب بقيادة أمريكا إنما هو من منطلق هذا الهوس المتعلق بالنبوءات.

ونقول: المسلمون يملكون الحقائق، ومع هذا يعيشون خارج الإطار، ليتهم ينطلقون بنصوص دينهم الصحيحة الواضحة لإرشاد العالم إلى الصواب.

● إنجيل (متى) يقول مخاطباً اليهود: أيُّها الحيَّات، أولاد الأفاعي، كيف تُفلتون من عقاب جهنم.. أورشليم، يا قاتلة

الأنبياء المرسلين إليها، كم مرَّةً أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدَّجاجة فراخها تحت جناحيها فأبيتم.... الويل لكم أيها القادة العُميان، فإنكم كالقبور المطليَّة بالكلس تبدو جميلة من الخارج، ولكنها من الداخل ممتلئة بعظام الموتى وكلِّ نجاسة، الويل لكم.

ما رأي الذين يطمعون في مسالمة الدولة اليهودية في فلسطين؟

❀ ❀ ❀

ليس هذا من التَّذَبْذُب

قالي لي شاب منفعل: إني غاضب من الشيخ (فلان) أشدَّ الغضب؛ لأنني رأيت منه موقفاً متناقضاً يدلّ على التذبذب والاضطراب.

قلت له: وما ذلك الموقف المتناقض؟

قال: رأيته يجلس مع رجلٍ مخالفٍ له في المذهب والفكر، وهو يحاوره بهدوءٍ واحترام، ويبتسم له، ويتعامل معه بقدرٍ كبيرٍ من التقدير كما ظهر لي، مع أنه يحذِّر من مذهبه ومن أمثاله، ويرى أنَّ في مذهبه خَلَلاً في كثير من الجوانب، ومخالفة للعقيدة الصحيحة، وتجاوزاً لما شرع الله سبحانه وتعالى في بعض الأمور، وإنها حالةٌ مزعجة أنْ يقف هذا الشيخ مثل هذا الموقف المتناقض، وألاَّ يكون صارماً مع ذلك الرجل في جلوسه معه، كما هو صارمٌ في حديثه عن مذهبه وفكره في غيابه!

قلت للشاب: وكيف حكمت على هذا الأسلوب بأنه دليل على التناقض والتذبذُب عند الشيخ الذي ذكرت؟؟

قال بشيءٍ من الحدَّة: وهل هنالك تعبير أدقّ من هذا التعبير في هذا الموقف؟

قلت: هل تعرف رأي الرسول ﷺ في المنافقين؟

قال: نعم، وإنه رأي القرآن الواضح في بيان سوئهم، وتلوُّنهم، وإظهارهم خلاف ما يُبطنون من الكفر، والحقد والحسد لرسول الله ﷺ ودعوته.

قلت: فاستمع مني إلى هذه القصة الصحيحة:

«حينما كان المسلمون راجعين بعد غزوة بني المصطلق، جرى خلافٌ بين رجلين منهم، فقال عبدالله بن أُبيّ بن سلول - رأس المنافقين - كما ورد في سورة المنافقين - : ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ فقال ابنه عبدالله رضي الله عنه للنبي ﷺ: هو والله ذليلٌ وأنتَ العزيز يا رسول الله، إن أذِنتَ لي في قتله قتلتُه؛ فو الله لقد علمت الخزرج ما كان بها أحدٌ أبرَّ بوالده مني، ولكني أخشى أن تأمُرَ به رجلاً مسلماً فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي على الأرض حيَّاً حتى أقتلَه، فأقتل مؤمناً بكافرٍ فأدخل النار، فقال النبي ﷺ: **«بل نُحسن صحبته ونترفَّق به ما صحبنا، ولا يتحدَّث الناس أنَّ محمداً يقتل أصحابه، ولكن بَرَّ أباك وأَحسن صُحبته».**

فلما مات عبدالله بن أُبيٍّ جاء ابنه عبدالله رضي الله عنه إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال: أعطني قميصك أكفّنه فيه، وصَلِّ عليه، واستغفر له، فأعطاه قميصه، وقال: إذا فَرَغتم فآذِنُوني، فلما أراد الرسول ﷺ أن يصلّيَ عليه جَذبه عمر وقال: أليس قد نهى الله عز وجل أن تُصليَ على المنافقين؟ فقال: أنا بين خِيَرَتَين: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، فصلى عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾. فترك الصلاة عليهم.

هذه القصة فيها جوابٌ واضحٌ عن سؤالك؛ فهذا محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام الذي أُنزلت عليه سورة المنافقين فيما أُنزل من القرآن يقولها واضحةً صريحةً لعبدالله بن عبدالله ابن أُبيّ في شأن أبيه رأس النفاق: بل نُحسن صحبته، ونترفَّق به ما صحبنا، ولم يمنعه من هذا التعامل الحسن ما نزل في شأن المنافقين من الوعيد الشديد في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم.

قال الشاب: ولكن ألا ترى أنَّ الله سبحانه وتعالى قد نَهَى بعد هذه القصة نبيَّه عن الصلاة على موتاهم والقيام على قبورهم؟

قلت له: بلى، قد نزل القرآن بالنهي عن ذلك، ولكنَّه لم ينه عن حُسْن التعامل الذي صرَّح به الرسول ﷺ في القصة السابقة، فلم يقل: ولا تحسن صحبتهم والتعامل معهم، إنَّ التعامل الحسن

أيها الشابُّ الكريم سِمَةٌ من سمات حملة لواء الدعوة إلى الله عز وجلّ، فهو من أفضل أساليب الدعوة، وجلب نفوس المنحرفين، واستمالة قلوبهم، وهو لا يعني أبداً موالاة المخالفين لمنهج الله، والمحاربين له، والمنافين المبغضين لمنهج الحق الواضح، وإنما يعني التخلُّق بخلُق الرسول ﷺ والأنبياء من قبله عليهم السلام، مع وضوح الحقّ، وجلاء الموقف من الباطل.

إنَّ الشيخ الذي انتقدتَ تعامله مع الرَّجُل المخالف وهو يحاوره، يستخدم الأسلوب الأمثل في المناقشة الهادفة والحوار المفيد، وما دام الحوار قائماً على صدق النية في بيان الحق وإيضاحه، ومحتكماً إلى كتاب الله وسنة رسوله، وبعيداً عن الجدل العقيم الذي يُوغر الصدور، ويُلبِّس الواضح من الأمور، فإنه أسلوبٌ دعويٌ لابد أن يكون قائماً على الهدوء، والبصيرة، وحسن التعامل مع الآخر حتى يفهم الحقّ.

قال الشاب: كلامك واضح جداً، ولكنَّ المشكلة تكمن في عدم قناعتي بكل ما قُلتَ.

قلت له: لم أقل أنا شيئاً كما رأيت، وإنما نقلت لك ما ورد عن قدوتنا جميعاً محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام في مثل هذه المواقف، والأمر واضحٌ جداً بحيث لا يجوز لأحد أن يتوسَّع فيه توسُّعاً يخالف المنهج، ويُخلُّ به، فإذا فعل أحدٌ ذلك فقد انحرف بالمسألة إلى ما لا يصحُّ، وما لا نقبله، مهما كانت مكانة

المخالف في نفوسنا، إننا نعيش في نورٍ ساطعٍ من تعاليم ديننا الحنيف، وما علينا أيُّها الشابُّ الكريم إلا أن نكون قادرين على فهم هذه التعاليم واستيعابها، وسؤال أهل الذكر والعلم فيما يستعصي علينا فهمه منها.

إننا بهذا الوعي الشرعي الكبير نحقِّق بصورةٍ جليَّة معنى: «بشِّروا ولا تنفِّروا».

❦ ❦ ❦

الرسول الكريم ﷺ

أسِيد بن أبي أُناس، شاعر من بني عدي بن الدُّئِل، لما قدم قومه إلى رسول الله ﷺ، طلبوا منه أنْ لا يقاتلوه، ولا يقاتلوا معه قريشاً، وتبرؤوا إليه من أسيد بن أبي أناس، وقالوا: إنَّه قد نال منك في شعره، فأباح النبيُّ ﷺ دمه، وبلغ أسيداً ذلك؛ فأتى الطائف، فلما كان عام الفتح ـ فتح مكة ـ خرج سارية بن زنيم إلى الطائف فأخبر أسِيداً بذلك، وأخذه وأتى به النبيَّ ﷺ، فجلس بين يديه وأسلم، فأمَّنه رسول الله ﷺ ومسح وجهه وصدره، فقال يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام:

فأنت الذي تُهدى معدٌّ لدينها
بل اللهُ يَهديها، وقال لك: اشهَدِ

فما حملت من ناقةٍ فوق كورها
أبرَّ وأوفى وفي ذِمَّةً من محمَّد

واكسى لبُـردِ الخـالِ قـبلَ ابتـذاله
واعطى لراس السـابق المتـجـرِّدُ
تـعلَّم رســولَ الله انـك قـــادرٌ
على كل حيٍّ؛ مُـتـهـمينَ ومُنجـدِ

وفي الرواية أنه لما قال:

وأنتَ الفتى تهَدي معدّاً لدينها

قال له الرسول ﷺ: بل الله يَهديها، فقال الشاعر:

بل الله يهديها وقال لك اشهدِ

ياله من كرمٍ «محمّدي»، وعطفٍ ورحمةٍ نَبويين قَلَّ نظيرُها في حياة البشر!

● الأسـود بن وهب، هو خـال النبي ﷺ، أخو أمِّه آمنة بنت وهب، روت عائشة رضي الله عنها أنَّ الأسود بن وهب رضي الله عنه خال النبي ﷺ استأذن عليه، فقال له: يا خال، ادخل، فدخل، فبسط له رداءَه، وقال: اجلس عليه، قال: حسبي، أجلس على ما أنت عليه؟ قال النبي: إنَّ الخال والدٌ يا خال، مَنْ أُسديَ إليه معروفٌ فلم يشكر، فليذكُرْ، فإنه إذا ذكرَ فقد شكر.

ما أجمله من موقف كريم، وما أعظمه من برٍّ ورحمة، وما أصدقَها من صلة للرحم، نجدها في حياة رسول الله ﷺ مع كلِّ ذي رحمٍ وقرابةٍ يَمُتُّ إليه بصلة.

❀ ❀ ❀

أين نَصْرُ المليار؟

سؤالٌ يتكرَّر كثيراً، أين نَصْرُ المليار؟ وكيف يتحقَّق معنى الاستبشار لأمة تتوالى هزائمها أمام أعدائها؟ وهل هنالك مجالٌ لما نادي به من التفاؤل، ونحن نرى دماءَ المسلمين أرخص الدِّماء في هذا العصر؟ كيف نستطيع أن نكون أمَّةً مبشِّرةً مستبشرة، ونحن في عداد الأمم المتخلِّفة عن ركب التقدُّم العلمي المزهر في هذا العصر؟

«بشِّروا، ولا تنفِّروا» جملتان من حديث نبوي شريف، فيهما من الإضاءة والأمر بالتفاؤل ما فيهما، ولكنَّ حالةَ الأمة المسلمة المعاصرة لا تساعدها على تنفيذ هذا الأمر الكريم، فماذا نفعل؟

ونقول: ليس معنى سوء حالة الأمة في هذا الوقت أنَّ الأمل فيها قد مات، ولا يجوز مع هذه الحالة أن نستسلم لليأس، ولا أن نشكَّ في إمكان تحقُّق النصر والرُّقيّ لها، كما أنه ـ من جانب آخر ـ ليس معنى الدعوة إلى التبشير والاستبشار أن نتجاهل حالة الأمة السيِّئة، وأن نغفل عن واقعها المؤلم، وأن نتناسى مآسيَها المتكرِّرة، كلا ليس هذا ولا ذاك هو المراد، وإنما المراد ألاَّ نفقد الأمل، وألاَّ نترك الاستبشار والتبشير بالعزّة بعد الذلّة، والقوة بعد الضعف، والنصر بعد الهزيمة، ومن أهم وسائل تحقيق البشارة بالنصر، والتفاؤل به أن نكون صريحين جداً في تشخيص داء الأمة الإسلامية في هذا العصر، وأن نكون قادرين على التفاؤل مع معرفتنا بداء الأمة المستشري؛ لأننا نملك ـ حقاً ـ أسباب التفاؤل

وأدواته، ولأن السبب في سوء حالة الأمة إنما هو التفريط في عمل تلك الأسباب، وعدم الاستخدام الجادّ الصحيح لتلك الأدوات.

أمتنا الإسلامية في هذا العصر تعاني من خَلَل كبير في علاقتها الصحيحة بربها عزَّ وجل، وهذا الخلل هو أساس كل مصيبة من مصائبها، مليارُها وربع المليار يكاد يؤكد معنى الحديث الشريف «**ولكنكم غثاء كغثاء السيل**»، وهل يمكن أن يلقى الغثاء تقديرَ أحدٍ أو احترامه، السَّيل هو الذي ينفع العباد والبلاد، أما الغثاء فلا فائدة فيه.

كيف نتخلَّص من صفة الغثائيَّة؟

سؤال سهل الإجابة، ولكنَّ الإجابة تحتاج إلى عزيمة كبيرة للتطبيق.

في أمتنا فوضى كبيرة، وتجاوز لحدود شرع الله كبير، وانحرافٌ واضح في العقيدة عند كثير من المسلمين، وانصراف إلى الأولياء والأضرحة والتهويمات التي تدمِّر قدرة الإنسان على الوقوف بثباتٍ على أرض العمل والاجتهاد، وتُفقده القدرة على إدراك حقيقة الواقع المعاش.

في أمتنا تبعيَّة لأعدائها تفتك بها فتكاً، وهي تبعيَّة ناتجة عن انقطاع الأمة في كثير من جوانب حياتها عن الاتباع الصحيح لدين الله، ومنهج خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام.

في الأمة إهدارٌ للوقت والمال والجهد، ومَيْلٌ إلى الخلافات الجانبية التي لا تنتهي، وتعصُّبٌ مَشينٌ للمذاهب والأشخاص، والقبائل والأعراق، ومخالفاتٌ صارخة لما يدعو إليه الدين الإسلامي العظيم من العمل الجاد، والإخلاص، والتآلف، والأخوة والمحبَّة، والنظام ومراقبة الله سبحانة وتعالى في السرِّ والعلن.

اجلس أمام شاشة تلفاز تعرض عليك حالة ما يزيد على مليوني مسلم في موسم الحج الأكبر، ودقِّق النظر فيهم، وتابع متابعة متواصلة الفوضى الكبيرة التي يعيشها معظمهم، ثم وجِّه السؤال إلى نفسك؟ هل يمكن لمن يعيش هذه الفوضى أن يكون مؤهَّلاً للنصر.

اجلس على مكان مرتفع في الحرم المكي الشريف وانظر إلى حالة المسلمين الذين يؤدون الصلاة فيه - وهم يمثلون شعوب العالم الإسلامي كلّه -، وراقب الخلل في أداء الصلاة عند كثير منهم، والبعد عن الخشوع عندهم وعدم احترام بعضهم لبعض، وعدم تحقيق معنى «احب لأخيك ما تحب لنفسك» عند بعضهم، وعدم تحقيق الحشمة والوقار عند بعض نسائهم، ثم اسأل نفسك؟ هل يمكن أن تنتصر أمةٌ تعاني من هذه الفوضى في أعظم مكانٍ للعبادة على وجه الأرض؟ هنا يمكن أن تعرف جواب سؤالك. «أين نَصْر المليار»؟

ومع ذلك كلِّه فإن معنى «بشِّروا ولا تنفِّروا» يمكن أن يتحقق؛ لأن أصل صلاح الأمة موجود، ولأن أساس نجاحها موجود، وإنما

هي بحاجة إلى العودة إلى هذا الأساس وذلك الأصل للتصحيح والتطبيق، وليتحقَّق الوعد الأكيد بالنصر الأكيد.

إنَّ الموقع الحقيقي لقول الرسول ﷺ **«بشِّروا ولا تنفِّروا»** هو في مثل هذه الحالة التي يَدلهمُّ ظلام خطوبها، وتعصف رياح أحداثها، وتشتعل نيران همومها، في هذا الموقع المؤلم يأتي دور البشارة والتبشير بالنجاح والفلاح والإصلاح إذا أعدنا تنظيم أمورنا، وترتيب حياتنا على منهج الله سبحانه وتعالى، وهَدي نبيِّه محمد ﷺ، وكنَّا صادقين في ذلك الصدقَ كلَّه، مخلصين فيه الإخلاص كلَّه.

❀ ❀ ❀

تلوين

● قال زياد بن أبي سفيان: لحديثٌ أسمعه من عاقل أحبُّ إليَّ من سُلافةٍ قتلت بماء ثَغَبٍ في يومٍ ذي وَديقةٍ، تَرْمَضُ فيه الآجال.

هنا كلمة فصيحة من رجل فصيح، فزياد بن أبي سفيان، الذي يطلق عليه عند بعض الرواة «زيادة بن أبيه»، يُعَدُّ من بلغاء العرب وفصحائهم، وشجعانهم، مع أننا نختلف معه في بعض مواقفه وأعماله في فترات إمارته، وهو صاحب الخطبة البتراء الشهيرة.

زيادٌ في عباراته السابقة يشير إلى أهمية الكلام المفيد لبناء شخصية الإنسان، فهو يؤكد أنَّ حديث الإنسان العاقل الواعي من أثمن ما يحصل عليه البشر في حياتهم، ويستخدم للتعبير عن ذلك

عبارات فخمةً ذات دلالات فنية جميلة، فهو يؤكد أن حديثاً يسمعه من رجلٍ عاقل حصيف حكيم أحبُّ إليه من سُلافةٍ ـ وهي الخمر ـ قُتلت بماء ثغبٍ؛ أي: مُزجت بماء نقيٍّ شديد النقاء، فالثَّغَبُ تعني: بقيَّة الماء العذب في الأرض، أو الغدير الصافي في ظلِّ جبلٍ لا تصيبه الشمس فيكون بارداً، ولو كان لنا من أمر تغيير بعض كلمات زياد شيءٌ، لحذفنا كلمة «سُلافة» لما فيها من التحريم، وقلنا: «أحبُّ إليَّ من ماءِ ثَغَبٍ....».

في يوم ذي وديقة، أي: في يومٍ شديد الحر، فالوديقة تعني شدَّةَ الحر.

تَرْمَضُ فيه الآجال: أي تحترق في ذلك اليوم الحارّ أقدامُ الظِّباءِ أو بقرِ الوحش، فترمَضُ، تعني: تحترق وهي تستخدم في الأقدام فقط، والآجال، هي: الظِّباء أو بقر الوحش.

لغة قوية، وأسلوبٌ متين، وتوجيه جميل إلى أهمية مصاحبة عقلاء الناس، والاستماع إلى أحاديثهم المفيدة.

❁ ❁ ❁

لوحة شعرية

إذا ما أتاه السائلون توقَّدَتْ
عليه مصابيح الطلاقة والبِشْرِ
له في ذوي الخَلاَّت نُعمَى، كأنها
مواقعُ ماءِ المُزْنِ في البلد القفرِ

أنت الذي تصنع الجمال

مظاهر الجمال في الكون لا تكاد تُعَدُّ ولا تُحصى، بل إنَّ كلَّ ما في الوجود يتسم بصفةٍ من صفات الجمال، تزيد وتنقص، وتظهر وتختفي، ولكنها موجودة.

فالناس يتفاوتون في أشكالهم، ويتفاضلون في جمالهم، وفي نصيبهم من الحسن والوسامة والملاحة، ولكنَّ خَلقَ الإنسان بصفة عامة يتَّصف بالتناسق والجمال، فالله عز وجل أخبرنا أنَّه خلق الإنسان في أحسن تقويم، ودعانا إلى التأمُّل في عجائب خلقه لنا ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾، وفي هذا دليل على تحقُّق صفة الجمال في الإنسان، وإن كان التفاوت في مستوى الجمال موجوداً.

بإمكانك أن تستمتع بالجمال فيما تراه وتسمعه، إذا فتحت قلبك للإحساس بالجمال، فإنَّ مصدر الإحساس بجمال الأشياء كامنٌ في داخلك، مغروس في أعماق نفسك، مبثوث في جوانب حسِّك، فإذا أغرقت نفسك في الأسى والحزن، وجعلت النظر إلى سلبيات الحياة، والجوانب المعتمة من الأشياء منهجك، وطريقتك، فإنك قد حَرَمتَ نفسك من الاستمتاع بجوانب الجمال والتناسق في هذا الوجود.

ستكون في هذه الحالة محروماً من الاستمتاع بجمال السماء ونجومها وقمرها وهدوء المساء، مع أنك تنظر إليها كل ليلة، وستكون فاقداً للإحساس بذلك الجمال الأخَّاذ لنسائم صباحك

الجميل، وشمسه المشرقة، وتغريد العصافير المطرب، ونضارة الأشجار، ورونق الأزهار، ولربّما شعرتَ بأنها مظاهر باهتةٌ لا طعم لها، ولا جمال فيها، مع أنها تحمل من معالم الجمالِ، والتناسقِ، وبديعِ الخَلْقِ ما لا يحيط به وصفك البشري.

تأكد أن الإحساس بجمال الأشياء كلُّها نابعٌ من ذاتك.

كيف نحسُّ بالجمال، ونستمتع به؟؟

لابد أن نخرج أنفسنا دائماً من سراديب الهموم والأحزان، ومن كهوف البغضاء، وسوء الظن، والتشاؤم؛ لأنها حواجز ذات كثافة قادرة على حجب مظاهر الجمال عن عيوننا، وقتل الإحساس به في نفوسنا.

ولا يمكن أن نخرج من تلك السراديب، وهذه الكهوف إلا بنفوس صحيحة سليمة معافاة، بعيدة عن المبالغة والتطرُّف في النظر إلى الأشياء.

كيف تكون نفوسنا صحيحة؟

الإنسان المؤمن بربه، المتجه إليه بقلبه، ليست لديه مشكلة في هذا الجانب أبداً؛ لأن النفس المطمئنةَ نفسٌ صحيحة، تعيش دون عقدٍ تحول بينها وبين الاستمتاع بمظاهر الجمال في الحياة، مهما كانت الصِّعاب والعقبات، وهذه النفس المطمئنة تعيش مع الإشراق والصفاء دائماً؛ لأنها نفسٌ ذاكرة لربها، مستغفرة تائبة، لا تنقطع

صلتها بمصدر السعادة الحقيقي، فهي تقضي أوقاتها بين أزاهير الذكر والدعاء والتسبيح والعمل الصالح، وترحل كلَّ يومٍ رحلةً ماتعةً مع ضحكة الشمس حين تشرق، وابتسامة الورود حين تتفتَّح، وشدو البلابل حين تغرِّد، واسترخاء القيلولة حين تشتدُّ هاجرة النهار، وإيحاءات الأصيل حينما يحمر وجه الغروب، ومهابة الليل حينما تغرب الشمس، وتفتح نجوم السماء وكواكبها نوافذها المضيئة، وسكون الليل حينما يرخي سدوله المزخرفة بالنجوم.

مع كلِّ ذلك ترحل النفس البشرية السويَّة رحلةً يومية جميلة. هل يمكن أن تسلم النفس في الحياة الدنيا من التنغيص؟ كلاً، ولكنَّها يمكن أن تسلم بيقينها، وصفاء سريرتها من اليأس والقنوط، ومن شوائب الحقد والحسد وسوء الظن بالعالمين.

«أخضع جميع ما تراه، وتلمسه، وتواجهه من مظاهر الحياة المختلفة التي تجري خارج نفسك، لداخلك المضيء تكُنْ أعمقَ الناس إحساساً بالجمال».

***

بين الأيائل والحيَّات

هجرتُكَ، لا قِلَىً مني ولكن
رأيتُ بقاءَ ودِّك في الصدودِ
كهجر الحائماتِ الوردَ لمَّا
رأت أن المنيَّة في الورود

تفـيض نفـوسـهـا ظمـأً وتخـشى
حِـمـامـاً فـهـي تنظر من بعـيـدِ

حينما قرأت هذه الأبيات وأبديت إعجابي بما فيها من جمال العبارة وحسن التصوير، ودقَّة التشبيه، قال لي أحد المستمعين: أين يقع الجمال في هذه الأبيات؟ فأنا لا أجد لها هذا الجمال الذي تتحدَّث عنه.

قلت له: هل عرفتَ معنى الأبيات؟ قال: لم أعرفْه، ولا أظنُّ معرفتي بمعناها ستجعلها جميلة في نظري.

قلت: إنَّ معرفة المعنى، وأبعاد الصورة الفنية التي اهتدى إليها الشاعر من أهم أسباب تذوُّق الجمال الفنّي في النَّص الأدبي.

قال: اشرح لي معناها لأرى.

قلت: يقول الشاعر لمن يحبُّ: إنني هجرتُك وابتعدتُ عنك لا لأنني أريد مقاطعتك، وهجرانك، ولكن لأنني حريصٌ على بقاءِ مودّتك التي ربَّما أضعفها قربي منك، ثم أراد الشاعر أن يقرِّب هذا المعنى من ذهن من يحبُّ، وأن يُقنِعَه بذلك، فجاء بقصةٍ في البيتين التاليين تصوِّر طبيعة الأيائل وهي نوع من الظِّباء، حيث إنَّ هذه الأيائل ـ جمع أيِّل ـ الحائمات على مورد الماء في الصيف تظلُّ تحوم حول المورد دون أن تشرب من الماء مع شدَّة ظمئها وحاجتها إليه؛ وذلك لأنَّ من عادة هذه الأيائل أنَّها تُحِبُّ أكل الأفاعي في الصيف، وتستمتع بذلك، ونحن نعلم أنَّ الأفاعي تحمل السُّمَّ، ولكنَّ

الأيائل لا تشرب الماء في تلك الحالة؛ لأنها تهتدي بفطرتها إلى خطورة شُرب الماء على حياتها بعد أكلها للأفاعي، فمن المعروف أن شرب الماء على هذه الحالة يقتلها مباشرة، فهي تحوم على المورد ولا تشرب حرصاً على بقاء حياتها، وكذلك حالة الشاعر مع مَنْ يحبُّ، يتحاشى القربَ منه خشية أن يحصل بهذا القرب ما يميت الحبَّ الكبير الذي يحمله.

قال ذلك المستمع: هذا معنىً جميل، وصورة دقيقة وُفِّق الشاعر في التشبيه بها لما أراد من المعنى كلَّ التوفيق.

قلت له: استمع مني إلى الأبيات ثانيةً.

قال ـ بعد الاستماع ـ : إنها أبيات بديعة.

وأقول: فَهمُ معنى النص الأدبي سِرُّ الاستمتاع بجماله.

❀ ❀ ❀

جوف الليل

عن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه قال: قلت:

يا رسول الله، أيُّ الساعاتِ أسمَعُ؟

قال: «جَوفُ الليل الآخر».

سؤالٌ عن الوقت الذي يكون فيه الدعاء مَظِنَّة الاستجابة، فأسمَعُ هنا من أفعال التفضيل، يدل على أفضيلة هذه الوقت على غيره.

وجوابٌ مختصر مفيد، جَوْفُ الأرض: المكانُ المطمئنُّ منها، جَوْفُ الأرض: المكانُ المطمئنُّ منها، وجَوْفُ الإنسان بطنه، وفي عُرفِ بعض العامَّة تُطلق كلمة الجوف على القلب وما أحاط به، وجَوْفُ الليل: وقتُه الأعمق الذي يهيمن فيه السكون، ويخيِّم فيه الهدوء، وتنام فيه العيون.

هذا الوقت بهذا العُمق، وهذه الخصوصية، هو الوقت الذي يختصُّ بإحيائه المتقون المتهجِّدون المتجهون إلى ربهم سبحانه وتعالى بقلوبهم، في إخباتٍ وإخلاص ويقين.

هنالك تُورق شجرة الأمل، وتشرق أنوار الاستبشار باستجابة الدعاء من العزيز الجبَّار، الحليم الغفَّار.

جَوْفُ الليل: الموقع الأعمق الأمثَل لإطلاق سهام الليل التي لا تخيب.

❀ ❀ ❀

من يدِ كسرى إلى يد عمر

حينما جيء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بغنائم المسلمين من دولة فارس بعد فتح المدائن وكانت من الكثرة وغلاء الثمن بمكانٍ كبير أدهش المسلمين، قال رضي الله عنه: الحمد لله الذي جعل سيف كسرى فيما يضره ولا ينفعه، ثم قال: إنَّ قوماً أدّوا هذا لأمناء، أو لذووا أمانة، ثم قال: إنَّ كسرى لم يزد على أن

تشاغل بما أُوتي من الملك والمال عن آخرته، فجمعه لزوج امرأته، أو زوج ابنته، ولم يقدِّم لنفسه، ولو قدَّم لنفسه ووضع الفضول في مواضعها لحصل له ما أراد.

تأمَّل معي - أيها الحبيب - هذه النَّظرة العمرية إلى الغنائم والأموال والذهب والجواهر، وهذه الكلمات التي وجَّه بها الموقف هذا التوجيه الإسلامي العظيم، وكأني بالفاروق - رضي الله عنه - قد رأى عيون المسلمين تنطق بالاندهاش، والإعجاب بهذا البريق اللأَّمع لهذه الجواهر واللآلئ (الكسروية) فأراد أنْ يذكِّر الناس بأنها لم تنفع من كانت ملك يده أبداً، وأنَّه سيحاسب عليها عند ربِّه، زيادةً على حسابه الشديد على كفره وضلاله.

ثم إن ابن الخطاب - رضي الله عنه - أراد أن يقول للدنيا كلِّها في وقته وفي كل وقتٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كلمةَ حقٍّ في الإشادة بأمانة المسلمين وإخلاصهم، حيث لم يُعرَف أن درهماً واحداً من تلك الغنائم العظيمة قد ذهب إلى أحدٍ بغير حق، ولهذا قال: إنَّ قوماً أدَّوا هذا لأمناء.

وإني لأدعوك - أيها القارئ الكريم إلى وقفة أخرى مع هذا الفتح الإسلامي الكبير، فهيا معي إليها:

أُتي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بفروة كسرى فوضعت بين يديه، وفي القوم «سراقة بن مالك بن جُعشم، قال: فألقى عليه سواري كسرى بن هرمز فجعلهما في يده، فبلغا

منكبيه، فلما رآهما في يدي سراقةَ قال: الحمد لله، سِوارا كسرى ابن هرمز في يدي سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني مدلج، قال: الشافعي: إنما ألبسهما سراقة لأن رسول الله ﷺ قال لسراقة ـ أثناء هجرته المباركة ـ ونظر إلى ذراعيه: كأني بك وقد أُلبِستَ سواري كسرى، ثم قال عمر في خشوع وإخبات وتضرُّعٍ إلى الله: اللهم إنَّك مَنَعتَ هذا رسولك ونبيك، وكان أحبَّ إليك مني وأكرم عليك مني، ومنَعتَه أبا بكر وكان أحبَّ إليك مني، وأكرم عليك مني، وأعطيتنيه فأعوذ بك أن تكون أعطيتنيه لتمكر بي، ثم بكى حتى رحمه من كان عنده، ثم قال لعبدالرحمن بن عوف: أقسمت عليك لَمَا بعتَه ثم قسمته قبل أن تُمسي.

أرأيت ـ أيها الحبيبّ ـ إلى هذا اليقين الذي تعجز عن زعزعته أعاصير الفتن؟ وإلى هذا الاستبشار بنصر الله عز وجل الذي بدأ من هناك من فلاةٍ قاحلةٍ كان يسير فيها محمد بن عبدالله وصاحبه أبو بكر متخفِّيين عن قريش، هاربين بديهما، مهاجرين إلى المدينة المنورة، من تلك الفلاة انطلق وعد الرسول ﷺ بسواري كسرى لسراقة بن مالك فكان ما وَعدْ، فسبحان الواحد الأحد.

لكأنني بكل حرفٍ في هذه القصة يقول: «بشّروا ولا تنفّروا».

❀ ❀ ❀

لافتةٌ عمريَّة

لما قدم عمر - رضي الله عنه - إلى الشام ليتسلَّم مفاتيح المسجد الأقصى عَرضَت له مخاضة - غدير ماء - فنزل عن بعيره ونزع مُوقيه - خُفَّيه -، فأمسكهما بيده، وخاض الماء ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض، قال: فصكَّ عمر في صدره بيده وقال له: أولو غيرك قالها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذلَّ الناس، وأحقر الناس، وأقلَّ الناس، فأعزَّكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزَّ بغيره يذلّكم الله.

ياله من موقف عمريٍّ عظيم، علماً بأن في المسألة من الناحية الشرعية سعةً وتيسيراً، فقد أحسن أبو عبيدة في ملحوظته لأنه كان ينظر إلى حالة أهل الشام الذين يقيسون الأمور بمظاهرها وما فيها من الأبّهة، كما أحسن عمر رضي الله عنه، لأنه كان ينظر إلى أهمية التواضع لله في مثل هذا الموقف كما فعل رسول الله ﷺ حينما فتح الله له مكة المكرمة، ومن المؤكد أن عمر رضي الله عنه لم يكن غافلاً عن مراد أبي عبيدة عامر بن الجراح، فعمر يقدِّر المواقف، ويعرف حكم الشرع فيها، فهو رضي الله عنه لما وصل إلى (الجابية) تلقَّاه يزيد بن أبي سفيان، ثم أبو عبيدة، ثم خالد بن الوليد في خيول المسلمين وعليهم يَلامِقُ الدِّيباج فسار إليهم عمر ليحصبهم جزاء مبالغتهم في مظهرهم، فاعتذروا إليه بأن عليهم السلاح، وأنهم يحتاجون إليه في حروبهم، وأن هذا يناسب أهل هذه البلاد، فسكت عنهم عمر رضي الله عنه.

لماذا سكت؟ هل يمكن أن يسكت على باطل؟

كلاَّ، ولكنّه قَدَّر الموقف، وأقرَّهم على التعامل مع مُقتضى الحال ولم يأخذهم بالعزيمة التي يأخذ بها نفسه رضي الله عنه أرضاه.

هكذا تبدو لنا ساحة شرعنا الإسلامي الفسيحة التي تكبر فيها مساحة المباح، وتصغر فيها مساحة المحظور.

ألا يحق لقائل الحقِّ أن يقول لنا بعد هذا: «بشّروا ولا تنفّروا».

الثواب المبارك

عن جرير بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دخل بعض بيوته فامتلأ البيت، ودخل جرير، فقعد خارج البيت، فأبصره النبي ﷺ فأخذ ثوبه فلفَّه ورمى به إليه، وقال: اجلس على هذا، فأخذه جرير ووضعه على وجهه وقبَّله.

هنيئاً لكِ أيتُها الأخلاق الفاضلة؛ لأنك تنتمين إلى مثل هذا الرجل الكريم الحليم المتواضع لربِّه، هذا محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام الذي عرض عليه ربُّه أن يحوِّل له بعض الجبال ذهباً، ولوَّحت له الدنيا بيدين برَّاقتين فما نظر إليها، ولا حرص عليها، لأنَّ همَّته أكبر من الدنيا، ولأنَّ قلبه متصل بما هو أعظم منها وأجلُّ وأبقى؛ بالآخرة التي لا يفنى نعيمها.

هنيئاً لك أيتها الأخلاق الفاضلة، فقد منَّ الله عليك بهذا النبي الصادق المصدوق الذي كان بالمؤمنين رحيماً، وكفاك فخراً أن تكوني موجودةً في سيرته العطرة، موصولةً بأخلاقه الكريمة.

في الحديث السابق إشارات تحتاج إلى وقفات:

بيت خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام المتواضع الصغير، الذي يمتلئ بعددٍ قليلٍ من الرجال، البيت الذي يؤكد للناس أن رسول الله ﷺ كان ينظر إلى الدنيا بذلك المنظار الدَّقيق الذي عبَّر عنه في صورةٍ تقطر جمالاً وبلاغةً وبياناً في قوله: **ما انا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ بظلِّ شجرةٍ ثم تركها ورحل.**

ظلّ شجرة؟ نعم، ولهذا لم يكن حريصاً على التوسع في أمور الدنيا ومظاهرها البرَّاقة، ولو أنه طلب من أصحابه أن يجهِّزوا له داراً واسعة سامقة البناء لتسابقوا لتلبية طلبه الكريم.

إنَّ الإشارة في الحديث السابق لتوحي لنا أنَّ السَّعة إنما هي في قلب محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام، الذي لا يضيق عن استيعاب محبة الناس والعطف عليهم، وإكرامهم.

ولأنَّ البيت النبويَّ صغير، فقد جلس جرير بن عبدالله وهو من أقرب الصحابة إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، خارجَ البيت، وهذه إشارة ثانية في الحديث إلى حرص أولئك القوم على الجلوس مع مربِّيهم وقائدهم عليه الصلاة والسلام، ولا بأس ـ ما

دام البيت قد امتلأ بالناس - أن يجلس جرير في أي موقع حول الرسول أمنية كل قلبٍ أضاءه الإيمان بالله تعالى.

ويجلس جرير خارج البيت وكأنه جالس في بحبوحته وصدره ما دامت عيناه تريان ذلك الوجه النبوي المشرق.

ولأنَّ الرسول ﷺ كريم الطباع، حريص على إكرام أصحابه، يوزِّع بينهم نظره الشريف حتى لا يشعر أحدهم أنه قد أهمله واعتنى بغيره، فقد أبصر جرير بن عبدالله ومجلسه خارج البيت الذي لم يعد يتَّسع لأحد، وهذه إشارة ثالثة في الحديث إلى إبداعٍ منقطع النظير في الإدارة النبوية الناجحة، إنَّ لغة العيون مهمَّة جداً في إشعار الآخرين بالاهتمام، وإزالة الوحشة من نفوسهم، فالبيت النبوي مليءٌ بالناس، وجرير يجلس خارجه لأنه لم يجد مكاناً داخل البيت، ومع ذلك فإنَّ العين الشريفة أبصرته في مجلسه ذاك.

وهنا يأتي الإشارة الرابعة التي تنشر ضوءاً كاشفاً يرينا الأخلاق الكريمة في أرقى مستوياتها، فما إن رأى الرسول ﷺ جرير بن عبدالله جالساً في مجلسه النائي خارج البيت حتى غمره بعطفه وكرمه، وملأ نفسه بالسعادة الغامرة.

ماذا يصنع عليه الصلاة والسلام وهو الكريم الوفيُّ لأصحابه، الحريص على مشاعرهم، ورفع معنوياتهم إلى أعلى درجات الثقة التي تبني شخصيات سويَّة قويَّة؟ البيت ضيِّق لا يمكن أن يتسوعب

غير الجالسين، وجرير جلس خارجه حرصاً على هذه الروضة من رياض الجنان، ومحمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام يرى مكان صاحبه، وما دام رأى مكانه فلا بد أن يشمله برعايته، فماذا يصنع؟

إنَّها اللَّفتة النبوية الجليلة، فها هو ذا ﷺ يأخذ ثوبه الذي كان عنده، ويلفُّه بيديه الشريفتين ويرمي به إلى جرير الجالس خارج البيت، ويقول له: **اجلس على هذا.**

أيُّ صورةٍ هذه التي نحن أمامها الآن؟ أيُّ تعامل كريم هذا التعامل؟ أي خُلُقٍ نبيل هذا الخلق؟ أيُّ فنٍّ إداريٍّ عظيم هذا الفَنّ؟ صلَّى عليك الله يا علم الهُدَى... فهذا الموقف يعجز عن وصفه الواصفون؛ لأنه بإيحاءاته العظيمة لغةٌ ناطقة أفصح من أي لغة أخرى.

ولنا أن نرسم في أذهاننا عشرات الصور المضيئة لرمي هذا الثوب النبوي الطاهر بهذه الصورة؛ فصورة لإكرام الضيف، وأخرى لرعاية الأصحاب والاهتمام بهم، وثالثة لإزالة ما قد يحدث في النفس من إحساسٍ بالحزن على عدم وجود مكانٍ داخل البيت؛ ورابعة للعطف والرحمة؛ إلى غير ذلك من الصور التي لا نرى مثلها إلاّ عند من بُعث ليتمم مكارم الأخلاق.

وأخيراً، تأتي إشارة مهمة في الحديث إلى تلك السعادة الغامرة، وذلك الارتياح الكبير، وهذا الحبّ العظيم الذي يحمله

قلب جرير بن عبدالله لرسول الله ﷺ، حيث يتلقَّف الثوب الطاهر بشغفٍ شديد، ويضعه على وجهه ويقبِّله، إنها صورة قائمة بنفسها وضوحاً وبياناً وصدق تعبير، وكأني بجرير يكاد يطير من الفرح وهو يستنشق شذا المسك النبوي في ذلك الثوب الطاهر، ألا يحق لنا بعد ذلك أن نرفع أصواتنا في هذا العصر قائلين لبعضنا: هذا قدوتنا، فبشِّروا ولا تنفِّروا، هذه منابع قيمنا واخلاقنا فانهلوا منها ولا تقصِّروا، هذه أخلاق الكرماء التي ترقى بالمجتمعات فتخلَّقوا بها، واجعلوها جسراً يوصِّل بين القلوب.

وهنالك إشارةٌ أخرى إلى صفةٍ مهمةٍ من صفات الشخصية السويَّة القوية العاملة، تُستوحى من جوِّ الحديث العام استيحاءً.

إنَّها صفة (العمل بما نستطيع)، وعدم التوقُّف عن أي عمل نافع بحجة أننا لا نستطيع، فالواجب التدرُّج في مراتب الاستطاعة حتى لا نعوِّد أنفسنا على الكسل والخمول وعدم الإنتاج.

فالرسول ﷺ سخيٌّ كريم، يودُّ لو أنَّ كلَّ ضيفٍ يأتيه يجلس في أحسن مجلس من داره، ولكنَّه لا يستطيع ذلك لصغر منزله، فهل يترك الضيافة وإكرام الناس لأجل ذلك؟ كلا، بل يفتح الباب لضيوفه ويجلسهم داخلَ بيته، حتى إذا غَصَّ البيت بالجالسين، جلسوا خارجه كما فعل جرير رضي الله عنه.

الرسول ﷺ ـ في هذا الموقف ـ لا يستطيع أن يوفِّر داخل بيته مجلساً لجرير، فماذا صنع؟ قدَّم ما يستطيع في لَفتةٍ مؤثِّرة،

ملأت نفس صاحبه بالرضا والسعادة، وأسعدت قلبه هو عليه الصلاة والسلام إذْ قدَّم لصاحبه ما استطاع.

إنَّ إلقاءَ الثوب الطاهر إلى جرير ليجلس عليه هو غايةُ ما يستطيع في ذلك المقام، وهذا من أعلى مراتب العطاء والجود والضيافة.

كما يقول المثل الشائع: الجود من الموجود.

يا لها من مدرسة نبوية منقطعة النَّظير!

❁ ❁ ❁

تلوين

● في المدينة المنورة مسجدٌ يقال له مسجد الأحزاب ذكره الفيروز آبادي في كتابه المغانم المطابة في معالم طابة، وقيل: إنه سمي بهذا الاسم لأن الرسول ﷺ دعا فيه يوم الخندق على الأحزاب فقال: «**اللهم منزل الكتاب سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**» أخرجه البخاري ويُسمَّى هذا المسجد أيضاً مسجد الفتح والمسجد الأعلى.

ولمَّا تولى الحسن بن زيد المدينة كان عبدالله بن مسلم بن جندب الهذلي إماماً لمسجد الأحزاب، فمنعه الحسن من إمامة المسجد، فقال له عبدالله: أصلح الله الأمير، لم منعتني مقامي

ومقام آبائي وأجدادي قبلي؟ قال له الحسن: ما منعك إلا يوم الأربعاء، فسكت عبدالله.

ويقصد الحسن بقوله هذا، أبيات عبدالله بن مسلم التي قال فيها:

يا للرجال ليوم الأربعاءِ، أما
ينفكُّ يُحدث لي بعد النُّهَى طربا
إذ لا يزال غزالٌ فيه يفتنني
يأتي إلى مسجد الأحزاب منتقبا
يخبِّر الناس أنَّ الأجرَ همَّتُه
وما اتى طالباً للأجر محتسبا
لو كان يطلب اجراً ما اتى ظُهُراً
مضمَّخاً بفتيت المسك مختضبا
كم حُرَّةٍ دُرَّةٍ قد كُنتُ آلفُها
تَسُدُّ من دونها الأبوابَ والحجُبَا
قد ساغ فيه لها مشي النهار كما
ساغ الشراب لعطشانٍ إذا شربا

وكأن الحسن بن زيد أراد أن ينبِّه إلى أن عبدالله قد خرج عن الوقار الذي يجب أن يكون عليه من هو في مثل عمله، وقد أحسن في هذا التنبيه.

● كان الرسول ﷺ مع بعض أصحابه في موضع يقال له: الأنْعُم في العالية من المدينة المنورة، فإذا بشاةٍ ميتةٍ قد أنتنَتْ،

فأمسكوا على آنافهم فقال عليه الصلاة والسلام: «**ما ترون كرامة هذه الشاة على أهلها**؟ قالوا: ما تكرم هذه على أحد، فقال ﷺ: **الدنيا أهون على الله تعالى من هذه على أهلها**».

❁ ❁ ❁

الحقُّ لا يهزم

قبل أن تسأل: لماذا لم تنتصر الأمة الإسلامية في هذا العصر؟ ولماذا تظلُّ متخلِّفة عن الأمم الأخرى مع أنها تصلِّي وتصوم، وتدعو وتعلن أنها أمة الإسلام؟

قبل أن تسأل هذه الأسئلة وما شابهها، أسأل السؤال الأهمّ:

هل تطبق الأمة الإسلامية إسلامها تطبيقاً صحيحاً؟

هل تطبق ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

هل نصرت الأمة الإسلامية ربَّها، وأخلصتْ له إخلاصاً يجعلها مؤهَّلةً للنصر ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

أسئلة كثيرة، في الإجابة عنها بيانٌ للصواب.

الحقُّ لا ينهزم، إنما ينهزم الناس الذين لا يلتزمون بالحق، ولا يخلصون النيَّة في حمله وتطبيقه ونصرته.

انظر إلى الشرط وجواب الشرط في قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾.

ثم انظر إلى التأكيد للنصر في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾، فإنك ستعرف أن الحق لا ينهزم، وإنما تنهزم الأمة التي لا ترعى ذلك الحقَّ ولا تطبّقه.

صاحب الحق قويٌّ بما هو عليه من الحقّ، إذا راعى تطبيق ما يدعوه إليه الحق.

● شكت امرأةٌ إلى الخليفة ابناً من أبنائه وهو حاضر معه فارتفع صوتها وهي تعرض شكواها، فقال أحد الحاضرين: اخفضي صوتك فإنك أمام أمير المؤمنين، فقال الخليفة وقد رأى ابنه عاجزاً عن الكلام:

دعها فإنَّ الحقَّ أنطقها وأخرسه.

● هذا الطفل الفلسطيني حمل الحجر ورمى العدوّ فأحدث ما نشاهده من هزَّة عنيفة للعدوّ المغتصب؛ لأنَّ الحقّ مع صاحب الحجر وليس مع صاحب الدَّبابة، لولا شعور ذلك الطفل بحقّه ما رفع يده الصغيرة ليرمي بالحجر الدَّبابة والمدرَّعة.

ومع ذلك فإن مشكلة هذا الطفل تكمن في عدم رعاية أمته لحقّها، وفي تقصيرها ونكوصها عن نُصرةِ ربّها.

● أصابتْ لَوثَةُ العقوق ابناً لأعرابية، فقصَّر في حقوق أمّه، حتى خاصمته إلى الوالي، فلما حضر الابن مع أمّه أمام الوالي، انطلقت الأم قائلةً: ويحك يا بنيّ، أما كان بطني لك وعاءً، أما كان

حجري لك فناءً؟ أما كان ثديي لك سقاءً؟ فدُهش الابن لهذا الانطلاق في الكلام الذي لم يعهده من أمّه، وأحسَّ بأنَّ الحقَّ يتحدَّث بلسانها فتأثر أشدَّ التأثُّر، وقال: رضي الله عنك يا أمّاه، والله لقد أصبحت خطيبةً، وقام إليها، وقبَّل رأسها ويديها واسترضاها أمام الوالي، وكان لها بعد ذلك نعم الابن.

وما دام الحقُّ لا ينهزم أبداً، فإنَّ شمس الاستبشار بالنصر لصاحب الحقِّ الملتزم به لا تغرب أبداً.

❀ ❀ ❀

لوحة شعرية

أبو الفارس «عنترة بن شداد» يصف حصانَه في ميدان القتال:

يدعون: عنتر، والرِّماحُ كأنها
أشطانُ بئرٍ في لَبَانِ الأدهَمِ
ما زلتُ أرميهم بثُغرةِ نحرهِ
ولبانه حتى تسَرْبَل بالدَّمِ
فازورَّ من وَقع القَنَا بلَبانهِ
وشكا إليَّ بعبرةٍ وتَحَمْحمِ
لو كان يدري، ما المحاورةُ اشتكى
ولكان ـ لو علم الكلام ـ مكلِّمي

❀ ❀ ❀

سبحان الله ... بين الطاعة والمعصية

قال طاووس بعد أن حضر مجلس محمد بن يوسف (أخي الحجاج)، وهو والٍ على اليمن: ما ظننتُ قولَ «سبحان الله» يمكنُ أن يكون قولاً يُعصَى به الله عز وجل حتى كان هذا اليوم الذي حضرت فيه مجلس محمد بن يوسف الثقفي، حيث سمعت رجلاً في مجلسه أبلغه عن رجلٍ آخر غائب عن المجلس كلاماً يَسوؤه، فقال رجل من الحاضرين «سبحان الله» مفخّماً بها صوته، مستعظماً لذلك الكلام، مستثيراً لغضب محمد بن يوسف، مؤكّداً لما قيل عن الرجل الغائب، فلما سمع الوالي كلمة «سبحان الله» تقال بهذه الطريقة زاد غضبُه على ذلك الرجل الغائب، وهذا يؤكد أنَّ النّية هي التي توجه الكلام، وأنَّ الإنسان قد يعصي ربَّه بكلمة طيبة يقصد بها سوءاً.

❀ ❀ ❀

لماذا ضحكت يا محمد؟

- كنت في زيارة لصديق، وحينما كنَّا نتناقش في قضية أدبية.
- دخل علينا طفلان صغيران يلهثان، ابن وبنت يطرد أحدهما الآخر في مرح، كان ركضُهما جميلاً، ودخولهما مفاجئاً.
- حينما شعر الابن أن أخته قد تحصَّنت في مكان منيع قال لها: يا ملعونة، اخرجي.

- قلت: أستغفر الله العظيم، قل: أستغفر الله يا محمد.
- كانت ثورة الأب على ابنه أقوى وأسرع من نطقه بالاستغفار حيث صرخ بابنه قائلاً: اسكت يا محمد، من أين جئت بهذا الكلام؟
- أمسكت بيد الصغير وأجلسته بجواري، وكان أبوه يتحدَّث إليَّ قائلاً: لا أدري من أين يأتي الأولاد بهذا الكلام، يبدو أنه الاختلاط بالآخرين.
- رأيت محمداً يُداري ضحكة كادت تنفجر، وقد لفت نظري بضحكته المكبوتة، فسألته: لماذا ضحكتَ يا محمد؟ قال: أخاف أن يضربني أبي، ووعدته بالحماية من أبيه إذا أجاب عن سؤالي، فقال ببراءة الطفل الصغير:

أضحك على أبي الذي يريد معاقبتي على كلمة (يا معلونه)، مع أنه يقولها كثيراً لأمي.

وزاد غضب الأب، ولكنني طلبت منه الهدوء.

قلت له بعد خروج الطفلين:

أرأيت يا أبا محمد أهميَّة القدوة لأولادنا؟؟

قال: صدقت، وما كنت أتوقَّع أن أسمع هذا الكلام من محمد.

قلت: إنَّ من أهم ما نعاني منه في التربية ضعف إحساس الأبوين بأهمية القدوة العملية للأولاد، حيث لا يلتفتان إلى هذا الأمر إلا حينما تحصل المفاجأة، وقد تحصل المفاجأة بعد فوات الأوان.

إننا نفرِّط كثيراً في استحضار معايير ديننا الحنيف، فموقف الشرع من اللَّعن واضح، والرسول ﷺ لم يكن لعَّاناً، وأمر بتسريح ناقةٍ في الفَلاةِ، ونهى صاحبها عن إبقائها معه لأنه لعنها، فذهبَتْ على وجهها لا يقربها أحد. فلماذا لا يلتزم المسلم بهذا الخلق الإسلامي الرفيع؟

❁ ❁ ❁

نحن نغرس شتلات السعادة

أذكر والدتي ـ رعاها الله وجزاها خيراً ـ كيف كانت تغرس لنا شتلات السعادة بحنانها وعطفها، وصبرها، وإيمانها بالله عز وجل.

كنَّا ستة أطفالٍ أنا اكبرهم، ابنين وأربعَ بنات، حينما بدأت والدتي ـ جزاها الله خيراً ـ بتربيتنا رحلة العناء بعد الراحة، وشظف العيش بعد النعمة، لأن رحلتها المباركة هذه في رعايتنا بدأت بمرض والدنا الشيخ صالح العشماوي ـ غفر الله له ورحمه وجمعنا به وبكم في جنات النعيم ـ ثم بموته وفراقه للحياة، كنَّا صغاراً، وكان لزاماً على الوالدة أن تقيم في قريتنا الصغيرة النائية في ذلك الوقت بعد أن كانت تقيم في رخاء من العيش ودَعَةٍ في مكة المكرمة حيث كان يقيم والدنا ـ رحمه الله ـ الذي كان يعطي دروساً في الحرم المكي الشريف.

نعم بدأنا مرحلة معاناة مع أمنا الرُّؤوم، وبدأنا نسمع وصفنا بكلمة (أيتام) ونسمع عبارات الإشفاق والرحمة، ولكنَّ ذلك كله لم يكن يحدث في نفوسنا من الحزن شيئاً؛ لأنَّ الرعاية الإلهية من الله سبحانه وتعالى قد ظللتنا بظلالها الوارفة على يد والدة عصامية وجدَّين لأمنا كريمين عطوفين، كانت مواقف التعلُّق بالله تعالى، وبذكره ودعائه تتجلَّى أمامنا كلَّ يوم، وكانت شتلات السعادة تنمو في بيتنا الصغير نمواً مدهشاً، وكانت عبارات اليقين، والتشجيع، والقوَّة، وتعليمنا أهمية معرفة الواقع الذي نعيشه، وضرورة التعامل معه بعيداً عن الخيالات والأحلام تُشيع في منزلنا الصغير بحجمه، الكبير بجنانه وعطفه وعصاميته جوّاً من الراحة، والسعادة، والأمل المشرق، والاستبشار بالمستقبل المضيء، إنَّه الجوُّ الذي يصنعه الإنسان بنفسه، والبستان الذي يزرعه يتقينه وإيمانه بربه، والواحة التي يسقيها بعصاميته واستبشاره بالخير «تفاءلوا بالخير تجدوه».

حينما أتذكَّر كلمات الوالدة المضيئة ـ في تلك المرحلة ـ ونصائح الجدَّين الكريمين وعطفهما، يزداد يقيني بأننا نحن مصدر سعادتنا أو شقائنا. «الدنيا تذهب وتجيء، والمال يزيد وينقص، والحياة تتغيَّر، وإنما المكسب الحقيقي إيمان الإنسان بربه، وثقته بنفسه، إنَّ قوَّة يقين الإنسان هي الكنز الحقيقيّ».

هذه المعاني تعلَّمناها في مدرسة منزلنا الصغير.

ليت كل أب وأمٍ ومسؤولٍ عن أسرة يضع هذه المعاني نُصْبَ عينيه فهي الكنز العظيم، اغرسوا شتلات السعادة لتكونوا سعداء حقاً.

❀ ❀ ❀

أين دُعاة حرِّية المرأة؟

● قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: توفي خالي عثمان ابن مظعون، فأوصى إلى أخيه قدامة، فزوَّجني بنت أخيه عثمان، ودخل المغيرة بن شعبة على أمِّ البنت، فأرغبها في المال، ورأيُ الجارية مع رأي أمها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فسأل قدامة، فقال: يا رسول الله، بنت أخي، ولم آلُ أختار لها، فقال: **أَلحِقْها بهواها، فإنها أحقُّ بنفسها**، فانتزعها مني، وزوَّجها المغيرة بن شعبة.

● يروي ابن الأثير الجزري في أسد الغابة عن خنساء بنت خِدَام بن خالد الأنصارية أنها أخبرت عن نفسها أنها أيَّمَت من رجلٍ، فلما انتهت عدَّتها، زوَّجها أبوها من رجلٍ من بني عمرو بن عوف، وأنها خُطبَتْ إلى أبي لُبابة بن عبدالمنذر وهي تميل إليه، فارتفع شأنهما إلى رسول الله ﷺ فأمر أباها أنْ يُلْحقها بهواها، فتزوجتْ أبا لُبابَة.

هذا دين الإسلام، دين الحرِّية الراشدة، ورعاية الحقوق بما يضمن للناس رجالاً ونساءً حياةً حرةً كريمة، نماذج مضيئة في ديننا الحنيف يتعامي عنها فريقان من المسلمين:

الفريق الأوَّل: يتناساها أمام هواه وعاداته وتقاليده، ومصالحه الشخصية، فينفِّذ ما يراه بعيداً عن معايير الشرع الحكيم العادل، ومن هذا الفريق أولئك الأولياء الذين يعضلون النساء، ويجبرونهن على ما لا ترضى به نفوسهن، ويمنعونهنَّ حقوقهن المعنوية والمادية ويقدمون تقاليد أقوامهم البالية على تعاليم الإسلام السامية.

وهؤلاء يرتكبون خطأً مركَّباً من ظلمهم لأنفسهم وللنساء اللاتي تحت ولايتهم، ومن إساءتهم إلى دينهم بإعطاء أعدائه ذريعةً لمحاربته، واتهامه بعدم رعاية حقوق المرأة كما نرى ونسمع في هذا العصر، وهذا الفريق يحتاج إلى نصيحة وإلى مواجهة اجتماعية قوية من أهل العلم والعقل والبصيرة.

الفريق الثاني: يتناساها أمام انخداعه بدعاوى تحرير المرأة عند الغرب، تلك الدَّعاوى الباطلة التي خدعت المرأة عن حريتها الحقيقية، وألقت بها في خضم الحياة المادية القاتلة التي جعلتها سلعةً تباع وتشترى وعلى رأسها لافته «تحرير المرأة، وحقوق المرأة».

وهذا الفريق من المسلمين يرتكب أخطاءً مضاعفة، بظلمه لنفسه حيث أقحمها في لجَّة معصية ربِّه، وبظلمه لمن ينخدعن به من فتيات المسلمين، وبظلمه لمجتمعه وأمته بالسعي الدائب تحت شعارات «حرية المرأة» إلى تحطيم القيم الإسلامية، والحياء، والعفَّة، والترابط الأسري.

«إنَّ الإسلام هو الدين الحقُّ الذي يرعى حقوق الإنسان رجلاً وامرأةً رعاية كاملة».

هذه حقيقة ثابتة لا تقبل النقض، وإذا رأى المتابع خَلَلاً في تطبيق تعاليم هذا الدين العظيم، فهو من البشر الذين لم يلتزموا بها، وخالفوها إفراطاً أو تفريطاً.

في الحديثين السابقين نرى عبارة «**الحقها بهواها**» تتكررُ، لتؤكد لنا رعاية الإسلام لحقوق المرأة بعيداً عن المزايدات ودعايات الانتخابات وكسب الأصوات.

لو كانت المسألة مسألة «هوى النفس» و«محاباة الشخصيات»، لحكم الرسول ﷺ ببنت عثمان بن مظعون لابن خالها عبدالله بن عمر بن الخطاب، وأجبرها على ذلك لكون الفاروق من أهمّ الرجال المحيطين برسول الله عليه الصلاة والسلام، ولكون ابنه عبدالله من أبرز فقهاء وعُبَّاد الصحابة، لكنَّ المسألة مسألة دين، وشرع حكيم فيه المصلحة الحقيقية للناس جميعاً، وها هو ذا عبدالله بن عمر يروي لنا الخبر السابق ويقول ـ بنفس راضية مطمئنة ـ: فانتزعها مني وزوّجها المغيرة بن شعبة.

يا لها من عَظَمةٍ لدينٍ عظيم!

الا يحقُّ لا أن نكرِّر بثقةٍ عبارة «بشِّروا ولا تنفِّروا».

❀ ❀ ❀

حجَّةٌ دامغة

قالت امرأة فرنسية لامرأة عربية مسلمة:

إلى متى تظلُّ المرأة عندكم راضية بالقهر الاجتماعي؟

قالت المسلمة: اسألك سؤالاً عن عملك، أين تعملين؟

قالت: في شركة كذا مديرة إحدى الإدارات.

قالت لها: هل تتقاضين راتباً مساوياً لراتب الرجل الذي يعمل في المنصب نفسه؟

قالت: لا، راتب المرأة عندنا في أوروبا، وفي أمريكا، نصف راتب الرجل.

قالت المسلمة: لماذا؟ قالت: القانون يأمر بذلك.

قالت المسلمة: إنه ظلمٌ لجهدٍ مبذولٍ بالتساوي.

قالت الفرنسية: وأنت تعملين؟

قالت: نعم مدرِّسة براتبٍ يساوي راتب من يماثلني من الرجال تماماً. بدت الدَّهشة على وجه الفرنسية وقالت: كلُّكنَّ على هذه الحالة.

قالت: نعم ولله الحمد، وسكتت المرأة الفرنسية، فبادرتها محاورتُها بقولها ـ ضاحكةً ـ:

يبدو أنني سأعيد طرح سؤالكِ الأوَّل عليكِ؟

ابتسمت الفرنسية ابتسامة باهتة وقالت: يبدو ذلك.

وأقول: كم تنخدع الفتاة المسلمة بالبريق الغربيّ الكاذب!

***

لوحة شعرية

للشاعر/ عمر بن الوردي المتوفى عام ٧٤٩هـ.

حـــارت الأفكار في حكمـــة مَنْ
قـــد هدانا سُـــبْلَنا عـــزَّ وجَلْ
كُــــتب الموت على الخلق فكم
فَلَّ مـن جـــيشٍ وافنـى من دُوَلْ
اي بُنيَّ اسـمع وصـايا جَـمـعَتْ
حِكَمـاً خُـصَّتْ بهـا خـيـرُ المِلَلْ
اطلب العلم ولا تكسَلْ، فـمـا
ابعـدَ الخـيـرَ على أهل الكسلْ
لا تـقُـل قـــــد ذهبتْ أربابُـه
كلُّ من ســار على الدرب وصَلْ
في ازدياد العلم إرغـام العِـدَا
وجَـمـالُ العلم إصلاحُ العَـمَلْ
لا تـقُل اصلي وفــــصلي ابداً
إنما أصل الفتى مـا قـد حَصَلْ

قيمةُ الإنسان ما يُحسنُه
اكثر الإنسانُ منه أم اقَلْ

❊ ❊ ❊

بين اللّين وشدّة الثبات على المبدأ

الرسول ﷺ رحمة مُهداةٌ إلى الخلق، ما كان يُخيَّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً أو قطيعة رحم، فإذا كان كذلك كان أبعد الناس عنه.

وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾، فهو رحيم بالناس، ليّن معهم في تعامله، ولكنّه شديدٌ في الثبات على مبدأ الإسلام، لا يتنازل عن تعاليم الدين وتشريعاته وفرائضه، وهذا هو الموقف الوسط الذي يجب أن نتحلّى به.

وقد وصف عمر رضي الله عنه سياسته بعد تحمُّله لعبء الخلافة بقوله: لينٌ في غيرِ ضعف، وشدَّة في غير عُنف.

إنَّ هذا التوازُن هو الذي يحققُ للأمة المسلمة قوة الشخصية، والاستقرار، مع العطاء المتجدد، والتطوُّر النافع في مجالات الحياة المختلفة.

إنَّ اللّين والمُسالمة لا يعنيان ذَوَبان الشخصية، والتهاون بالمبادئ والأسس الثابتة، وإنما يعنيان التعاملَ الطيِّبَ، والرِّفق بالناس، وعدم إرهاقهم بما لا يطيقون.

هنالك موقفٌ للرسول ﷺ يوضّح هذه المسألة، وهو موقفه بعدما حاصر الطائف بعد غزوة حُنين ونصب عليها المجانيق تمهيداً لفتحها عُنوةً بعد أن تحصَّنت ثقيف داخل حصونها، وبقي على ذلك أياماً، فلم يُؤذن له بالفتح، فاستشار رجلاً ذا رأي وتجاربَ في الحياة، اسمه: نوفل بن معاوية الدّيلي، فأشار عليه بقوله: يا رسول الله، إنَّ أهل الطائف اليوم كثعلب في جحر، إنْ أقمتَ عليه أخذتَه، وإنْ تركته لم يضرّك، ويالها من كلمة عاقلٍ بليغ، فأمر الرسول عليه الصلاة والسلام الناس بالرحيل، فكأنهم استثقلوا ذلك، وطمعوا في فتح الطائف، فقال لهم: فاغدوا على القتال ـ غداً ـ فغدوا فأصابهم جراحات، وشعروا بصعوبة الأمر، عند ذلك قال لهم الرسول ﷺ: إنا قافلون إن شاء الله تعالى، ففرح المسلمون بذلك، ولم يعترضوا كاعتراضهم بالأمس، وأذعنوا للرحيل، ولما تجهزوا للرحيل نظر إليهم عليه الصلاة والسلام وهو يضحك ويقول لهم: **«قولوا: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**. فلما وصلوا إلى الجعرَّانة من قُرى الشرائع، قال له بعضهم: يا رسول الله، ادع الله على ثقيف فقال: **اللهم اهدِ ثقيفاً، وأتِ بهم**. وقد جاء الله بهم بعد ذلك بأشهر حيث أرسلوا وفدهم إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلامهم، وبعد بقاء الوفد عند النبي ﷺ زمناً، أذِن لهم في الرجوع إلى الطائف وولّى عليهم عثمان ابن أبي العاص ـ رضي الله عنه ـ لأنه كان ذا عبادةٍ وصلاح.

ثم أرسل وراءهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم صنمهم الذي كان يُسمَّى الطاغية.

وإذا كان اللِّين قد تجلَّى، والرحمة قد ظهرت، والرفق قد اتضح في دعائه عليه الصلاة والسلام لثقيف بالهداية بدلاً من الدعاء عليهم بالهلاك، وفي حسن ضيافته لوفدهم في المدينة، وإكرامهم وتقديرهم فإنَّ الثبات على المبدأ، والشدّة في تطبيق ما شرع الله وفرض قد ظهرتا فيما يلي:

١ ـ سأل وفد ثقيف رسول الله ﷺ أن يدع لهم صنمهم الطاغية ثلاث سنين فأبى عليهم ذلك ، فنزلوا معه إلى شهرٍ واحد من وقت رجوعهم إلى قومهم، فأبى عليه الصلاة والسلام ذلك؛ لأن الصنم رمز الشرك، ومن أهم أركان الإسلام إخلاص العبادة لله عز وجل وتوحيده بها، فلا مجال هنا للِّين في أمر رئيس كهذا.

٢ ـ يقال إن الوفد سألوا الإعفاء من الصلاة، فقال لهم: لا خير في دينٍ لا صلاة فيه، ولم يقبل منهم ذلك. ثم أرسل وراءهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم صنمهم الذي كان يُسمَّ الطاغية.

هذا موقف متوازن من مواقف النبي ﷺ، يضع بين أيدينا الصورة الصحيحة لمعنى اللّين والرفق ومكانهما، ولمعنى الشدَّة والقوَّة ومكانهما، فلا إضاعة لشيء من فرائض الدين بحجة الرفق واللين والقسوة على الناس، ولا تضييقَ عليهم بحجة الشدَّة في

تطبيق المبدأ بل هو موقف وسط، تُحفظ به مبادئُ الدين وأُسسُه، وتُرعى به حُقوق الناس، وتحفظ به أقدارهم.

* * *

بين العسر واليُسر

● قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: لو كان العُسْرُ في جُحر لدخل عليه اليُسْرُ حتى يُخرجَه، ثم قرأ: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

● ويؤكد هذا المعنى عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه بقوله: عند تَناهي الشدَّة تكون الفُرجة، وعند تضايُقِ حلَقِ البلاء يكون الرَّخاء.

● قال هُدْبة بن الخشرم، وقد لبث في السجن خمسَ سنين لأنه قتل ابن عمه زيادة بن زين العُذْري:

عسى الكَرْبَ الذي أمسيتَ فيه
يكون وراءَه فرجٌ قريب
فيأمَنُ خائفٌ، ويُفَكُّ عَانٍ
ويأتي أهلَه النائي الغَريبُ

● قال الشاعر:

إذا تضايق أمرٌ فانتظر فرجاً
فأضيق الأمر أدناه من الفرج

* * *

تلوين

● يُروى أنَّ رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يستحمله (أي يطلب منه بعيراً يحمله)، فقال له عمر: خذ بعيراً من إبل الصدقة، فتناول الرجل ذنب بعير صعبٍ فجذبه فاقتلعه ـ وعمر ومن معه ينظرون ـ، فعجب عمر من هذه الشدَّة في الرجل وقال له: هل رأيتَ أشدَّ منك؟ قال: نعم.

خرجتُ في الجاهلية بامرأةٍ من أهلي أريد بها زوجها، فنزلنا منزلاً أهلُه خُلُوف (أي: غير موجودين) فقرُبتُ من الحوض فبينا أنا كذلك، إذْ أقبل رجلٌ ومعه قطيعٌ من الإبل، والمرأة جالسة ناحيةً عني، فسرَّب قطيعه إلى الحوض، ومضى إلى المرأة فساورها عن نفسها، فصرخت تناديني، فما وصلت إليه حتى خالطها، فهجمت عليه لأرفعه عنها، فأخذ برأسي فوضعه بين عضُده وجنبه، فما استطعت أن أتحرك حتى قضى ما أراد من المرأة، ثم استلقى. فقالت المرأة: أي رجلٍ هذا، لو كانت لنا منه سَخْلة، وأمهلتُه حتى امتلأ نوماً، فقمتُ إليه بالسيف فضربت ساقَه فأبَنْتُها عن جسمه، فانتبه هائجاً وتناول رجله المقطوعة فَعدا خلفي، فغلبه الدَّم فرماني برجله وأخطأني وأصاب عنق بعيري فقتله.

فقال عمر رضي الله عنه: ما فعلت المرأة؟ قال: هذا حديث الرجل، فكرَّر عليه عمر السؤال عن المرأة وهو لا يجيب، فظنَّ أنه قد قتلها.

● من المشهورين بشدَّة الصوت وقوَّته أبو عروة السِّباع، وقد لقِّب بهذا لأنه كان لشدّة صوته يصيح بالسبع وقد احتمل الشاه فيخلِّيها ويولِّي هارباً على وجهه من شدَّة صوت أبي عروة، وهو الذي يقول فيه النابغة الجعدي:

وأزجر الكاشحَ العدوَّ إذا اغتا
بك عندي زَجراً على أَضَمِ
زَجرَ أبي عُروةَ السِّباعَ إذا
اشفَقْنَ أن يَلتبسنَ بالغَنَم

● وكان العبَّاس بن عبدالمطلب ـ رضي الله عنه ـ شديد الصوت، وهو الذي نادى المسلمين يوم حنين حين تفرَّقوا عن الرسول ﷺ فأسمعهم لشدّة صوته.

❀ ❀ ❀

فإذا خفتِ... ولا تخافي

هنا تكمن معجزات السماء، وهنا تقف قدرة البشر، وتنتهي جهودهم، وهنا تصبح الأمور متعلِّقة بخالق الكون سبحانه وتعالى، فلا مكان لجهودٍ بشرية لا تساوي شيئاً ـ مهما كانت عظيمة ـ أمام ما يقدِّره من يملك أن يقول للشيء ـ أيِّ شيءٍ ـ: كن، فيكون.

هنا تختلف المقاييس التي اعتاد عليها الناس؛ لأنَّ من يملك الأسباب ومسبِّباتها يصنع ما يشاء.

ألم تصبح النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام؟

ألم تصبح السفينة التي تصنع من الأخشاب على مرأى من قوم نوحٍ ومسمع هي المكان الآمن الوحيد على وجه الأرض، فلا قمة جبل مهما ارتفعت تعصم أحداً من أمر الله، أما الألواح التي تعبث بها أمواج الطوفان فهي التي تعصم من ذلك الأمر؛ لأن مالك الأمر قدَّر أن تكون هي المأوى للناجين من الطوفان؟

ألم تصبح لجَّة البحر المائج طريقاً يَبَساً لجيش بكامله في لحظة حاسمة قال فيها قوم موسى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، ولم تعمل في تلك اللجة آلة من آلات الغوص أو البناء أو الحفر، وإنما هي عصا في يد موسى فعلت بالبحر ذلك الفعل العجيب؟

ألم تفعل يدا حصان سراقة بن مالك في الأرض اليابسة في لمحة البصر ما لا تصنعه آلات الحفر الشديدة إلا في ساعات، حيث غاصتا في الأرض وهو يلاحق المصطفى في هجرته؟

هنا تختلف المقاييس، إذا تعلَّقت الأمور بمدبر هذا الكون وخالقه المحيط به ـ سبحانه وتعالى ـ.

أم موسى عليه السلام وضعته في العام الذي يُذبح فيه المواليد الذكور من بني إسرائيل بأمر فرعون، والقبضة الفرعونية محكمة على الناس، وعيونه مبثوثة في البيوت تراقب الحوامل، وتتابع وضعهن، فما يفلت من تلك القبضة أحد، ولكنَّ مسبِّب الأسباب ومالكها يشاء أن يفلت موسى من القبضة لأمر أراده ـ سبحانه وتعالى ـ.

أم موسى خائفة وجلة على رضيعها الجميل البريء، الذي يحبه حباً جماً من يراه ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، إنها خائفة فماذ تصنع؟ يأتيها الوحي من الخالق القدير: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

أم خائفة تمتلئ نفسها بهذا الإحساس ويسيطر على قلبها هذا الإلهام الذي يأمرها أن تلقي برضيعها في (اليَمِّ) بأمواجه المتلاطمة، إذا كانت تريد سلامته.

سبحان الله! إنها مواقف الإعجاز التي لا يستطيع أن يستوعبها علم البشر مهما بلغ.

الماء العميق يصبح هو المكان الآمن للرضيع أيتها الأمُّ الخائفة على فلذة كبدها.

إنَّ المعنى العميق، والإعجاز الإلهي العظيم بين كلمتي «فإذا خفتِ، ولا تخافي» يجعلنا نقول في يقين ـ سبحانك يا عظيم ـ.

ويجعلنا ـ نحن المسلمين لربنا ـ أكبر يقيناً وأعظم ثقةً بخالق الكون ومبدعه عندما تشتدُّ النوازل، وتكبر المآسي، ويتكالب الأعداء؛ نبذل ما نقدر عليه من الأسباب، ونتعلَّق بربِّ الأرباب، ونقف على أسس اليقين التي لا تهتز أبداً.

من صعوبات الحياة، وآلامها، يُولد النجاح، وتنبثق الآمال.

هذه أم موسى تصبح في حالةٍ من الفراغ النفسي، ويصبح فؤادُها فارغاً من كل شيء في تلك اللحظة، إلا من همِّ موسى

الذي ذهب اليَمُّ بتابوته إلى حيث يشاء الله، أو فارغاً كأنما أصبح خالياً بما فيه من الحزن كأنه قشّة معلّقة في الفضاء، إنها لحالةٌ يعرفها كل مَنْ يصبح حزنه كبيراً، كيف يهدأ هذا القلب الحزين، وكيف يمتلئ فراغُه؟ إنَّ رحمة الله سبحانه وتعالى هي التي ستربط عليه، وتثبّته، وتخفّف عنه ثقل الهم الذي أناخ عليه.

تأتي تدابيرُ إلهية ليست من صُنع البشر، فهذه محبَّته تُقذف في قلب امرأة فرعون عدوّه وعدوّ قومه، وهذا هو الرَّضيع يبدأ حياته في بيت العدوّ الأول برعاية خاصة من هذه المرأة التي رأت فيه قُرَّتَ عين، وهذا الرَّضيع يأبى أن يقبل أيَّ ثدي لمرضعة غير ثدي أمه، ويعود إلى حضن أمّه الدَّافئ بمتابعة من امرأة فرعون، فتقرَّ عينها ويذهبَ حزنها، وتعلم علم اليقين أنَّ وعد الله حقٌّ:

﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾.

أمواج البحر تحمله، وهي ـ في ميزان البشر ـ مظِنَّة هلاك الإنسان. وبيت فرعون يرعاه ويكفُله، وهو ـ في ميزان بني إسرائيل ـ مظِنَّة قتله والقضاء عليه.

هذه تصاريف القضاء الإلهي التي يقف أمامها البشر وقوف المستسلمين العاجزين.

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وَعْدٌ آخر سيتحقق ـ لا محالة ـ لأن الذي وعد به هو الذي وعد بردّ الرضيع إلى أمّه.

وتمر السنوات، ويكبر معها موسى عليه السلام، وها نحن نراه يخرج من مصر خائفاً يترقَّب بعد حادثة مناصرته للرجل الذي استصرخه من قومه إلى أين يا موسى؟

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

إذن، فلك البشارة بالفوز، ما دُمْتَ ـ وأنت خارج خائفاً تترقَّب الطرقات حذراً من القبض عليك ـ تُرجع الأمر إلى الله العلي القدير..

ارتباط متَّصل بالله عز وجلَّ في كل حركة وسكنة، ومن كان ارتباطه بربه قوياً فقد «فاز».

هناك في مدين قام بواجبه نحو فتاتين كانتا منعزلتين عن الناس وهم واردون على الماء، فسقى لهما، ثم تولى إلى الظلِّ.

ما الذي قال في هذه الحالة؟

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

إنَّه التوجُّه الصادق إلى الله لا ينقطع أبداً عند المؤمنين به.

ولهذا كان الفَرَج سريعاً:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

جزاءٌ سريع لأن الأمر تعلَّق بالقادر على كل شيء.

وهنا يسمع موسى عليه السلام من الرجل الصالح العبارة التي سمعتها أمه من الله سبحانه وتعالى في إلهامه لها من قبل.

هناك: ﴿وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي﴾.

وهنا: ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

هكذا يكون الاتصال الصادق القويُّ بالله عز وجلَّ أساس الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة.

كُرْبة، فلا مكان في حياة الموقنين بربهم إلاَّ للأمل المشرق، والبشارة التي لا تتأخر. «بشِّروا ولا تنفِّروا».

فرعونُ، الملك القويُّ الطاغية ذو الأموال والجيوش الجرَّارة والقصور والأنهار ينتهي غريقاً في البحر.

لأنه قطع صلته بالله العلي القدير.

وموسى ـ عليه السلام ـ الرَّضيع الضعيف، والفتى الطَّريد من بلده، الذي لا مال له ولا سلطان، يصبح نبياً رسولاً منتصراً على أعتى قوَّة بشرية في زمانه.

لأنه وثَّق صلته بالله العليِّ القدير، هنا تكمن أسرار النجاح والفلاح وبشارات الخير.

❊ ❊ ❊

ترنيمة صباحية

من شعري:

صــــبــــاحُكِ أحلـى مـن السكّرِ
وأجـــــمـل مـن حُلُـمٍ مُــــزهـرِ
واعــذبُ مـن شــدو عــصــفــورةٍ
تـغــــرّدُ في روضنـا الأخــــضـــر
صــبـــاحُكِ أجـمـل من واحـــةٍ
ترى الشـمس في يومـهـا الممطر
وأجـــــــملُ مـن قـطـراتِ الـنَّدى
يُلألِئُـهـا الفـجـرُ في البـيـدَرِ
ومـن عـطـر أزهـارِ بـســـــتـــــاننا
إذا فــاح في صُـبـحنا المُسـفــر
ومـن زَهْـر اشــجــاره حــينمــا
يـصــــوغ الـنّـدى أَلَـقَ المـنَـظَـرِ
صــبـــاحُكِ أنضَــرُ من دوحـــةٍ
واينـع من غــصـنـهــا المثــمــر
وأبهى مـن الشــمس ســاقت لنا
بشــائر من وجــهــهـــا الأنْورِ

وأصفى من الماءِ في جدولٍ
جرى في مسيلٍ من المَرْمَرِ
وازهى من البدر لما بدا
اميراً على ليلنا المقمر
صباحُكِ اوراقُ زيتونةٍ
على مثلها السُّحْبُ لم تُمْطِرِ
يكاد يحدِّثني زيتُها
حديث النَّجاةِ إلى المُبْحِرِ
صباحُكِ اجمل من احرفٍ
ينغِّمها الشعرُ في الأشْطُرِ
ومن كلمات المحبِّ التي
تعانق بعضاً على الأسْطُرِ
صباحُكِ أَضْوَأُ من بسمةٍ
تضيء على ثغر مستبشر
واعذَبُ من دمعةٍ اصبحتْ
تَرَقْرقُ في عين مستذكر
صباحُكِ انتِ صباحُ المنى
وبشرى النجاح لمستبصر

صـــــبــــــاحٌ ينضَّـــــد مـن نوره
لآلـئَ، لـولاكِ لـم تـنـثـــــــــــر
هنا وقف الحــــسنُ في دهشـــةٍ
فـلـم يـتـكـلَّـم ولـم يـنـظـر
يســـائلني منه إحـــســـاسُـــه
عن الشِّـــيخ والمسكِ والعَنْبـــر
عن الشعـر والحب، هل أصبحا
حليـــفينِ في الأثَر المُبـــهِـــر
أذاكـــرةَ الحُـــسْنِ لا تســـالي
فـــإني ذكـــرتُ، ولم تذكُـــري
وربِّكِ لولا لـهـــــــيبُ الأسى
على جُـــرح أمـــــتنا الأخطر
ولولا دمـــاءُ الضَّـــحـــايا التي
تُراق على دربنا المُقْـــــفِـــــر
ولا أنـــينُ الـــثـكـالـــى الــذي
يُهـيِّج حَسْـــرةَ مـــســتـعــبـر
ولـولا تـكـالُـب أعـــــــدائـنـا
عـلى صَفِّ أمـــــــتـنـا المُدْبــر

لحــوَّلتُ صُــبــحَكِ أُنشــودةً
تــردِّدها شَــفَـــةُ الأعْـــصُـــرِ
مـن الشِّـــعـــر والحُبِّ لحنُ المدى
يـقـــول بـرغـم الأسـى: أَبْشِـــري

❀ ❀ ❀

من واحد إلى عشرة

دخل على صاحبه في الوقت الذي كانت نشرات الأخبار تتحدَّث عن مقتلة بشعة قام بها الجيش الصهيوني في مدينة «غزَّة»، ذهب ضحيَّتها عددٌ من الشباب الفلسطيني المجاهد، المدافع عن دينه ونفسه وعرضه وبلده، وفاجأه ما رأى من انغماس صاحبه في قراءةِ كتابٍ كان بين يديه، وصرخ بصاحبه: أنت تجلس في هذا المكان الهادئ تقرأ، والصهاينة يمزِّقون أجساد إخواننا في فلسطين؟ أما لك قلبٌ يتحرَّك؟ أما لك إحساس؟.

رفع إليه صاحبُه عينين معبِّرتين وقال له: أنتَ تعلم أنَّ الألم يعتصر قلوبنا لهذا الذي تقول، وأنَّ الذي نستطيع أن نفعله لدعم إخواننا هناك أو في أي مكان في العالم لا نتأخرَّ عنه أبداً، لأنَّ مناصرة المستضعفين حقٌّ على المستطيعين على وجه العموم، فكيف إذا كان المستضعفون هم أهلَنا وإخواننا في عقيدتنا، أنت تعلم ذلك علم اليقين، فكيف تتهمني بعدم الإحساس؟! ثم إنني أوجِّه إليكَ سؤالاً صريحاً: هل يتعارض ما أنا فيه الآن من الجلوس في جوٍّ

هادئ والانغماس في قراءة كتاب جميل مع شعوري بمأساة أمتنا كلها وليس بمأساة فلسطين الحبيبة فَحَسْب؟!

هل يُعدُّ نومُك أنتَ على فراشك، وارتفاع صوتك بالشخير دليلاً على عدم إحساسك بجرح أمتك النازف؟!

قال، وقد هدأ رَوْعُه: كلاّ يا صاحبي، ولكنَّ الصهاينةَ يزيدون من قسوتهم واعتدائهم وظلمهم، ونحن عنهم ساكتون.

قال له: من قال: إننا عنهم ساكتون؟، اجلس أمامي، وارفع يدك معي إلى السماء، واطلقْ معي سهام الدُّعاء.

قال له: ما أجمل هذه الكلمات التي دعونا بها القادر على كلِّ شيء.

هنا ظهر الجد على ملامح صاحبه وقال بانفعالٍ واضح: نحن مقصِّرون لا شك في ذلك، ولكنَّ الأمة كلَّها تعيش مرحلة المَخَاض التي سيكون لها ما وراءَها - إن شاء الله - . فمبشّرات صحوة الأمة وقوتها مشرقة كما تشرق شمس الصَّباح، وما هذا الليل المظلم من الأزَمات إلا دليلٌ على أنَّ الفجر يطرق الأبواب، ولا يُعذَرُ أحدٌ منا في أنْ يقدِّم ما يستطيع، ثم نظر إلى الكتاب الذي بين يديه وقال لصاحبه اسمع:

إنَّ الأرقام يمكن أن تتحوَّل إلى أشياءَ فيها حركة، وتأثير خارج وظيفتها العددية الحسابية.

وها هو ذا أبو الحسن علي بن عبدالرحمن بن هُذَيل الذي عاش في القرن الثامن الهجري يورد في كتابه «عين الأدب والسياسة» طرائف من الحكم والأمثال مرتبطة بالأرقام.

وقد بدأ بالرقم «**واحد**» فأورد فيه: «طلب الدَّين أحَدُ العُسرَين» و«الزوجة الصالحة أحد الكاسبَين» و«اللسان أقْطَعُ السَّيفين» و«حُسنُ الثناء أحد البقائَين» و«سوء الرأي أحد المحاربَين» و«التثبُّتُ أحد الناصحَين» و«التودُّد للناس أحدُ الحسنيين».

وانتقل إلى رقم «**اثنين**» فأورد فيه: «ثنتَان لا تُردَّان: الدُّعاء عند النِّداء، وعند البأس حين يَلْحَمُ بعضُه بعضا» و«خُلُقان يُبغضهما الله ورسوله: البخلُ وسوء الخُلُق» و«خصلتان ليس فوقهما من الخير شيء: الإيمان بالله، والنَّفع لعباد الله» و«ذنبان لا يُغفران: البَغيُ وقطيعةُ الرَّحِم».

وانتقل إلى رقم «**ثلاثة**»، فأورد فيه: «ثلاثة من الموبقات، فاحذروهنَّ: الحرص، والحسد، والكِبر» و«ثلاثة لا يَضُرُّ معها شيء: الدُّعاء عند الكَرْب، والاستغفار عند الذنب، والشكر عند النعمة» و«ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة: بَرٌّ من فاجر، وشريفٌ من دَنيء، وحليمٌ من سفيه».

وانتقل إلى رقم «**اربعة**»، فأورد فيه: «أربعٌ لو شُدَّتْ إليهنَّ المطايا كان قليلاً: لا يرجو عبدٌ إلاَّ ربَّه، ولا يخاف إلا ذنبه، ولا

يستحي الجاهل أن يتعلّم، ولا يستحي العالم إذا سُئِلَ عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم» و«أربعةٌ يسود بها المرء: الأدب، والعلم، والعفّة، والأمانة».

ثم انتقل إلى رقم «**خمسة**»، فأورد فيه: «خمسة لا يجتمعن إلا في مؤمنٍ حقاً: النور في القلب، والفقه في الإسلام، والوَرَع في الدِّين، والمودَّة في الناس، وحُسْنُ السَّمْتِ في الوجه» و«خمس خصال من السعادة: اليقينُ في القلب، والورع في الدين، والزهد في الدنيا، والحياء، والعمل».

ثم انتقل إلى رقم «**ستة**»، فأورد فيه: «ستةٌ من علامات الجاهل: الثقة بكل إنسان، وألا يميز عدوَّه من صديقه، وأن يُفشي سرَّه إلى كل من لاقاه، وكثرة الكلام فيما لا يعنيه، وسرعة الغضب من كل شيء، ووضع الشيء في غير محلِّه».

ثم أورد في رقم «**سبعة**»: «سبعة خصال من كانت فيه لم يعدم سبعاً: من كان جواداً لم يعدم الشرف، ومن كان ذا وفاء لم يَعدَم المنَّة، ومن كان صدوقاً لم يَعدَمِ القَبول، ومن كان شكوراً لم يعدم الزيادة، ومن كان ذا رعايةٍ للحقوق لم يعدم السُّؤدد، ومَنْ كان مُنْصِفاً لم يَعْدَمِ العافية، ومن كان متواضعاً لم يعدم الكرامة».

وأورد في رقم «**ثمانية**»: «قال عليٌّ لابنه الحسن رضي الله عنهما: يا بنيَّ احفظ عني ثمان خصالٍ لا يضرك معها شيء ـ إن شاء الله ـ: أغنى الغِنى العَقلُ، وأكبر الفقر الحُمقُ، وأوحش

الوحشة العُجبُ، وأكرم الحسب حُسنُ الخُلُق، وإياك ومصاحبةَ الأحمق، فإنه يريد أن ينفعَك فيضرّك، وإياك ومصادقة الكذّاب فإنه يقرِّب لك البعيد، ويُبعِّد عنك القريب، وإياكَ ومصادقةَ البخيل فإنه يقعد عنك أحوَجَ ما تكون إليه، وإياكَ ومصادقةَ التاجر فإنَّه يبيعك بالتّافه اليسير».

ثم انتقل إلى رقم «**تسعة**» فأورد فيه ما رُوي عن الرسول ﷺ: «أمرني رَبي بتسع خصال: الإخلاص في السرّ والعَلَن، والعدل في الرّضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفوَ عمن ظلمني، وأصِلَ من قطعني، وأعطي من حَرَمني، وأن يكون نُطقي ذكراً، وصمتي فكراً، ونظري عبرة».

ثم وصل إلى رقم «**عشرة**» فأورد فيه: «سهام الإسلام عشرة خاب من لا سهم له فيها: الشهادتان، وهي المِلَّة. والصلاة، وهي الفطرة. والزكاة، وهي الطُّهر. والصيام، وهو الجُنَّة. والحج، وهو الشريعة. والجهاد، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والطاعة، وهي العِصْمَةُ. والجماعةُ، وهي التآلف. والغسل من الجنابة، وهو السَّريرة».

وهنا رفع عينيه إلى صاحبه، وأغلق الكتاب وقال: ما رأيُكَ في ما ذكره المؤلف في كتابه؟ قال: إنه لشيء طريف، وإنَّ فيه من التوجيه والعلم والموعظة الحسنة ما يستحق التقدير والعناية، هل يمكن أن تعيرني الكتاب؟ قال له ـ ضاحكاً ـ: أخشى ألا يعود إلى موقعه من مكتبتي.

قال: لا تَخَفْ، سوف يعود إليك الكتاب غداً إن شاء الله.

ونقول: إنَّ تنميةَ ثقافة الإنسان، ومهاراته الشخصية، ورعاية مواهبه وقدراته، وربطه بكتب العلم وما فيها من القيم والمبادئ، تُعَدُّ من أهمِّ وسائل القوَّة التي يجب إعدادُها لمواجهة المعتدين.

لا مكان لليأس، والتَّنفير من الحق في نفوس العلماء، وأصحاب الفكر السليم، والثقافة الصحيحة، وإنَّ من أهم عوامل البشارة التي نستبشر بها حِرصَ الإنسان المسلم على تنمية مهاراته التي تجعله صامداً قوياً، ومثقفاً واعياً.

❁ ❁ ❁

ثلاثة أبيات

من شعري:

- إني برغم الحزن لست بيائس
  فالفجر من رَحِمِ الظلام سَيُولَدُ
- لا تنظُرَنَّ إلى الحياة، وإن قَسَتْ
  نَظَرَ اليؤوسِ، ولو شكوتَ بَنيها
- هل يستطيع الليل أنْ يبقى إذا
  أَلقَى النَّهارُ قصيدة الأنوارِ

❁ ❁ ❁

بين متناقضين

قال: هل يمكن الجمع بين موالاة الغرب في فكره وثقافته وسياسته وبين الولاء لله عز وجل، وموالاة المسلمين؟

قلت: كلاًّ، إنما يمكن التعامل الحسن مع الغرب وغير الغرب، أما الجمع بين طرفي النقيض فلا يمكن، إلا في الأساطير.

والأساطير عند العرب في هذا المجال تأتي بالأعاجيب.

هذا الثعالبي يقول: من خُرفات العرب قولهم: إنَّ مخلوقاً اسمه «الخُسُّ» نشأ من علاقة بين إنسيٍّ وجنية، و«الغُملوق» نشأ من علاقة بين الآدمي والسِّعلاة، و«العِلْبَان» بين الآدمي والمَلَك. كما زعموا أنَّ قبيلة «جُرْهم» كانت من نتاجٍ حدث بين الملائكة والإنس، وزعموا أنَّ بلقيس ملكة سبأ كانت من هذا النوع، وزعموا أن النّسناس نشأ من علاقة بين الشِّق والإنسان، وأنَّ الشِّق ويأجوج ومأجوج هم نتاج ما بين النبات وبعض الحيوان.

أرأيت كيف كثرت هذه المزاعم والخرافات بهذه الصورة التي لا أساس لها في الواقع أبداً؟

بإمكانك أن تضيف إليها ما يدَّعيه البعض من إمكان وجود حالةٍ خاصة في تاريخ الأمة تنتج من الجمع بين المتضادين «موالاة الكفار وموالاة المسلمين في آنٍ واحد»، حتى تكون إضافة إلى المزاعم والخرافات السابقة.

نحن لنا ضوابط شرعية واضحة في حسن التعامل مع الناس جميعاً، وفي السَّماحة، والإحسان، دون تفريطٍ في ثوابت الدين التي وضعها ربُّ العالمين.

❀ ❀ ❀

رُقِيّ

من شعري:

ربِّ مــاجت بخــاطري حســراتي
وتــنــادت مـن الـدُّجَى زفــــــراتـي
وانبـرى الحـزن لي بسيفٍ صقيلٍ
ويـرمـحٍ مُـــــسَـــــدَّدِ الطَّعنـات
رَبِّ، لولاك مـا جـرى نهـر عـزمي
في عــروقي ولا مــشت خطواتـي
بكَ يا رب أســـتـــعين وارجـــو
منك عـــفـــواً به تزول شكاتي
يُثِــقِلُ الهمُّ كـاهلي، فـيـريني
أملي في رضـاك صَـفْـوَ حـيـاتي
منك يارب أســتــمــدُّ يقـيني
وصـــمـــودي وهمـــتي وثبـــاتي

كلُّ مــا في الحــيــاة يصــغــر لما

أتَــرقَّــى إلــيــكَ فــي صــلــواتــي

❀ ❀ ❀

مشكاة نبوية

يحمل أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ مشكاةً نبوية مضيئة في يده، ويقدِّمها إلينا، معطرة بقول الرسول ﷺ: «**إياكم وسوءَ ذاتِ البَين، فإنها الحالقة**».

كيف تكون الحالقة؟ إنّ العداوة والبغضاء بين الناس تفتك بالمحبة والمودة، وتصيب القلوب بالحقد، وتنفِّر الناسَ من بعضهم حتى تصبح حياتهم مليئةً بالكراهية، فهي تُشبه تلك المُوْسَى التي تحلق الشَّعر وتذهب به كلّه؛ لأنها تحلِقُ الدِّين، وتذهب بروح المودة والإخاء.

وهذا المعنى هو الذي أراده عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما خطب الناسَ بالجابيةِ بكلامٍ ثمينٍ رواه عن رسول الله ﷺ، جاء فيه: «**عليكم بالجماعة، وإيّاكم والفُرقَة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين ابعد، مَنْ أراد بُحبوحةَ الجنَّة فَليَلزَم الجماعة، من سرَّتْه حسنتُه، وساءَتْه سيئُته، فذلكم المؤمن**».

يا لها من أضواءٍ نبويَّةٍ كاشفة لكل غَبَشٍ يحول دون رؤية الحق!

لمحة بلاغية: في قوله: «**وهو من الاثنين أبعد**»، ما يوحي ببعده الكبير عن الثلاثة فما فوق، فكيف بحال الجماعة، إنَّ بُعْد الشيطان عنها كبيرٌ عميق.

❦ ❦ ❦

تلوين

● قيل لأعرابي: ألا تغزو، وتجاهد، فإنَّ الله قد أنذرك. قال: والله إني لأبغض الموت على فراشي، فكيف أمضي إليه ركضاً.

● قال ابن المقفع: الجُبْنُ مَقْتَلَةٌ، والحِرصُ مَحرَمة، إنَّك لو أحصيتَ الذين قُتلوا في الحروب مدبرين لوجدتهم أضعاف الذين قُتلوا فيها مقبلين.

وإن الرجل ليحتاج فيطلب بإجمالٍ وتكرُّم وعدم إلحاحٍ فيجد ممن يطلبه السَّخاء، ويصل إلى حاجته، ولا يجد الحريص الشَّرِه المِلْحاح إلا التضايُقَ والصدود.

● قال عمرو بن العاص لمعاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهم ـ: لقد أعياني أنْ أعلم أجبانٌ أنتَ، أم شجاع؟ فقال معاوية:

شجاعٌ إذا ما أمكنتنيَ فرصةٌ
وإلاَّ تكنْ لي فرصةٌ فجبَانُ

● كان خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ يسير بين الصفوف قبل بداية المعركة يشجِّع الناس ويقول: يا أمه الإسلام، إنَّ الصبر عز، وإنَّ الفشل عجز، وإنَّ النصر مع الصبر.

● أمر كسرى بقتل يوشت المغنيِّ الذي كان يُطربه لأنه قتل تلميذه في الغناء فهلوذ حينما تفوّق عليه، وقال كسرى ليوشت: لقد كنت أستريح منك إلى فهلوذ، وأستريح منه إليك، فأنتَ الآن قتلت نصف تمتُّعي بحسدك وغدرك، وأمر أن يُلقى تحت أرجل الفيلة حتى يموت.

فقال: أيها الملك، إذا كنتُ أنا بسوء فعلي قتلتُ نصفَ متعتك، فإنك سوف تقتل بقتلي النصفَ الآخر، فتكون جنايتك على طريك كجنايتي عليه.

قال كسرى: دعوه، فما دلَّه على هذا الكلام إلا ما كتب له من البقاء في الحياة، وعفا عنه.

❀ ❀ ❀

نور السموات والأرض

السياحة في بساتين الذكر، وواحات الدُّعاء لا تعادلها سياحةٌ أبداً، فيها راحة للنفس لا تعدلها راحة، وانشراح للصدر لا يعدله انشراح، ومتعةٌ بيانيَّة لا تعدلها متعة.

سياحة يرافق فيها الإنسان ذكر ربه، وسيرة خير الأنبياء عليه وعليهم السلام، وكلمات مضيئة تخرج من مشكاة النبوة، فتنتشر نورَها في قلب الإنسان وعقله وروحه.

سياحةٌ تمنح الإنسان قوّةً على العطاء الروحي، والعمليّ المادي، فهناك علاقةٌ وثيقةٌ مشهودة معلومة بين قدرات جسم الإنسان، وقدرات رُوحه، وللكلمات الطيبة المضيئة أثرها الكبير في زيادة استيعاب الإنسان العقلي، ونشاطه الجسديّ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما وجَّه الرسول ﷺ ابنتَه فاطمة وزوجها عليّاً رضي الله عنهما إلى التسبيح والتحميد والتكبير إذا كانا يريدان الاستغناء عن خادم.

جميع الدراسات النفسيّة المعاصرة، ودورات البرمجة العصبية، والهندسة النفسية تؤكد أهمية الكلمات المشرقة في زيادة طاقات الإنسان، فكيف إذا كانت تلك الكلمات خارجة من مشكاة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؟

أدعوك إلى الدخول معي الآن في هذا الحقل المورق المزُهر النَّضير: «**اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت قيِّم السماوات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت رَبُّ السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك مُلكُ السماوات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنتَ مَلِكُ السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت الحَقُّ، ووعدُك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك الحق، والجنَّة حق، والنار حَقٌّ، والنبيّون ـ عليهم السلام ـ حقّ، ومحمد ﷺ حقٌّ، والساعة حقٌّ، اللهم لك أسلمت، وعليك توكَّلتُ، وبكَ آمنت، وإليكَ أَنَبْتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ.**

فاغفر لي ما قدمتُ، وما أخَّرت، وما أسررت، وما أعلنت، أنت المقدِّم وأنتَ المؤخِّر لا إله إلا أنتَ، أنتَ إلهي لا إله إلا أنتَ».

لله هذا البيان، وهذا الصفاء وهذا النقاء.

لله هذه البلاغة المتألِّقة، وهذه الفصاحة المتدفِّقة، وهذا النَّهر البياني الرَّقراق، وهذه الغصون والأوراق.

هنا تحلِّق الروُّح، وترقى النفس، ويسمو العقل، ويسعد القلب، وينشرح الصدر.

هنا، سموٌّ وارتفاع، وجمالٌ وإبداع، وإرواءٌ وإشباع.

مدرسة البيان المتصلة بالسماء، تعلِّمنا كيف نرقى بنفوسنا، ونسمو بأرواحنا.

قل لي ـ بالله ـ بعد هذا، كيف لا نبشِّر ونستبشر، ونذكر ونستذكر، ونفتح للعالم الحائر أبواب الخير التي لا توجد مفاتيحها إلا في شرع الله سبحانه وتعالى، ومنهج أنبيائه ورسله عليهم السلام الذين خُتموا بمحمدٍ ﷺ.

أرأيتَ إلى جمال هذا الحقل الذي دخلناه؟

ألا ترى أن أزهاره وأشجاره تستحق منا وقفاتٍ تزيدنا متعةً وصفاء؟ هيا بنا إذن على بركة الله:

اللهم لك الحمد.. تكرارٌ يحمل من معاني الإجلال لله تعالى، الخضوع له، وتكرار الشكر له على نعمه العظيمة، وترجيع كلمة

الحمد اللائقة به عز وجل، ما يؤكدُ أننا أمام دعاءٍ يصعد من أعماق القلب، إلى آفاق السماء، خالصاً لرب العالمين، اللهم لك الحمد... جملة مناسبة للتقديم بها قبل كل ثناء على الله تعالى.. فبعدها نقول: أنت نور السماوات والأرض، وأنت قيّم السماوات والأرض، وأنت ربُّ السماوات والأرض، ولك مُلك السماوات والأرض، وأنت مَلِكُ السماوات والأرض، وأنت الحق، وما تلاها من الصفات اللائقة بجلال الله تعالى.

الله لك الحمد... جملة جاءت بمثابة الوقفات التي تسبق الانطلاق، فهي تشعرنا بما يشبه الرابية المرتفعة التي تُطلُّ بنا على بعدها من السهول الخضراء، وكأني بقائلها ينطلق مسرعاً إلى ما يراه من بساتين مورقة ساعةَ يقولها: «اللهم لك الحمد».

اللهم لك الحمد... جملة تسبق الحديث عن نعمٍ من الله علينا، فهي تناسب ما يأتي بعدها؛ فنور خالقنا، وقيّوميّته، وربوبيَّته، وملكه العظيم وجنته، والنبيون الذين أرسلهم إلى عباده وختمهم بأفضل خلقه، والساعة المنتظرة. كلُّ ذلك من نعم الله عز وجل التي تستحق الحمد، فكان مناسباً في ميزان البلاغة النبوية أن تتكرر هذه الجملة المضيئة «اللهم لك الحمد».

ثم إن تكرارها يوقظ الذهن، ويشدُّ الانتباه، ويحرّك تَوْقَ النفس إلى ما يأتي بعدها من صفات خالقنا العظيمة.

وهنالك جانب بيانيٌّ واضح، ألا وهو التناسق البديع بين مفردات هذا الدعاء وجمله الطويلة والقصيرة، خاصةً جُمَلَ الاستسلام لله سبحانه وتعالى، وطلب المغفرة منه التي تتابعت في آخر الدعاء تتابعاً جميلاً يحقق من متعة التذوُّق ما لا يمكن وصفُه وتصويره.

من قوله عليه الصلاة والسلام: «**اللهم لك اسلمت...**» إلى قوله: «**أنتَ إلهي لا إله إلا أنتَ**».

بساتين ذات خصبٍ ونماء، وحدائق ذات بهجة ورُواء، فما أسعدنا بها، وما أغنانا بثمارها عن غيرها!!

❀ ❀ ❀

تقديرنا لأولادنا

من الموضوعات التي تستحق أن يتكرَّر التنبيه إليها موضوع التعامل مع الأولاد ذكوراً وإناثاً؛ لأن التعامل معهم عمل تربوي مهم ذو أثر فعَّال في توجيههم ودعم شعورهم بالثقة في أنفسهم، ودفعهم إلى النجاح، ورفع معنوياتهم، أو في تقريعهم، وزعزعة الثقة في أنفسهم، وتثبيطهم، وهدم معنوياتهم، بحسب طبيعة ذلك التعامل.

وأصل المشكلة في هذا الموضوع شعور الآباء والأمَّهات بأنَّ الأولاد جزء مهم، فهم لا يحتاجون إلى استخدام الأساليب التي

تستخدم مع الآخرين بحجة أنَّ العلاقة الأسرية علاقة تلقائيَّة بعيدة عن ما يسمَّى بـ «الرسميَّات»، وينسى أولئك الآباء والأمهات أنَّه لا تعارض بين تلقائيَّة العلاقة الأسرية وبين استخدام بعض الأساليب الخاصَّة المستخدمة في العلاقات العامة المتعارف عليها خارج إطار الأسرة.

فما الذي يمنع أنْ يوجِّه الأبُ خطاباً ذا لهجةٍ «رسميَّة» إلى ابنه الذي يقوم بجهودٍ خاصةٍ متميِّزة في خدمة أبويه وأهله؟ وما الذي يمنع أن يوجِّه خطاباً لى ابنه الموظَّف في مؤسسته أو شركته يتضمن شكره على إنجازٍ ناجح كما يفعل ذلك مع أيِّ موظف ناجح؟.

وما الذي يمنع أن تفعل الأم ذلك مع ابنتها أو ابنه؟ وهل ذلك التعامل القائم على الاحترام المتبادَل باختيار أفضل الكلمات والأساليب مقصورٌ على الناس خارج إطار الأسرة والمنزل؟

إنَّ تقديرَنا لأولادنا مَطلبٌ تربويٌ مهم، وهو مَطلبٌ شرعي يحقق لنا من الاستقرار العائلي، والصِّحة النفسية، والنجاح العملي ما لا يخفى على من يوفَّق إلى تطبيق هذا السلوك التربوي الحضاري الناجح.

أعرف ابناً اختلف مع أبيه اختلافاً مؤسفاً، وصل إلى درجة القطيعة ـ والعياذ بالله ـ لأنَّ الأب ـ وهذا ما عرفته بنفسي ـ لم يكن يعطي ابنه هذا من الاهتمام والعناية والتقدير ما يعطيه

لأصغر الموظفين الآخرين في شركته، وقد حاولت إصلاح الأمر فيما بينهما، كما حاول غيري، ولكنَّ صلَف الأب وشدّته مع ولده حالت دون ذلك، ولقد رأيته يتعاون مع ابنه بكلِّ فجاجة وتجهُّم، وحينما نبَّهته إلى هذا الخطأ الجسيم قال لي: ماذا تريد مني؟ تريد أنْ أقبِّل رأسه وأنا أبوه؟

وهكذا أُغلق باب الوئام الأسري بسبب هذا التفكير السلبي.

أضرب مثلاً شخصياً:

ابني الأكبر أسامة، وفقه الله ورعاه وإخوته جميعاً، يقوم بإدارة بعض أعمالي التجارية، وتنسيق ندواتي وأمسياتي ومواعيدي جميعها، ولاحظت أنني - في غفلة من نفسي - أتعامل مع نجاحاته في العمل بالغبطة والسرور، ولكنني قَلَّما أعبِّر له عن ذلك، فالعلاقة المتواصلة بيننا عائلياً وعملياً تجعل الأمر يسير بشكل روتيني - في هذا الجانب -، ورأيت أنني أناقشه دائماً في بعض الثَّغرات والأخطاء التي تحصل، ولا يمكن أن يسلم منها عمل بشري، وهذه المناقشة في الثغرات لا عيب فيها، ولابد منها، ولكنَّ المشكلة تكمن في عدم الحديث عن الإيجابيات الكثيرة التي تحدث في العمل، وعدم التعبير الّلائق عن شعوري الحقيقي بالرِّضا والغبطة نحو نجاح ابني العملي.

وبعد حوارٍ معه عن بعض ثغراتٍ في عملٍ من الأعمال، سمعته يقول بأدب: هذا صحيح، ولكن ما تحقَّق - ولله الحمد - من النجاح

يؤكد أننا نسير في الطريق الصحيح ـ إن شاء الله ـ ، قلت له: نعم، وشعرت أنه يقول الكلام الذي أغفل عن قوله ـ برغم أهميته ـ في تقدير الجهود.

وأذكر أنني جلست ـ يوماً ما ـ جلسة تأمُّل للأعمال والجهود التي يقوم بها الابن أسامة في وظائفه الموكلة إليه، فوجدتها أعمالاً جيِّدة تستحق التقدير والإشادة، فكتبت له خطاباً رسمياً أنقله بنصِّه:

«سعادة مدير عام مكتبة الأديب وفقه الله

الابن أسامة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

إنَّ كلَّ إضاءة جديدة تضيء بها مسيرة عملك المبارك في المكتبة، وفي أعمالي التي تقوم بعبئها، تفتح لتجربتك في مجال العمل آفاقاً جميلة، وتسعدني أيَّما إسعادٍ حينما أرى الابن الحبيب يخطو خطوات ثابتة ـ ولله الحمد ـ في طريق النجاح، وفي الشعور بالمسؤولية، وإنَّ جهودك الطيبة المباركة، وما تحقّقه ـ بعون الله وتوفيقه ـ معنوياً ومادياً، لجديرةٌ بالتقدير والإشادة، وبالمتابعة ومواصلة الإجادة.

وهكذا يكون الإنسان المسلم عمليَّاً واعياً مخلصاً مستعيناً بالله، متوكلاً حقَّ التوكُّل عليه، مستفيداً من الثغرات والأخطاء التي لولاها لما تكوَّنت التجارب، ولما تحقَّق ـ بمشيئة الله ـ النجاح.

إنَّ الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً، فتأكَّدْ أنَّ كلَّ جهدٍ تقومِ به سيكون له نتائج ناجحة بإذن الله تعالى، فلا مكان لاستبطاء النتائج، ولا موقع في النفس ليأسٍ من النجاح أبداً.

إني أبعث إليك بهذا الخطاب شاكراً ومقدراً ومشيداً بجهودك الكريمة، ونجاحك في العمل، ومؤكِّداً أنَّ أيَّ توجيه مني إنما هو لتسديد ما قد يحصل من ثغراتٍ في عمل متميِّز.

بارك الله فيك، ورعاك، وحفظك من كل سوء، وزادك توفيقاً وسداداً، وطاعةً لربك المنعم ذي الجلال والإكرام.

وتقبَّل الدعاء الصادق، والتحية الإسلامية الخالصة من والدك المحب».

ما الذي يمنع أن نضيف إلى تعاملنا العائلي مع أولادنا هذه اللمَسَات التي تضيء النفوس، وتسعد القلوب، وتعترف بالفضل لأهله؟

❀ ❀ ❀

عندما يكذب من لا يحتاج إلى الكذب

حدَّث المبرِّد (العالم النحوي المعروف) فقال:

كانت الأشراف يخرجون إلى ظاهر الكوفة يتحدثون ويتناشدون الأشعار، ويتذاكرون أيام الأمم وأخبارها، فوقف عمرو ابن معديكرب الفارس الشَّهير إلى جانب خالد بن الصَّقْعب

النهدي، فتحادثا ساعة، ثم قال عمرو بن معديكرب: أغرت على بني نهدٍ فخرجوا إليَّ يتسابقون، وفي مقدمتهم فارسهم خالد بن الصَّقعب، فطعنته طعنةً فوقع، وضربته بسيفي الصَّمصامة حتى فاضت نفسه.

وكان عمرو لا يعرف خالداً، فضحك خالد وقال: مهلاً أبا ثور فإنَّ قتيلك الذي تحدِّثه، فقال عمرو: اللهم غَفْراً، إنَّما نتحدَّث بمثل هذا لنُرهب أعداءنا.

والحقيقة أنه لا عذر في هذا لبطلٍ عنده من أخبار بطولاته الصحيح ما يكفيه. وعمرو بن معديكرب هو القائل:

أَلم بسلمى قبل ان تَظْعَنا
إنَّ لنا من حبِّها دَيْدَنا
قد علمتْ سلمى وجاراتُها
ما قطَّر الفارسَ إلاَّ انا
شَكَكْتُ بالرُّمح حيازيَمه
والخيلُ تعدو زِيَماً بيننا

❀ ❀ ❀

تفاريق العصا

الجولة في بساتين اللغة العربية تمنحك متعةً أيَّةَ متعة، وتزيل عنك ما قد يصيبك من الملل، وضيق الصَّدر، واستثقال الجلوس

حينما تكون فارغاً من عمل، بعيداً عن أخٍ أو صديق تجاذبه أطراف الحديث.

وها أنذا أدعوك هنا دعوةً إلى جولة قصيرة في جانبٍ من جوانب بساتين اللغة الخضراء الفسيحة، يرافقنا فيها المثل العربي الذي يقول: «إنك خير من تفاريق العصا».

كانت هنالك امرأة أعرابيةٌ ظريفة اسمها «غَنيَّة»، وكان لها ابنٌ شديد العَرامة (الشراسة والشدَّة)، كثير الإساءة إلى الناس، مع ضعفٍ في جسمه ودقَّةٍ في عظامه، فواثب مرَّةً فتىً من الأعراب فقطع أنفه، فأخذت غَنيَّةُ ديةَ أنفِ ابنها فحسُنت حالُها بعد فقرٍ مُدقع.

ثم واثبَ ابنُها فتىً بعد ذلك آخر فقطع شفته فأخذت ديتَها، فلما رأت ما قد صار لها من الإبل والغنم والمتاع والكسب بجوارح ابنها حَسُنَ رأيُها فيه، فمدحته بأرجوزةٍ قالت فيها:

أَحلِفُ بالمروةِ يوماً والصَّفا

انَّك خيرٌ من تفاريق العَصَا

وأقول: إن الحلف بالمخلوق لا يجوز، فحلفها هنا بالمروة والصَّفا غير جائز وإنما يحلف الإنسان بربه.

أما «تفاريق العصا» فهي من العبارات الجامعة، ذات الدّلالات المتعدِّدة والمعاني الكثيرة، وهذا مما اهتدت إليه الأعرابية من بلاغة الكلام الجامعة المانعة، وإليك البيان.

سئل ابن الأعرابي (أحد علماء اللغة الكبار) عن هذه التفاريق فقال: العَصا تُقطَّع ساجوراً (وهو الخشبة التي توضع في عنق الكلب)، وتقطَّع عصا الساجور فتصير أوتاداً، ويفرَّق الوتدُ فيصير كلُّ قطعة منه شِظاظاً (وهو العود الذي يدخل في عروة القرية أو الدَّلو أو الجالوق)، فإذا كان رأس الشّظاظ كالفُلكةِ صار للبُختيِّ (الجمل) مِهاراً، والمِهارُ هو العود الذي يُدخَلُ في أنف البعير، وإذا فُرِّق المِهارُ جاءت منه تَوادٍ (وهي جمع تَوْدية، وهي خَشَبات تُصَرُّ بها أخلافُ الناقة لئلاً يرضعها الفصيل) وإذا كانت العَصَا قناةً فكلُّ شقَّة منها قَوْسُ بُندق يُرمَى به، فإنْ فُرِّقتْ الشّقةُ صارت سهاماً، فإن فرِّقت السِّهام صارت حِظَاءً، وهي سهامٌ صغار، قال الشاعر الطِّرِمَّاح:

فبينما ذلك هاجت به

اكْلُبٌ مثلُ حِظَاءِ الغلامْ

فإن فرِّقت الحَظْوة من هذه الحِظَاء صارت مَغازلَ يُغْزَلُ بها الصوف، فإنَّ فُرِّق المِغْزَل صارا شظايا يضعها النجّار في شقوق القدم المصدوع حتى يجبرها به، فهي أصلح شيء لذلك، يقول الشاعر:

نوافذُ أطراف القَنَا قد شكَكْنَه

كَشكِّكَ بالشَّعْب الإناءَ المثلَّما

فإن كانت العصا صحيحة سليمة ففيها منافع كثيرة يكفيك تعبيراً عنها ما ورد في القرآن الكريم من قول موسى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾، فهي مآرب كثيرة جداً يطول المقام بحصرها.

لغةٌ غنيَّة، وأعرابيَّة غنيَّة ببلاغة منطقها، وبالمال الذي حلت عليه من جوارح ابنها الشَّقيّ.

إنَّ للجولة في بساتين اللغة من المتعة ما يجعلها جديرةً بدعوتك إليها.

صاحب الصَّمْصَامة في القادسية

حضر عمرو بن معديكرب القادسية وعمره مائة وعشر سنوات، ومما يُروى عنه فيها أنه كان يمرُّ على الصفوف يحضُّ الناس ويقول: يا معشر المهاجرين، كونوا أسوداً، فإنما الأسد مَنْ أغنى شأنَه، فإنّما الفارسيُّ تَيْسٌ بعد أنْ يُلقي نَيزكَه (أي: رمحه)، وكان رستم يطوف بجيشه في الجهة المقابلة، ويرى ما يصنع عمرو بن معديكرب، وكان يرافقه «أُسوارٌ» من رجاله مشهودٌ له بالإصابة إذا رمى بسهم، فقال الناس لعمرو: يا أبا ثور،: اتّق ذاك الفارسيَّ، فما أتمَّها الناس حتى رماه رَمْيَةً أصابت كتفَ عمروٍ، وكانت عليه درعٌ حصينة، فلم تنفذ فيه الرَّمية، وَحَمل على العلِج، فاعتنقه، وسقط به على الأرض، فقتله، وأخذ سَلَبَه ورجع وهو يقول:

أنا أبو ثورٍ وسيفي ذو النُّونْ
أضربهم ضرب غلامٍ مجنونْ
يالَزُبيدِ، إنَّهم يموتونْ

وكان له بلاء حَسَنٌ في القادسية، وشجاعة أدهشت الناس مع أنه كان فوق المائة عام من العمر.

وهو الذي قال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي طليحة الأسدي ـ مخاطباً سعد بن أبي وقاص ـ: إني قد أمدَدْتك بألفي رجلٍ: عمرو بين معديكرب، وطُليحة بن خويلد، فشاورْهما ولا تولِّهما شيئاً.

فقد قدَّر عمر شجاعته بشجاعة ألفين.

وإنما أمر عمر ـ رضي الله عنه ـ سعداً بعدم توليتهما شيئاً لأنهما كانا ممن ارتدَّ عن الإسلام، ثم تابا وجاهدا في سبيل الله.

وكان عمرو بن معديكرب، جسيماً ذا خلقة عظيمة، وهيئةٍ ضخمة، ومهابةٍ وشجاعة، وهو أعظم خَلقاً من زيد الخيل الذي سمَّاه الرسول ﷺ (زيد الخير) والذي كان إذا ركب حصانه تصل قدماه الأرض.

ومما يُرْوَى عن عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ أنه كان إذا نظر إلى عمرو قال: الحمد لله الذي خَلَقنا وخلق عَمرو بن معد يكرب! تعجُّباً من عِظَم خلقه، وضخامة جسمه.

وكان سيفه الصَّمصامة من أشهر سيوف العرب.

❀ ❀ ❀

لوحة شعرية

قال عمرو بن الحارث بن مُضاض الجرهميّ يصف حالة جُرْهم بعد أن أُخرجوا من الحرم حينما هزمتهم خُزاعة:

كأنْ لم يكن بين الحَجُونِ إلى الصَّفا
أنيسٌ ولم يسمُرْ بمكَّةَ سامرُ
ولم يتربَّعْ واسطاً فجَنُوبَه
إلى المُنْحَنَى من ذي الأراكةِ حاضرُ
بلى، نحنُ كنَّا أهلها فأبادنا
صُروفُ الليالي والجدودُ العواثرُ
وأبدلَنَا ربِّي بها دارَ غُربةٍ
بها الذئبُ يَعوي والعدوُّ المُخامِرُ
فهل فَرَجٌ آتٍ بشيء نحبُّه
وهل جَزَعٌ مُنجيكَ ممَّا تُحاذِرُ؟!

ونقول:

يؤكد لنا التاريخ أنَّ جُرْهمَ إنما أخرجهم من مكة، وأهلكهم البَطَرُ والبَغيُ، وقد نصحهم مُضاض بن عمرو الجرهمي فلم يستمعوا إلى نصيحته، فكان هلاكهم في بغيهم، ولا يظلم ربُّك أحداً.

❀ ❀ ❀

تلوين

● قال أبو العتاهية مخاطباً مُجاشِعَ بن مَسْعدَه، أخا عمرو بن مَسْعَدة كاتب المأمون:

علمتَ يا مُـجـاشعَ بنَ مـسـعَـدَة
انَّ الـشـبـابَ والـفـراغَ والجِـدَهْ
مفسدةٌ للمرء ايُّ مفسدَهْ

● دخل الحسين بن الفضل بن الرَّبيع على أحد الخلفاءِ وعنده كبيرٌ من أهل العلم، فلما أراد الحسينُ الكلامَ زَجَره الخليفة وقال: أصبيٌّ يتكلم في مثل هذا المقام؟، قال الحسينُ مبادراً، دون رَهبةٍ أو اضطراب:

لستُ أصغر من هدهد سليمان، ولا أنت أكبر من مقام سليمان عليه السلام حين قال له الهدهد: أحطتُ بما لم تُحط به، ألست ترى ـ يا أمير المؤمنين ـ أنَّ الله فَهَّمَ الحكم سليمان، ولو كان الأمر بِكِبَر السِّنِّ لكان داود عليه السلام أولى. فسكت الخليفة، وقدَّر للفتى مكانتَه.

● قال الفرَّاءُ؛ العالم النَّحوي المعروف: أنشدني صبيٌّ من الأعراب أُرجوزة جيِّدة السَّبْك، فقلت: لمن هي يا غلام؟، فقال: هي لي، فَزَبَرْتُه استصغاراً له عن قول مثلها، فأدخل رأسَه في فروته وقال:

إني وإنْ كنتُ صغيرَ السِّنّْ
وكان في العينِ نُبُوٌّ عنّي
فإنَّ شيطاني أميرُ الجنّْ
يذهَبُ بي في الشعرِ كلَّ فَنّْ

● قال رجلٌ للفضل بن مروان: كم عُمْرك؟ قال: سبعون سنة، ثم سأله بعد سنين عن عمره، فقال: سبعون سنة، ثم مضت سنواتٌ بعد ذلك فسأله عن عمره، فقال: سبعون سنة، فقال له: ألم تخبرني منذ عشرين سنة بأنَّ عمرَك سبعون سنة؟

فضحك الفضل وقال: بلى، وإنما كان ذلك لأنني رَجُلٌ أَلُوف، إذا أَلِفْتُ سَنَةً أَقَمتُ فيها عشرين سنة لا أتجاوزها إلى غيرها.

❀ ❀ ❀

مُباعَدة

لقد أُوتي الرسول ﷺ جوامعَ الكلم، فالبلاغة إليه منساقة، والفصاحة له مِطْوَاعة، يستقي كلماته من نبع البيان الذي لا يَنْضبُ، وإنَّ من أوضح الأدلَّة على بيانه عليه الصلاة والسلام تلك الأذكار والأدعية الواردة عنه في كتب السنة، التي فيها من الإشراق، والصَّفاء والاتصال بربِّ الأرض والسَّماء، ما يجعلها أمثلةً في البلاغة والبيان، لا تصل إليها قدرات أرباب الفصاحة من العرب مهما حاولوا فتح أبوابها، وتفجير ينابيعها.

كلمات تليق بمقام النبوَّة الأسمى، وبموقف الإنسان أمام ربه سبحانه وتعالى خاشعاً، داعياً منيباً.

تأمَّل معي إيحاءات هذا الدُّعاء: «**اللهم باعدْ بيني وبين خَطاياي كما باعدتَ بين المشرق والمغرب، اللهم نقِّني من خطاياي كما يُنقَّى الثوب الأبيضُ من الدَّنَس، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماءِ والبَرَد**».

توجيهٌ قويٌّ إلى الإحساس بثقل خطايا الإنسان عليه، وبخطورتها على مستقبله الحقيقي فيما بعد الحياة الدنيا، حينما تُنْصَبُ الموازين، وتوزن الأعمال، إنَّ الخطايا تصبح في ذلك المقام أثقل من الجبال والصخور؛ لأنَّها إذا ثَقُلَت رجحتْ بالكفَّة الأخرى من الميزان، فأهلكت الإنسان، إلاَّ أنْ يتغمدَّه الله برحمته.

من هنا كان الدُّعاء بالمباعدة بين الإنسان وبين خطاياه مصيباً للهدف، مذكراً بخطورة الخطايا، وكيف يكون التباعُد؟ إنَّه التباعُد الذي يجعل الإنسان في مأمنٍ من سَطوةِ خطاياه، فإذا باعد الله بينَه وبينها كما باعد بين المشرق والمغرب فقد تحقَّق له الأمن من أثرها السيِّئ، ونتيجتها المؤسفة.

المباعدة هنا تصويرٌ بلاغي يعتمد على التشبيه الذي يقرِّب المراد من ذهن المتضرِّع إلى الله.

فإذا خالط الإنسان شيئاً من الخطايا، فإنَّ الدُّعاء يرتفع إلى الله عز وجل بطلب ما يناسب هذه المخالطة ألا وهو «التنقية»

«نقِّني»، وهي مرحلة أخرى تختلف عن سابقتها، هناك بُعْدٌ عن الخطايا ودعاء صادق أن يزيد الله من هذا البعد بين المسلم وخطاياه حتى يصبح بُعداً شبيهاً ببعد المشرق عن المغرب، وهنا تنقيَةٌ من الخطايا التي لامسها الإنسان تنقيَةٌ يتحقَّق بها الصَّفاء والنَّقاء، كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الدنس الذي يلامسه ويخالطه.

فإذا زادت مخالطة الإنسان لخطاياه فهي بحاجةٍ إلى أن تُغسل غَسلاً قويّاً بأنقى موادِّ الغَسل، وهل هنالك أنقى من الثلج النَّاصع الذي لا يخالطه دنس، والبَرَدَ النَّقي الذي يتساقط صافياً نظيفاً، والماء الذي هو وسيلة النظافة الأولى.

كلُّ هذه المعاني تجتمع في عبارات متناسقة بليغة عميقة الإيحاء

ومن الإيحاءات المهمة ما يتضمَّنه هذا الدُّعاء النبوي من إشارةٍ إلى نقاء الفطرة البشرية السليمة، فهي كالثوب الأبيض النَّقي، تظلُّ صافية حتى تخالطها خطايا الإنسان، ومن إشارة إلى سوء الخطايا التي هي دَنَسٌ يفسد الفطرة، كما أنه شيءٌ مكروه يرجو الإنسان المؤمن أن يكون بينه وبين ذلك الشيء ما بين المشرق والمغرب.

هكذا تتدفَّق أمامنا ينابيع الخير التي تحمل إلينا بشارةً بعد بشارة، وتجلب إلينا صلاحاً بعد صلاح.

❀ ❀ ❀

الغَدْرُ لا يأتي بخير

الغَدْرُ خداعٌ وخيانة، واعتداء على الحقوق في غفلةٍ من أصحابها، والغادرُ لا يرعى لأحد ذمَّةً، ولا يحفظ أمانة، ولهذا كانت صفة الغدر مذمومة عند الناس جميعاً، وكان للإسلام موقفه الصارم منها، نهياً عنها، وإنكاراً لها، وعقاباً لأصحابها، وحسبك تحذيراً من صفة الغدر أن الرسول ﷺ أخبر أنه يُنصب يوم القيامة لواء لكل غادر، ويُقال على رؤوس الأشهاد هذه غَدْرةُ فلان.

وهنالك موقف نبوي كريمٌ يؤكد لنا الرفض القاطع لهذه الصفة الذَّميمة، يرويه لنا المغيرة بن شعبة الثقفي ـ رضي الله عنه ـ فيقول:

عزم رجالٌ من بني مالك على زيارة مصر، والدخول على ملكها المقوقس، فعزمت على مرافقتهم، وقد كنتُ أبعد الناس يومئذٍ عن التفكير في اعتناق الإسلام، واستشرت عمي عروة بن مسعود الثقفي في خروجي إلى مصر مع القوم، فنهاني عن ذلك، وقال: أنصحك ألا تخرج مع غير بني أبيك، ولكنني خالفت نصيحته وخرجت مع القوم، وكنتُ معهم كواحدٍ منهم، فلمَّا وصلنا مصر، كان المقوقس في مجلسٍ له مطلٌّ على البحر، فاستأجرتُ زورقاً، وأبحرت به حتى مررت أمام المقوقس، فلما رآني سأل عني، وأرسل إليَّ من يسألني فأخبرتهم بخبري وخبر الرجال الذين كانوا معي، فلما أخبروا المقوقس أظهر الترحيب بنا، وأذن لنا بلقائه،

فلما حضرنا مجلسه نظر إلى رأس بني مالك فأدناه إليه، وأجلسه معه، ثم سأله: أكلُّ القوم من بني مالك؟ فقال: نعم، إلا رجلاً واحداً من الأحلاف، فعرَّفه إيَّايَ فكنت أهون القوم عليه، ووضعوا هداياهم بين يديه، فرحَّب بها وأمر بقبضها، وأمر لهم بجوائز، وفضَّل بعضهم على بعض، وقصَّر بي فأعطاني شيئاً قليلاً لا ذكر له، وخرجنا فأقبل القوم يشترون هدايا لأهلهم مسرورين، ولم يعرض عليَّ أحدٌ منهم مواساة، ثم عزمنا على الخروج من مصر، واشترى القوم خمراً ليشربوها في طريق سفرهم، فقلت في نفسي: يعود القوم إلى الطائف فيتحدثون ما نالوا من التقدير عند المقوقس، وما حصل لي من تقصيرٍ وازدراء منه لي، فأجمعتُ على قتلهم، فادَّعيت أنني أعاني من الصُّداع حتى لا أشرب من الخمر، وقلت لهم : أجلس وأسقيكم، فما زلت أسقيهم حتى أهمدتهم الكأس، فناموا لا يعقلون شيئاً، فوثبت إليهم وقتلتهم جميعاً، وأخذت جميع ما معهم، وانطلقت إلى المدينة قاصداً النبي ﷺ، وقد عزمت على الإسلام وإعطاء الرسول ما أخذت من مال القوم ومتاعهم، فلما دخلت المسجد وجدته جالساً عليه الصلاة والسلام مع أصحابه، وكانت آثار السفر بادية عليَّ، فسلَّمت بسلام الإسلام، فعرفني أبو بكر وكان بي عارفاً، قلت: جئت أشهد ألاَّ إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، فقال الرسول ﷺ: **الحمد لله الذي هداك للإسلام**، ثم أخبرتهم بخبر سفري إلى مصر، وقتلي للقوم، وما جئت به من أسلابهم، وطلبت من الرسول عليه الصلاة والسلام أنْ

يرى فيها راية، فقال: **أما إسلامك فنقبله، ولا نأخذ من أموالهم شيئاً؛ لأنَّ هذا غَدْرٌ، والغدر لا خير فيه**، فلما سمعت ذلك من رسول الله ﷺ أصابني همٌّ كبير، وقلت: يا رسول الله، إنما قتلتهم وأنا على دين قومي، ثم أسلمت حين دخلت عليكم الساعة، قال: **فإنَّ الإسلام يجبُّ ما قبله**، وأبى أن يأخذ من أسلاب القوم شيئاً.

الغدر لا خير فيه، ولا يأتي بخير لأصحابه أبداً، موقف إسلاميٌّ واضح مع أنَّ الرسول ﷺ كان بحاجةٍ إلى المال، وكان في حالةِ حَرْبٍ مع المشركين، وكان يعاني من مكائدهم ما يعاني، ولكنَّ الإسلام دين الهداية والوفاء والوضوح والرحمة، ودين الحقّ، فهو لا يقبل الغدر أبداً، ولا يُقِرُّ عليه أحداً.

وقد أشار المغيرة بن شعبة في قصته إلى أن ثقيفاً حينما علموا بما صنع برجال بني مالك، جهَّزوا أنفسهم للأخذ بالثأر، لأنه قتل منهم ثلاثة عشر رجلاً، ثم اصطلحوا على أن يحمل عروة ابن مسعود عم المغيرة ثلاث عشرة دية.

إنَّ صفة الغدر لا تتفق مع الخيريَّة التي شهد الله سبحانه وتعالى بها لهذه الأمة الوسط ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾، ولذلك كان الغدر بعيداً كل البعد عن أمةٍ ذات خيرٍ وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإيمانٍ بالله العليِّ القدير.

هذه المواقف المشرقة، المبشِّرة بالخير دائماً، إنَّما جاءت موافقةً لما شرع الله لعباده من تعاليم هذا الدين الكامل الشامل الصالح لكل زمانٍ ومكان.

أما قول الرسول ﷺ بعد أن سمع المغيرة ينطق بالشهادتين: «**الحمد لله الذي هداك للإسلام**» فإن فيه من إيحاءات الرحمة للأمة، والرأفة بالناس، والرِّفق بهم، والحرص على هدايتهم، ونجاتهم من النار، ما يجعل كل عبارةٍ للإشادة به صغيرةً عاجزة عن بلوغ الغاية..

«الحمد لله» اتجاه دائمٌ إلى الله، وتوجيهٌ صادق للحمد إلى من يستحقه، فهو الذي يهدي العباد، وينصر ويوفق «الذي هداك للإسلام» فالحمد هنا، لأن الله قد هدى هذا الإنسان إلى الحق، لا لأي غرضٍ من أغراض الدنيا، ولا عَرَضٍ من أعراضها.

ونحن نقول: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

يا أبناء الإسلام: بشِّروا بهذا الدين العظيم ولا تنفِّروا.

❀ ❀ ❀

ناقتان كَوْماوان

اخْرُجْ من سيطرة حبِّ الدنيا عليك، انظُر بعين بصيرتك إلى أفُق الخير الممتدِّ أمامك، لا تكن سجينَ أهواء النفس، وأسير

نزعات الشياطين، افتح صدرك للنسيم الصافي والهواء الطلق، عند ذلك تكون أسعد الناس.

هل معنى ذلك أن تتعطَّل عن الحياة، وعملك فيها، وعلاقتك بمن حولك؟ كلاًّ..

فإنَّ الزُّهد ـ كما قال الفاروق ـ لا يعني فراغ اليد من الدنيا، ولكنَّه يعني فراغ القلب منها.

هل تعرف قيمة الناقة السَّمينة المنجبة؟ هل تعلم أنها ذات أسعارٍ مرتفعة، قد تصل إلى ما هو أغلى ثمناً من أفخم السيارات التي يقتنيها أصحاب الملايين؟.

هل تعلم أنه بإمكانك أن تملك ما هو أثمن منها دون عناءٍ كبير؟ كيف؟

يقول لك الصحابي الجليل عقبة بن عامر رضي الله عنه: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة فقال: **«أيُّكم يحبُّ أن يغدو كلَّ يومٍ إلى بُطْحَانَ أو إلى العَقيق فيأتي منه بناقتين كُوْماوين في غير إثمٍ ولا قطيعة رحم؟** فقلنا: يا رسول الله نحبُّ ذلك. قال: **«أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيَعْلَمَ، أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجلَّ، خيرٌ له من ناقتين، وثلاثٌ خير له من ثلاث، وأربعٌ خيرٌ له من أربع، ومن أعدادهنَّ من الإبل؟»**.

ما أعظم هذا الأسلوب النبويَّ في التشويق، وما أجمل عبارتَه، وألْطَفَ مدخلَه، وأقربَه من القلوب.

سؤالٌ عن شيءٍ يحبُّه الإنسان، لا يختلف في حبه اثنان، ومن الذي يكره ناقةً أو ناقتين أو أكثر من ذلك من أجود النُّوق وأحسنها يحصل عليها دون عناء؟.

لقد كان جواب الجميع «نحبُّ ذلك».

وكان توجيه الرسول عليه الصلاة والسلام إلى عملٍ يسير لا يعجز عنه أحد إلاَّ من أصابه العجز والكسل، غُدوٌّ إلى المسجد في أوقات الصلوات، وتلاوة آياتٍ معدودات يحقِّق للإنسان خيراً من تلك النُّوق السِّمان غالية الأثمان.

الدنيا تأتيك صاغرةً حينما تكون من أهل الحرص على هذه الثروة الحقيقية التي وجَّه إليها الرسول ﷺ أصحابه.

ادخل إلى هذا العالم الجميل، وأدْخِلْ معك من تستطيع من الأهل والأصحاب، وقل لكل من تراه من اليائسين والبائسين بشِّروا ولا تنفِّروا.

❁ ❁ ❁

يا راكب القصواء

من شعري:

يا راكبَ القَصْواء، قولك صادقٌ
تمحو به قولَ الطُّغاةِ المُفْتَرى

انشـأتَ مـدرسـةَ النبـوَّةِ فـانبـرتْ
للجـهل، تهـزم فكرَه المتـحـجـرا
فـلأنتَ قـدوتُنا، بنيت لنا الهـدى
صرحاً منيعاً حين تنفصم العُرى
فـلأنتَ عـبـدالله، انتَ رسـوله
يرضـيك ان تُدعى بذاك وتُذكـرا

❁ ❁ ❁

تهاوت التماثيل

ما زلت أذكر ذلك اليوم الشتائي الذي حالت مواكب الضباب بينه وبين الشمس، فجاء يوماً قارس البرد شديد الأعاصير.

كنا في صبيحته ننتظر مع عددٍ من أهل القرية سيارةً واحدة لتقلنا إلى سوق الخميس في مدينة الباحة، وقد جلسنا جميعاً في جانب حائطٍ مبني من الحجر نتقي به لسعات البرد، وقد تَلَفْلَفَ كلٌّ واحدٍ بما عليه من الملابس وغطى معظم وجهه بعمامته، وضمَّ أعضاء جسمه إلى بعضها طلباً لشيء من الدِّفء لعله يخفِّف من الرَّعشة التي تصطك لشدّتها الأسنان.

ما زلت أذكر ذلك اليوم وقد جاء أحد رجال القرية وهو يقول: ضعنا، وضاع العرب، وضاع كل شيء، وقد بدا أثر الحزن في نبرات صوته الواهن، وسأله رجل آخر في مثل سنِّه الذي كان يقارب السبعين: ماذا جرى، خير إن شاء الله؟

قال: مات جمال عبدالناصر، مات رائد الأمة العربية، لن تقوم للعرب بعده قائمة، وسمعت عدداً من كبار السنِّ يحوقل بعد سماع الخبر.

وسمعت منهم جميعاً أحاديث لم تستوعبها قدرة الطفل الذهنية آنذاك، ولكنها كانت جميعاً تعبر عن انهيار الأمل بعد وفاةِ الرَّجل.

ومضت الأيَّام، ولم يضع أحد، بل كان الضياع صنيعة من صنائع ذلك الرجل، وحينما قرأت الأحداث قراءةً صحيحة بعد ذلك، عرفت كل شيء عن القومية العربية، وعن النَّاصرية، وعن المذيع الصارخ «أحمد سعيد» الذي كان يصوِّر النصر الحاسم في الإذاعة في الوقت الذي قد أنشبت فيه الهزيمة مخالبها في صدر الأمة على أرض الواقع.

وعلمت أن ذلك الرجل الأميَّ الذي حزن لوفاة الزَّعيم «التمثال» كان مخدوعاً، وتوالت الأيام بعد الأيام، ومضت الأعوام بعد الأعوام، وتماثيل الوهم، والديمقراطية الزائفة، تعلو وتهوي، ترتفع وتنخفض، والإذاعات لا تتوقف، مع ما ساندها من القنوات، والصحف والمجلات، وجميع وسائل التضليل والتخدير بكل ألوانها، وأطيافها، واتجاهاتها وغاياتها، مضى كل ذلك والأمة لم تجاوز ـ بالرغم من صحوتها ـ موقع الانخداع إلا قليلاً، ولم تتزحزح عن حفرةِ الوهم إلا خطوات قصيرة واهنة، وتزعزع تمثال آخر كبير

وظل يهتَزُّ حتى اقتلعه السَّيْل الجارف من أساسه، وشاشات القنوات تكرِّر المأساة نفسها عبر صوتٍ إذاعي آخر رسم للناس أجمل الخطط العسكرية، ووضع لهم النصر القومي البعثي في اليمين، وهزيمة الأعداء في اليسار، ثم حدث الانهيار، ليؤكد لنا أن الرحلة الزائفة من جمال إلى صدَّام، تساوي الرحلة الإعلامية المضلِّلة من أحمد سعيد إلى محمد سعيد الصحَّاف، وسبحان مقلِّب الأحوال!

والله لقد سمعت رجلاً كبير السنّ يقول: وا أسفاه فقد انهزم العرب اليوم بالقبض على بطل العراق، وسمعت آخر يقول: لا، لا يمكن أن يقبضوا على الرجل الذي يعرف كيف يواجه الأعداء.

قلت له: يا عَمُّ، أما زلتَ تعيش هذا الوهم، يا عمُّ، ارفع رأسك إلى السماء، ووجِّه إلى ربِّك الدُّعاء، ودع عنك التماثيل التي تتهاوى، فمن تعلَّق بالوهم ضاع.

وما النضال عند الذين تتعلَّق بهم آمال بعض الواهمين إلا أكذوبة كبيرة.

كيف تتحقق لنا البشائر، مع هذه الوقائع الجسام؟

البشائر موجودة، المهم أن تراها عيون البصائر، لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أوّلها.

رسالة بعد رسالة، أرجو، ثم أرجو، ثم أرجو أن تفهم الأمة جميعها بحكامها ومحكوميها معنى هذه الدروس العظيمة، وألاَّ

نرى أنفسنا نُلْدَغ من الجحر نفسه بعد أنْ لُدِغنا منه عشرات المرات.

لنكن على مستوى الإيمان الصحيح بالله؛ لأن المؤمن الصادق الذي يرى بنور بصيرته لا يُلدغ من جحرٍ مرتين.

مع كل هذا الأسى فلسان الحق يقول: بشّروا ولا تنفّروا.

❦ ❦ ❦

من المنزل يبدأ الاستبشار

منزل الرسول ﷺ مثالٌ حيٌّ للمنزل المستبشر؛ لأنَّه عامرٌ بطاعة الله عز وجلَّ وعبادته، ومشرق بطلاقة وجه صاحبه وابتسامته، ومطمئنٌّ بما يتردَّد فيه من القرآن الكريم وتلاوته.

منزل محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام متواضع الأثاث والرِّياش، خشن المعيشة قليل الفِراش، بعيدٌ عن مظاهر الزينة والتَّزويق، ولكنَّه منزل الهدوء والسعادة، والعيش الرَّغيد والرِّيادة، منزل الرَّاعي المشفق على رعيَّته، والزَّوج الودود المحسن إلى زوجته، منزل الذي يقول والابتسامة المباركة تضيء كلَّ ما حوله: **«خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»**.

منزل محمد بن عبدالله منزل المودَّة والمحبة، والرحمة والشفقة، منزل المناقشات العائلية المفتوحة القائمة على الثقة وحسن الظن والعشرة، وصفاء السَّريرة، منزل الحبِّ الكبير بين

زوجات صالحاتٍ قانتاتٍ، وزوجٍ مؤمنٍ بربِّه إيماناً أقوى رسوخاً من الجبال الراسيات.

من منزل (أبي القاسم) عليه الصلاة والسلام انطلقت تباشير الخير إلى كلِّ مكان، بالرغم من الحوادث الجسام، والهموم العظام، فهو منزل عامرٌ بالكلمة الطيبة، والعمل الصالح، والصَّدقة الجارية، والضِّيافة والكرم، والعزيمة والهمم، ورحابة الصَّدر، ونقاء النَّفس من أدران الحقد والحسد، واليأس والقنوط.

من منزل (أبي القاسم) عليه الصلاة والسلام خرجت إلى الناس قصص الحبِّ العائلي الصادق الكبير، وحكايات المودَّة والرَّحمة، والتآلف الذي ليس له نظير، وأحاديث الصِّدق التي ترشد التائهين، وتوضح الطريق للحائرين، من هذا المنزل المبارك انبثقت أنوار الحياة الزوجية التي لا مجال فيها للتعنُّت والقسوة ومصادرة الحرية والرأي، ولا مكان فيها للجحود والنكران، ولا موقع فيه للّهو والغفلة والانصراف عن عبادة الرحمن، الحياة الزوجية النبوية المضيئة بالحب الصادق، والعبارة الصافية النقية، والاحترام المتبادل بين أعضائها المؤمنين الطيبين.

الحياة الزوجية التي فتحت أبواب الصفاء والنقاء، والتفاهم والوفاء، وأغلقت أبواب الغيبة والنميمة وسوء الظن بالنَّاس، حتى صارت مثلاً أعلى للاستقرار العائلي المنشود، الذي تبدأ منه رحلة التفاؤل والنجاح في جوانب الحياةِ الأخرى.

من المنزل يبدأ الاستبشار بالخير، وتبدأ رحلات النجاح في العمل، والفلاح في السعي، والصلاح في القول والفعل، فالمنزل هو الواحة التي يستظلُّ الإنسان بظلال الحنان والمودَّة فيها منذ ولادته إلى أنْ يخرج منه إلى ميدان الحياة مقتدراً قويّاً، متعلِّماً عاملا.

إذا رأيت أطفالاً مؤدَّبين، صالحين، مستبشرين، يعزفون بصدى ضحكاتهم البريئة أجمل الألحان، وترتفع كلماتهم عن ساقط القول، وبَذيء الكلام، فاعلم أنَّ وراءهم منزلاً طيباً مباركاً، وولاةَ أمرٍ يحسنون في طريقة تعاملهم وتربيتهم لأولادهم إحساناً تبدو نتائجه واضحة في صورة أولادهم المشرقة التي يظهرون بها خارج بيوتهم.

«يا غلام سَمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك» عبارات تربوية جميلة، فيها توجيه كريم ممزوجٌ بروح المحبة التي لا تخفى على من يقرأ ما وراء العبارة، وملوَّنٌ بألوان المودَّة التي تراها عين البصيرة ألواناً زاهية بديعة، وفيها تربية هادئة ليس فيها من التشدُّد والقسوة والعَنَتِ والقول الغليظ المنفِّر شيئاً أبداً، وإنما فيها هذا الشعور الفيَّاض بالحب الكبير، العطف والمودة والتقدير.

من المنزل يبدأ الاستبشار، ويبدأ العطاء والبناء، وتبدأ رحلة الحياة الطيبة المباركة، فما أجمل أن يدرك الآباء والأمهات ذلك حتى يجعلوا من بيوتهم واحاتٍ ذات أشجار وثمار وأزهار، تجري فيها أنهار الحب والتفاهم والوئام.

كلماتٌ ملوَّنة

● من أدَّب ولده صغيراً سُرَّ به كبيراً، ومن أحسن أدب ولده، أرغم حاسده، وكبَتَ حاقدَه.

● قال عمرو بن العاص رضي الله عنه لأحد الدَّهاقين ـ والدِّهقان زعيم فلاَّحي العجم ـ: بم ينبُلُ الرجل فيكم، فقال: بترك الكذب فإنَّه لا يَشْرُف إلا من يُوثَقُ بقوله، وبقيامه بأمر أهله فإنَّه لا يَنْبلُ من يحتاج أهلُه إلى غيره، وبمجانبة الرِّيب فإنَّه لا يَعِزُّ من لا يُؤمَن أن يصادَفَ على سَوأة، وبالقيام بحاجات الناس فإنَّه مَنْ رُجيَ الفَرَجُ لديه كَثُرَت غاشيتُه.

إنَّ القيام بأمر الأهل من أهم الأعمال وأفضلها، لأنه أداءٌ لحق القرابة، (وحقُّ القرابة عظيم) وصلةٌ للرحم (وفي صلة الرحم من الأجر العظيم ما لا يخفى) وبناءٌ سليم لعقل الجيل القادم ونفسه (وفي هذا من الإحسان إلى هذا الجيل ما لا تقوم حياة الأمم إلاَّ به)، وإسهامٌ كبير في تكوين الأمَّة القوية القادرة على مواجهة الأعداء (وفي هذا من أداء الواجب ما لا يجوز التفريط فيه).

ولا يمكن أن نرى مجتمعاً بشرياً قائماً على صفات الصدق، والوفاء، والأخلاق الفاضلة، والتكافل، والشجاعة، والعلم، إلا إذا كانت المنازل فيه مؤدِّيةً لحقوق التربية السليمة، والتوجيه الصحيح لأولادها، وقائمةً على الحب بين أفرادها، وقد قيل في المثل: «إذا

أردتَ أن تعرف حالة الأمة في مستقبلها، فانظر إلى حالة الأطفال في حاضرها».

* * *

جوهرة الإخلاص

«من أصلح سريرتَه، أصلح الله علانيتَه»، هكذا تخرج الكلمات من مشكاة النبوَّة مضيئةً صافيةً نقيَّة، لأن سريرة الإنسان هي المصدر الأوَّل الذي تَستمد منه علانيتُه زادَها، فإذا صَفَت السريرة وصلُحَتْ، صفت العَلانيةُ وصلُحَتْ، ووصل ذلك الصفاءُ، والصلاح إلى الناس في صورةِ خيوطٍ من إشعاع الروح لا تُخفي تأثيرها في القلوب.

وهذا ما جعل لقمانَ الحكيم يقول لابنه في إحدى نصائحه الشهيرة:

احذرْ يا بُنيَّ واحدةً هي أهْلٌ للحذَر.

قال: وما هي؟ قال: إياك أنْ تُرِيَ الناسَ أنك تخشى اللهَ وقَلْبُكَ فاجر.

وحينما سأل طاهر بن الحسين أبا عبدالله المروزي قائلاً: كم لكَ منذ نزلتَ العراق؟ قال المروزي: منذ عشرين سنةً، ولكنني أصوم الدَّهرَ منذ ثلاثين سنة، حين ذلك قال له طاهر بن الحسين: رحمك الله أبا عبدالله، سألناكَ عن مسألة، فأجبتَنا عن

مسألتين؟! وكأني بطاهرٍ يريد أن ينبِّه الرجلَ إلى خطورة ما قال عن صيامه لأنه قد يحبط العمل.

يقول الشاعر:

وإذا أظهَرْتَ شيئاً حسناً
فليكُنْ أحسنَ منه ما تُسِرْ
فمُسِرُّ الخيرِ موسومٌ به
ومُسِرُّ الشرِّ موسومٌ بشرْ

❀ ❀ ❀

الوجه صفحة مقروءة

لا يمكن أن يكون الداعية أو العالم أو الحاكم على مستوى «بشِّروا ولا تنفِّروا» إذا كان يضمر غيرَ الخير، ولا يمكن لأحد يُضمر شرّاً أن يحولَ بين أصحاب البصيرة وبين قراءته في ملامح وجهه؛ لأن الوجه كتابٌ مفتوحٌ لما يُمليه القلب، وإنَّ الإنسان ليرى في تلوُّن وجوه بعض من يحدِّثهم ما يدلُّه على ما في قلوبهم، ومع ذلك فنحن مطالبون بإحسان الظنّ، وتوجيه النصيحة بأجمل العبارات وأكملها، وبأصدق مشاعر المودَّة وأنبلها.

❀ ❀ ❀

بشارة شعرية

من شعري:

إذا رَمَى الليلُ بظلمائه
فوق الروابي واعتزى بالرياحْ
واغتالَ آمالَ القلوب التي
تبحث عن نورٍ يداوي الجراحْ
وغيَّبَ البَدْرَ المنيرَ الذي
يسكبُ في الظلماء روحَ انشراحْ
وغوَّرَ الأنجُمَ حتى غدتْ
اضواؤُها مسكونةً بالكُساحْ
وحاصَرَ الأطيارَ في وَكرِها
حتى جفاها، أوجَفَتْه الصُّدَاحْ
ومدَّ رجليه على أرضنا
وظلَّ يستنزف صَبْرَ البِطَاحْ
إذا رأيتَ الليلَ مستوحشاً
يُتيح للأحزانِ ما لا يُتاحْ
يعلِّق الجوزاءَ في كفِّه
يخرق عينيه بأقسى الرِّماحْ

يُغْلِقُ أبوابَ الثريَّا التي

غنَّى بها الشِّعْرُ الغناءَ المباحْ

إذا رأيتَ الليل في زَهْوِه

وقد تعالى فيه صوتُ النُّباح

واستنسرتْ فيه البُغاثُ التي

يُعجبها في الليلِ خَفْقُ الجناحْ

وصار كهفاً مُرْعباً مظلماً

فبشِّر الدنيا بنور الصباحْ

❀ ❀ ❀

الأَحد

تأمَّل صورةَ العَدَدِ

فَمَنْ ينظُرْ إليه هُدي

كما الأعدادُ راجعةٌ

وإنْ كَثُرَتْ إلى الأحَدِ

كذاكَ الخَلْقُ مرجعُهم

لربٍّ واحدٍ صَمَدِ

❀ ❀ ❀

النَّصر قادم

أرى في وجوه الشباب، ومن هم في أوائل مرحلة الصِّبا من أبنائنا علامات استفهام حزينة مضطربة، وهم يرون واقع الحال، وقد سمعت منهم أسئلة كثيرة فيها إلحاح كبير: لماذا كل هذا يجري للمسلمين؟ كيف تستطيع دولة مثل دولة الصهاينة أن تبقى غُصَّةً في حَلْق أمة يصل عددها إلى مليار وثلث المليار من البشر؟ كيف تستطيع دولةٌ مهما كانت دولةٌ عظمى أن تحتلَّ دولاً إسلامية كبيرةً في أيامٍ قلائل؟

لماذا الهزيمة؟ كيف نستطيع نحن ـ الجيل الصاعد ـ أن نعرف موضع أقدام مستقبلنا في هذه الليالي الحالكات، والأحداث المدلهمَّات؟.

يا لها من أسئلة دامية أليمة مؤلمة! يا إلهي أسألك أن تفتح نوافذ الوعي في عقول رجال أمتنا ونسائها بالطريق الصحيح للنصر.

أحدهم قال لي ـ وهو شاب في سنِّ المراهقة ـ: هل تعلم أنني أقف منزعجاً أمام صورتين متناقضتين أصابتاني بالذهول؛ إحداهما: صورة عشرات الآلاف من النساء المسلمات في أنحاء البلاد الأوروبية يطالبن بالحجاب، وبإلغاء القانون الفرنسي الذي يمنع المرأة المسلمة من حجابها، ويرفعْنَ لافتاتٍ تحمل أقوى العبارات وأوضحها، وثاني الصورتين: صورة عددٍ من نساءٍ

مسلمات في عالمنا الإسلامي يقفْنَ أمام لاقطات التّصوير مبتسمات فَرِحَاتٍ بتخلُّصهنَّ من الحجاب.

يا للهول كيف أفهم الأمر، وأجمع بين الصورتين؟ أين الحقُّ، أهو هناك، أم هنا؟ أنقذونا إنْ كنتم تخافون الله فينا.

وحاولت أنْ اهدِّئ من ثورته، وأنْ أنقذه من أسباب حيرته، قلت له: هذا الاضطراب الذي تراه هو نتيجة طبيعية لمرحلةٍ سابقة لم تعرفها، ولم تَرَها، لقد فرَّط أهلك المسلمون فيما مضى، ونشأ ملايين الشباب في تلك المرحلة على مجموعة من المذاهب والأفكار الغربية والشرقية، سرقتهم من صفاء دينهم إلى غَبَش الضلالات والأهواء؛ فكانت مسيرةً مؤلمة قاسية، انتَ الآن أيها الفتى الحبيب ترى نتائجها، فلا تيأس، ولا تضطرب، واعلم أنَّ أمامك معالم بارزة للعلم النافع، والجدّ، والإخلاص، وعدم إضاعة الوقت فيما لا يفيد، والقراءة المتأمِّلة الواعية لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يجب أن تعلم أن وسائل الإعلام تُفرز أمامك الآن نتاج تلك الفترة المضطربة من الخلافات الحادَّة، والصراع الثقافي والفكري الساخن، والاتجاهات المتعاكسة بصورة تثير الحيرة والاضطراب، ولا خلاص من ذلك كلِّه إلا بسلوك طريق الخير.

اين طريق الخير؟

أبشرْ، أبشرْ، هو ممتدٌّ لم ينقطع منذ أن نزل قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

﴿الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. وقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

هنا أقف لأوجه النداء إلى ولاة أمر المسلمين وعلمائهم ومفكريم ومثقفيهم، وأصحاب الرأي والكلمة فيهم قائلاً:

اتقوا الله في هذه الأجيال، فأنتم والله مسؤولون عنها أمام ربكم، إنَّ العمل مطلوب في كل وقت، ولكنه في هذا الوقت أشدُّ إلحاحاً في الطلب، ولن ينفع ـ أبداً ـ الاستمرار في قصد مجاراة الآخرين ومسايرتهم طلباً لرضاهم، وأملاً في إيقاف حملاتهم المسعورة، إنما ينفع برنامج عملٍ حقيقي قويّ واضح ينبثق من عقيدة الأمة ومنهجها، مصاحب لما يفرضه الواقع من مجاراة ومسايرة تحول دون استمرار الصائل في صولته.

اتقوا الله في هذه الأجيال، وابشروا.

لا يُقِرُّ الرحمن هذا التجافي

فلمن تُخضعون حمر الرقابِ

* * *

تلوين

- أُرْتِجَ على خطيبٍ من الخطباء وهو على المنبر، فأخذ يكرِّر «الحمد لله» مرَّاتٍ كثيرة، فقال أحد الحضور: الذي ابتلانا بك.

- شَرُّ الخطباء مَنْ إذا خَطَب خَبَط، واللسانُ سَبُعٌ صغير الجِرْم، عظيم الجُرْم.

- قال إبراهيم بن المهدي: إياك والتّتبُّع لوحشيِّ الكلام، طمعاً في نيل البلاغة، فإنَّ ذلك هو العناءُ الأكبر، وعليك بما سَهُل، مع تجنُّبك ألفاظَه السُّفُل.

- قال مالك بن دينار: ربَّما سمعتُ الحجَّاجَ يخطب، يذكر ما صنع به أهل العراق، وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه، وأنَّه صادق، وذلك لقوَّة بيانه، وحسن تخلُّصه بالحجج.

- قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما لصُحار بن غيَّاث العبدي: ما تعدون البلاغةَ فيكم؟، قال: الإيجاز، قال: وما الإيجاز؟ قال صُحار: أنْ تُجيب فلا تُبطئ، وتقول فلا تُخطئ وسُئِل صُحارٌ هذا عن السجع، فقيل له:

ما السَّجع؟، قال: ما خفَّ على السمع.

قيل له: مثل ماذا؟، قال: مثل هذا.

- أيَّام النعمة ـ وإنْ طالت ـ قصيرة، والمتعة بها ـ وإنْ كثرتْ ـ قليلة.

والمعروف هو الذي يبقى، والعمل الصالح أبقى وأنقى.

- عن الزمخشري قال:

شَيْبَةُ الحمد هو: عبدالمطلب جدُّ النبي ﷺ، لقَّبوه بشيبة الحمد لأنه ولد في رأسه شعرةٌ بيضاء.

وقيل له «عبدالمطلب»، لأنَّ عمَّه المطّلب أردفَه على ناقته، ومرَّ به في سوق عكاظ، فسأله النَّاس:

مَن هذا؟ فقال: هذا عَبْدٌ لي.

فأُطلق عليه من حينها: عبدالمطَّلب.

● قال عليٌّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ :

إنَّ هذا القرآن هو الناصحُ الذي لا يَغشّ، والهادي الذي لا يُضِلّ، والمحدِّث الذي لا يَكذِب، وما جالس أحدٌ هذا القرآن إلاَّ قام عنه بزيادةٍ أو نقصان؛ زيادةٍ في هُدًى أو نقصٍ من عَمًى.

❀ ❀ ❀

وقفة مع حبِّ الوطن

يضطرب بعض الناس في تحديد موقفه من «حبِّ الوطن»، ويعتقد أنَّ حبَّ الوطن لا ينسجم مع حبِّ المبدأ، وشمولية النظرة إلى الكون والحياة والإنسان، وينظر إلى الذين يتحدثون عن حبهم لوطنهم نظرةً فيها شيء من استنكار، ويرى أنَّ «الوطنيَّة» دعوة حديثة أراد بها الاستعمار أن يفرق بين المسلمين، وأن يوجد الحدود والفواصل بينهم، وأن يضخِّم كلَّ وطنٍ في عين أهله حتى ما يرون سواه، وهكذا تصبح عاطفة الإنسان نحو وطنه مجالاً للشك في نظرته الشمولية، وعاطفته نحو إخوته في الدين في الأوطان الأخرى.

هنا يوجد خَلَلٌ واضح في نظرة هؤلاء الذين ينظرون إلى (حبِّ الوطن) بهذا المنظار السلبي، ويحكمون على مَنْ يعلنون حبَّهم لأوطانهم بهذه الأحكام الجائرة.

هنا يوجد خَلْطٌ كبير في ذهن بعض الناس الذين لا يعرفون الفرق الكبير بين (حب الوطن) والاتجاهات (الوطنيَّة) التي سعى الاستخراب الغربي إلى نشرها في بلاد المسلمين قبل سقوط الخلافة العثمانية وبعده، تحت شعار «فرِّق تسد» ومن هنا أصبحت كلمة (الوطنيَّة) مثيرة للاستنكار لارتباطها بما أشرنا إليه، وأصبح الحديث عن (حب الوطن) مثيراً لاتهام صاحبه بما أشرنا إليه.

أين تكمن المشكلة؟

تكمن المشكلة في وجود مبالغة كبيرة في جانبي الموضوع، فهناك من يتعصَّب لوطنه تعصُّباً يجعله رافضاً لكلِّ ما عداه، ويدعوه إلى احتقار من لا ينتمون إلى هذا الوطن احتقاراً يظهر في قوله وفعله.

وهناك من يبالغ في رفضه لحب الوطن و(الوطنية) مبالغة تجعله متَّهماً لكلِّ من يعبرٌ عن حبه لوطنه قولاً وعملاً بأنه متأثر بالدعوة إلى الوطنية بمعناها الضيّق المرفوض.

وتنشأ بسبب هذه النظرة الضيِّقة مشكلة لا مسوِّغ لها، يدركها أصحاب النظرة الموضوعية العادلة، الذين يعرفون المعنى الصحيح لحب الوطن.

وأقول: «حبُّ الوطن» مفروس في قلوب الناس وطبائعهم، ومشاعرهم موصولة بالأوطان التي ولدوا فيها، ونشؤوا فيها، مهما ابتعدوا عنها وفارقوها، وهذا الحبُّ مقبول، بل هو مطلوبٌ لعمارة الأوطان ورعايتها وحمايتها، وتحقيق الأمن والاستقرار لها، وفي القرآن الكريم إشارات واضحة إلى ذلك.

فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] ففي هذه الآية الكريمة نلاحظ أن الإخراج من الديار قد اقترن بقتل النفس، ولولا أن ديار الإنسان التي هي «وطنه» غالية عليه لما قرن بين تركها وبين القتل بهذه الصورة الواضحة.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾[البقرة: ٢٤٦] فالصورة هنا واضحة في بيان قيمة وطن الإنسان عنده، وفي إقرار حبِّه لدياره، وحرصه على وطنه، وتأنيبه والتثريب عليه إذا أساء إلى وطنه، أو أحدث فيه ما يفسد عليه أمنه واستقراره.

وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه حزن لخروجه من مكة المكرمة، وأنه خرج منها خروج المضطر الذي هرب بعقيدته ودينه، وأنَّه أوضح ذلك بقوله: **«ولولا ان قومك اخرجوني منك ما خرجت»**، وأنَّه ظلَّ عليه الصلاة والسلام طيلة السنوات التي قضاها في المدينة قبل فتح مكة، يتسقَّط أخبارها، ويُظهر أحياناً حنينه إليها وشوقَه إلى رؤيتها إذا سمع من أحد أخبارها.

وفي هذا الموقف النبوي الكريم ما يضع أمامنا ميزانًا واضحاً عادلاً في قضية (حب الوطن)، إنَّه ميزان العقيدة، فهي ـ بلا شك ـ حياة الإنسان ووطنه الأوَّل، وهي كل شيء في حياته، فلا يُقدَّم عليها أهل ولا وطن ولا نفس، فإذا تعذَّر على الإنسان المسلم أن يؤدي حقَّ عقيدته وعبادته في وطنه، وحورب في ذلك وأوذي، وعوقب على التزامه بدينه، أصبح لزاماً عليه أن يغادر ذلك الوطن مهما كان حبُّه له.

ولا يصح لأحد أن يجعل (حبَّه للوطن) أساس حياته، ووسيلةً للتعصُّب الأعمى الذي يجعله يحتقر الآخرين، إن هذا الميزان النبوي الدقيق هو الذي يجعل التوازن في علاقة الإنسان بوطنه منهجاً يحميه من الميل والشَّطَط، فلا يسرف في التقديس ولا يبالغ في الجفاء، وإنما ينظر نظرة موزونةً تبعده عن الإيغال في مجاهل الغلوِّ المذموم الذي لا يأتي بخير.

إنَّ الرؤية المتوازنة هي الطريق إلى الاستبشار بالخير في شؤون الحياة كلِّها، المادي منها والمعنوي؛ لأن الميل في رؤية الإنسان يقرِّبه من سوء الظن في كلِّ ما يعرض له من القضايا والمواقف، ويباعد بينه وبين حسن الظن، والتفاؤل، وإذا ساء ظن الإنسان ضاقت مداركه، وتضاءلت روح الأمل في نفسه، فأصبح نافراً منفِّراً، بعيداً عن طريق الاستبشار، والتبشير بالخير والصلاح.

❀ ❀ ❀

حول الوطن

● من علامات الرُّشْد أن تكون النفس إلى أوطانها مشتاقة، وإلى مولدها توَّاقة. (أعرابي)

● يتروَّح العليل بنسيم أرضه، كما تتروَّح الأرض الجدبة ببلَلِ المطر. (جالينوس)

● يُداوى كلُّ عليلٍ بعقاقير أرضه، فإنَّ الطبيعة تنزع إلى غذائها. (بُقراط)

● **نقّل فؤادَك حيث شِئْتَ من الهوى**
ما الحبُّ إلاَّ الحبيب الأوَّل
كم منزلٍ في الأرض يألَفُه الفتى
وحنينُه ابداً لأوَّل منزلِ

(أبو تمام)

❀ ❀ ❀

المطيَّة التي لا تتأخَّر

تختلف المطايا في قوتها وقدرتها على السير، وسرعتها وبُطئها، وهذه المطيَّة لا تتعب ولا تكلّ، ولا تتراجع ولا تَمَلّ، ولا تبطئ ولا تتأخر، فهي دائمة المسير، تحمل الصغير والكبير، وإنَّما يغفل عنها مَنْ لا يعرفها، أو يعرفها ولكنه ينصرف إلى غيرها من المطايا الواهنات.

يعرِّفنا بها عمرو بن عتبة ـ رحمه الله ـ فيقول: «كان أبونا لا يرفَعُ المواعظ عن أسماعنا، فأراد مرَّةً سفراً، فقال: يا بَنيَّ، تألَّفوا النِّعَمَ بحسن مجاورتها، والتمسوا المزيدَ فيها بالشكر عليها، واعلموا أنَّ النُّفوسَ أقبلُ شيء لما أُعطيَتْ، وأعطى شيء لما سُئلت، فاحملوها على مطيَّةٍ لا تُبطئ إذا رُكِبَتْ، ولا تُسبَقُ وإنْ تُقُدِّمَتْ، عليها نجا مَن هرب من النار، وأدرك من سابَقَ إلى الجنَّة؛ فقال الأصاغر من الأبناء: يا أبانا، ما هذه المطيَّةُ التي ذكرتَ؟ قال: التوبة».

مطيَّةُ التَّوبة هي التي توصِّل راكبها إلى النجاة، تسير به في كلِّ الأوقات؛ حينما تشتدُّ غياهب الظلام، ويغيب عن دنياهم النِّيام، وحينما تشرق الشمس مع تباشير الصباح، وتستقرُّ في كبد السماء مع شدَّة قيظ الظهيرة، وتغرب مع احمرار الأفق بلون الشَّفق.

مطيَّةٌ لا يصدُّها صقيع الشتاء، ولا صفير الرِّياح وزَمْزَمات الأعاصير، ولا يردُّها لهيب القيظ حينما تشتدُّ حمارَّةُ الظهيرة في يومٍ صيفي ملتهب، مطيَّة التوبة لا يعجزها جبل شامخ ولا يصدُّها طريق وَعْرٌ، ولا يخيفها منحدرٌ سحيق، فهي جاهزة للراكبين، لا يَنزل عنها رَحْلُها، ولا تُناخُ في مراحٍ أبداً، بل هي واقفةٌ تنتظر الراحلين إلى حدائق التوبة الغناء، وبساتين المغفرة الخضراء، سهلة القياد، لا تعرف نِفاراً ولا شِراداً، ولا تَحرِنُ كما تحرن المطايا التي يعرفها الناس.

هذه هي المطيَّةُ التي لا تتأخَّر بصاحبها عن غايته، ولا تصرفه عن هدفه، ولا تكلِّفه شيئاً من حُطام الدنيا.

ولا بأس أن نعود إلى مقالة عمرو بن عتبة لنقف وقفة المتأمِّل عند قوله: «كان أبونا لا يرفَع المواعظَ عن أسماعنا» فسوف نجد في كلمة «لا يرفَع» إضاءةً تربوية إسلامية تضيء للآباء طريق التربية المستقيم، فهذا الأبُ حريصٌ على رعاية آبائه؛ لأنه يريد لهم النجاة يوم يقوم الناس لرب العالمين، فهو دائم التوجيه لهم، والوعظ الذي يقرِّبهم من ربِّهم، فكلمة «لا يرفع» كناية عن متابعتهم المتكررة بالنصيحة والتوجيه والموعظة الحسنة، ودليلنا على أنها موعظة حسنة، هذه النصيحة التي نقلناها قبل قليل، فهي ليِّنة العبارة، رقيقة الإشارة، تحمل من روح الحرص، والمحبَّة على الأبناء ما لا يخفى على قارئها، إنها نصيحة الأب الراعي الذي يعلم أنَّ الله سيسأله عن رعيته يوم القيامة، ويدرك بإيمان، معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾. فهو لذلك لا يكاد يتوقف في كل وقتٍ مناسب عن إتحاف أبنائه بالمواعظ المؤثِّرة، التي ترشدهم في دروب الحياة.

رسالة إلى كلِّ راعٍ لعلَّه يدرِّب رعيّته على ركوب تلك المطية التي لا تتأخَّر.

ما كلُّ مَنْ ذَرف الدمع الغزير بكى

قد يذرف المرء دَمْعَ العين تَمويها

* * *

زينب بنتُ حُدَيْر وشُرَيْحٌ القاضي

قال شُريح: انصرفتُ من جَنَازةٍ ذاتَ يومٍ مُظهرا، فمرَرتُ بدارٍ لرجلٍ من تميم، فإذا امرأةٌ جالسة على وسَادةٍ في سقيفة، وأمامهَا فتاةٌ لها ذُؤابةٌ على ظَهرِها، فاستسقَيتُ، فقالت: أيُّ الشَّرابِ أعَجَبُ أليك؟،قلت: ما تيسَّر، فأمَرت لي بقَدَحٍ من اللبن، فشربتُ اللَّبَنَ، ثم قُلتُ لها: مَنْ هذه الفتاة؟ قالت: ابنتي، قلتُ: ومن أيِّ البيوتِ هيَ؟ قال: هي زينَبُ بنتُ حُدَيرٍ من تَميم، قلتُ: أفارغةٌ هيَ أم مشغولة؟ قال: بل فارغة، قلت: أتُزوِّجُنيها؟ قالت: إنْ كُنتَ كُفُواً لها فنعم، وإنَّ لها عَمَّاً في مكان كذا فاقصِدْه.

قال شُريح، فتركتُ القَيلُولَة، واتَّجهتُ مع بعض أصحابي إلى عمّها، فرحَّبَ بنا أجملَ ترحيب، وذكرتُ له حاجتي فقال: ما بها عنك رغبةٌ، ولا بك عنها مَقْصَر، وإنَّك لَنُهزَة، فزوَّجَني وباركَ لي، ثم نهضنا.

فلمَّا بلغْتُ منزلي نَدِمتُ على العَجَلَة، وقلت: وَيحي لقد تزوَّجتُ من أغلَظِ العربِ وأجفاها، وهَمَمتُ بالطَّلاق، ثمَّ عَزَفتُ عنه، وأقبلوا بها إليَّ بعد أيَّام، فلمَّا ذهب الناسُ قلتُ لها: إنَّ السُّنَّة أن نصليَ ركعتين ونسأل اللهَ خيرَ ليلتنا، ونعوذَ به من شرِّها، قالت: نعم، ثم قالت: يا شُريحُ، أنتَ عني غريبٌ لا أعرف أخلاقَك، فأخبرني بما تُحِبُّ وما تكره، فعظُمَتْ في نفسي، قال شريح: واللهِ ما مرَّ بي يومٌ إلا وهو مَعَها أفضلُ من سابقه، وقد رأيتُ أثر ذلك

جليّاً في تعامُلي مع الناس، وما حَصَل بيننا خلافٌ يُذكَرُ، إلا أنني عاتبتُها ذاتَ يومٍ حينما وضعتُ إناءً على عَقربٍ وقلت لها: لا ترفعيه حتى أعود من صلاتي فأقتلها، فرفعت الإناءَ فلدغتها العقرب، وقد سمعتُ جاري يضرب زوجتَه ذاتَ يومٍ، فَعَجبتُ لذلك وغَضِبتُ وقلت:

رأيتُ رجالاً يضربون نساءَهم
فشَلَّتْ يميني يومَ أَضربُ زينبا
أأضربُها في غير جُرمٍ أتت به
إليَّ، فما عُذْري إذا كنتُ مذنبا؟

❦ ❦ ❦

صَدَمَتني أخلاقُ المسلمين

أهمُّ ما جَذَبني إلى الدين الإسلامي العظيم أنني رأيت المسلمين لا يتركون دينَهم وإنْ تركوا أخلاقَهم الإسلامية وأهملوا، في الوقت الذي لا يجد أيُّ مسيحيٍّ فيه حَرَجاً من ترك دينه كلّياً، وهذا ما شجّعني على القراءة المكثّفة عن الدين الإسلامي، حيثُ وصلتُ إلى قناعة تامّة أنّه الدِّينُ الصحيح، وبدأتُ أجرِّب الإسلام عمليّاً، وانضَمَمتُ إلى جيراني المسلمين في صيام شهرِ رمضانَ المبارَك، واختزلتُ من استهلاكي للكحول ولحم الخنزير، ولبستُ الحجاب، وقد رأيتُ معظمَ زملائي المسلمين يُبدُونَ اندهاشَهم لذلك، ويثبِّطون همَّتي بحجة أنَّهم في أوروبا.

وإني أحـمـدُ الله أنني عـرفتُ الإسـلامَ واقـتنعتُ به، قَـبلَ أن أعـرف تلك الأخـلاقَ السـيِّـئـةَ عندَ بعضِ المسلمين، من الحَسَـد، والغِيَبَـةِ والنَّميمـة، وارتكابِ بعضِ الكبائر، وإلاَّ لصَـرَفني ذلكَ عن الإسـلام.

إنَّ كثيـراً من المسلمين فـي ألمانيـا، وأوروبا وأمـريكا، لا يعبِّـرون عن الإسـلام تعبيراً جيّداً في سلوكهم وأخلاقهم.

لقد صَدَمَتني أخـلاقُ المسلمين، عرفتُ أسـرارَ ضَعفهم بعد أن أسلمتُ، هذا مـا قـالته المسلمة الألمـانيـة «آنيـا زويتـا» في لقـاءٍ طويل أجرتْه معها مجلة (المستقبل الإسـلامي) الصادرة عن الندوة العالمية للشبـاب الإسـلامي.

هـل نتــســاءَل: لماذا يحـــدث هـذا من بعض المسلمين أو من أكـثـرهم، كـمـا يرى بعض المتـابعين لحـالتـهم في العـالم العـربي والإسـلامي، وفـي أنحاء العالم الأخرى.

وإذا تسـاءلنا لمعـرفـة الجـواب الموضـوعـي الهـادف، فـمن الذي سيجيب؟

يقـول الله تعـالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لا يُنقـصكم من أعمـالكم شيـئـاً، بل يحـفـظهـا لكم ويجـزيكم بهـا أوفـى الجـزاءِ في الدنيـا والآخـرة، إنهـا طاعة الله ورسـوله، فهـي المنقذ من حالة الضعف.

اللـه يملك أمـرَ الناسِ فـاتّجـهـوا
إليـــه يـدفـــعكم عـــزمٌ وإصـــرارُ

❁ ❁ ❁

العلم وشجاعة الرأي

إنَّ تلقينَ العلم للأجيـال دون تدريبٍ لهم على تطبـيـقـه في الحياة لا ينفع الأمة نفعاً كبيراً؛ لأن تحويل (المعلومة) التي نتلقاها إلى واقع نـعـيـشـه مَطْلَبٌ شـرعي وحضـاري، بل إن المعلومـة تظلُّ عـديمة الفـائدة إذا بقيت في ذاكـرة الإنسـان يقـولها مـتى دعت الحاجة إليها، ولم تصبح جزءاً من حياته وسلوكه.

لم يكن عَبَثاً ما نقلته لنا سيـرة الرسـول ﷺ وأصحابه الكرام من مجالس التدريب على العمل، فجميع مجالسهم كانتْ ميادينَ تدريب علمي، وتـزكيةٍ روحية، تُعقد فيها دورات تدريبية متطوِّرة تحت شـعـار: «تعـال بنا نؤمنْ سـاعـةً»، وهو شـعـار عـملي تدريبي عظيم، فقولهم: تعال بنا نؤمن، يؤكد ما ذهبنا إليه، فهي جلسـات تدريبية لتطبيق العلم، وإعطاء النفس دَفعةً قويةً للعمل، ولو كانت المسـألة مقصورة على المذاكـرة العلمـية المجـرَّدة لقـالوا: تعـال بنا نتناقش ساعةً، أو نتذاكر ساعة، ولكنَّ الأمر يتجاوز ذلك إلى ما هو أهمّ؛ ألا وهو رفع درجة الإيمان بالله في القلوب ليتسنَّى لصاحبه التطبيق العملي لما يعلمه.

ولذلك كانت شجاعة الرأي من أهم الصِّفات التي تميَّز بها أصحاب رسول الله ﷺ والأجيال التي نشأت في كنفهم، وحظيت بتربيتهم؛ لأن الرسول ﷺ كان يشجِّعهم على ذلك، فلا قداسة لرأيٍ أو قولٍ لأحدٍ من البشر ما عدا الرسول الكريم ﷺ؛ لأنه كان لا ينطق عن الهوى، وكان يستقبل الوحي من السماء ويبلِّغه للناس.

إنَّ قراءتنا لسيرة أولئك الرجال تؤكد لنا حرصهم جميعاً على تعليم أولادهم العلم النافع، وعلى تدريبهم على التطبيق والعمل، والشجاعة في الإدلاء بالرأي دون خوفٍ من الخطأ؛ لأن البشر جميعاً معرَّضون للأخطاء.

ولأن الرسول ﷺ حريص على تربية المسلمين على شجاعة الرأي شجاعةً قائمة على تعلم ومعرفةٍ وبصيرة، فقد أتاح لهم هذا المجال بصورة رائعة.

حينما نزل دون الماء في بدر أشار عليه الحباب بن المنذر بالتحوُّل إلى ما بعد الماء، لكنَّ الحباب لم يطرح رأيه إلا بعد أنْ تأكد أن هذا المنزل الذي نزل فيه الرسول ﷺ ليس مرتبطاً بوحي من الله وتوجيهٍ منه سبحانه لنبيِّه؛ لأنه لو كان كذلك لما عاد هنالك مكان للرأي البشري، وعندما تأكَّد للحباب أنَّ هذا الأمر مفتوحٌ للاجتهاد والرأي الأصوب أشار على الرسول ﷺ برأيه الذي ينسجم مع الحرب والمكيدة، فاستجاب الرسول ﷺ لهذا الرأي الحصيف، وكان رأيَ خيرٍ على المسلمين.

من هنا كـان لزامـاً علينـا أن نربِّيَ أنفسنا وأولادنا على هذه الشجاعة المحمودة في طرح الرأي، والاعتراض الواعي، والمناقشة الهادفة، ولكنَّ ذلك كلَّه مشروط بالحكمة، والعلم، والمعرفة؛ لأنَّ طرح الآراء دون دراية ومعرفة يصبح كالتراشق بالحجارة يُدمي ولا يفيد.

إنَّ التطبيق الواعي للعلم والمعرفة يمنحنا قوَّة وقدرةً فائقة على إدارة الحياة إدارةً صحيحة، ويجعلنا أصحاب شجاعةٍ أدبيَّة في طرح آرائنا دون خوفٍ من معارضة معارض، أو نقد ناقد، فليست المعارضة جُرماً، وليس النقد عملاً مخيفاً يجب علينا أن نتحاشاه.

لقد كان الرسول ﷺ يعلم أصحابه معنى الصلاة وأحكامها، ويطبِّق ما يعلمهم في مسجده حين يصلِّي بهم، وكان يعلمهم الصبر، ويطبق ذلك معهم في ميادين الجهاد، ويعلمهم الصدقة، ويطبقها معهم في مسجده كلَّ يوم.

ويقول له الشاب الجلد: إني أستطيع أن أعمل كلَّ ما يوجبه الإسلام من الفرائض، واجتنب كلَّ ما ينهى عنه من النواهي إلا الزِّنا.

ويستقبل الرسول ﷺ هذا الاستثناء الذي أغضب الصحابة الحاضرين بصدره الرحب وحلمه، وسعادته بالتوجيه، ويقرِّب إليه الفتى، ويسأله أسئلةً لها علاقة بمحارمه وتكون النتيجة اقتناع ذلك الشاب، ووعده القاطع بعدم الوقوع فيما طلب الاستثناء فيه.

إنَّ موقف الرسول ﷺ هذا يضع أسساً متعدِّدة للتربية الإسلامية الصحيحة، ففيه تشجيع على الصراحة حتى لا تنطوي النفوس على الشرّ، وفيه توجيهٌ إلى ضرورة قدرة المربِّي والموجِّه وولي الأمر على الاستيعاب واستقطاب الناس بانشراح الصدر والتوجيه والنصح قبل التأنيب والعقاب، وإنما يكون العقاب بعد استنفاد الجهود الأخرى.

رأيٌ يحترم في مجلس محمد ﷺ، وشجاعة أدبيَّة تبعث على الغبطة والإعجاب في سيرته وسيرة أصحابه الكرام.

إننا بحاجةٍ ماسة في زماننا هذا إلى ترسيخ هذه القيم العظيمة التي تبني الشخصيّة بناءً قوياً.

تلوين

● من حكماء العرب المعدودين عامر بن الظَّرِب العَدْواني، كان صاحب فهمٍ، ومعرفة بحكم ما يصل إليه من القضايا، فلما طَعَنَ في السنّ، حيث بلغ من العمر عِتيًّا، ويقال إنه بلغ ثلاثمائة سنة، وأحسَّ أنه لم يعد قادراً على استيعاب الأمور كما كان من قبل قال لأولاده: إنه قد كبرت سني، وعَرَض لي سَهوٌ في الأمور، فإذا رأيتموني خرجت عن الصواب فاقرعوا لي المِجَنَّ بالعصا حتى انتبه، وفيه قيل المثل: «إن العَصَا قُرِعَتْ لذي الحلم»، يُضْرَب لعدم استغناء العاقل عن المشورة والتَّنبيه.

يقول عامر:

تقـــول ابنـتي لمّا راتني كـــأنني
سليمُ أَفَـاعٍ، ليلُه غـيــرُ مُـودَعِ

ومـا الموتُ أفناني، ولكن تتـابعَت
عليَّ سِنونَ من مَـصـيفٍ ومَـربَعِ

ثلاثُ مِـئينَ قـد مَـرَرنَ كـوامـلاً
وهـا أنـا هـذا أرتجـي مَــرَّ أربَـعِ

فاصبحتُ مِثْلَ النَّسر طارتْ فِراخُه
إذا رام تَطيَـاراً يُقـال لـه: قَـعِ

أخبِّر أخبـار القـرون التـي مضَتْ
ولا بُدَّ يومـاً أنْ يُطارَ بمصـرعي

يقول الشاعر المتلمِّس، وهو خال الشاعر طَرَفة بن العبد.

لذي الحِلْمِ قَبْلَ اليوم ما تُقْرعُ العصا
ومـا عُلِّم الإنسـانُ إلاَّ ليَـعلمَـا

يشير بذلك إلى عامر بن الظَّرِب.

● من آداب الحـديث مع أصحـاب الأقـدار مـا روي من أنَّ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، قال لسعيد بن مُرَّةَ الكندي: ألنتَ سعيد؟ قال: أمير المؤمنين السعيد وأنا سعيد بن مُرةَ.

● يقول الشاعر:

إنَّ حُــسنَ اللقــاءِ والبِــشْــر ممّا
يـزرع الـودَّ فـي فـــــؤاد الـكـريم

وهـمـا يزرعـان يومـاً فـيـومـاً
أســوأ الـظـنِّ في فــؤادِ اللئــيمِ

❀ ❀ ❀

قِطَطٌ وفَأْر

قال ذو الإصبع العدواني:

كل امــرئٍ راجعٌ يومــاً لشـيـمـتـه
وإنْ تـخـلَّق أخــــلاقــاً إلى حينِ

وقال كثيِّر عَزَّة:

ومَن يبتدع ما ليس من خِيمِ نفسه
يَدَعْه ويغلبْه على النفس خِيمُها

وقالوا:

كان في دولة فارسَ ملكٌ حصيفٌ له وزيرٌ حازمٌ مجرِّب، وكان الملك يَكِلُ إلى وزيره شؤوناً كثيرة، ويَصدُر عن رأيه في عظام الأمور، فما يرى إلاَّ اليُمنَ والخيرَ في مشورته ورأيه، ثم إنَّ ذلك الملك هَلَكَ، وقام بعدَه وَلَدٌ مُعجَبٌ برأيه مغرورٌ بنفسه، مستبدٌّ في

حكمه، فلم يُنزل ذلك الوزير الحازم منزلته، ولم يلتفتْ إلى تجربته وخبرته، فقيل له: إنَّ أباك كان لا يقطع رأياً دونه، قال: كان أبي يغلَطُ فيه، وسأمتحنه بنفسي لأكشف لكم حاله؛ فأرسل إليه ذات يومٍ، وسأله: أيُّهما أغلَبُ على الرجل، أدبُه أم طبيعته؟

قال الوزير، بل الطبيعة أغلَبُ؛ لأنها أصلٌ وجبلَّةٌ، والأدب فرعٌ مكتسَب، وكل فرعٍ يرجع إلى أصله، قال الملك: سنرى.

ثم إنَّه أمر بتدريبِ عددٍ من القطط على حمل الشموع في مجلسه، فلما تَمَّ تدريبها، دعا بسُفرةِ طعامه على ما هو معهود، ثم طلب القطط، فأقبلت بأيديها الشموع، فوقفت حول السُّفرة، فقال للوزير ضاحكاً: أرأيتَ خَطأك وضَعْفَ مذهبك، وسوء تقديرك، متى كان أبو هذه القطط حاملاً للشموع، ألا ترى كيف أصبح الأدب غالباً على الطبع؟ فسكت عنه الوزير، وقال: لديَّ جوابٌ عن سؤالكَ سأفصح عنه في الليلة المقبلة، قال الملك: نعم، وضحك بعض الحضور من حال الوزير، فخرج الوزير، وقال لغلامه: التمس لي فأراً، واربطْه في خيط وجئني به، فأتاه الغلام به، وحينما حان موعد ذهابه إلى مجلس الملك، عقده في قطعة قماشٍ ووضعه في كُمِّه، فلما حضرت السُّفرة، أقبلت القطط بالشمع حتى حفَّتْ بها، فأخرج الوزير الفأر وألقاه أمامها، فرمت القطط بالشموع وتسابقت إلى الفأر، حتى كاد البيت يضطرم عليهم ناراً، قال الوزير: كيف رأيت أيُّها الملك غَلَبَةَ الطبيعة على الأدب، ورجوع الفَرْع إلى الأصل؟ قال الملك: صدقتَ وأحسنتَ، وأحسن أبي حين جعلك له وزيراً وقرَّبك، ثم إنه أعاد الثقة إليه وجعله أقرب رجال دولته منه.

وقديماً قالوا: لا يمكن للشجرة المُرَّةِ أن تنتج ثَمَراً حُلْواً، ولو طُلِيَتْ بالعسل.

ولا شك أن مثل هذا الوزير في حكمته وخبرته جديرٌ بأن يكون قريباً من وليّ الأمر حتى يشير بما يُصلح الأحوال، ويوجّه إلى ما يحافظ على الأمن والاستقرار، فإنّ لبِطانةِ الرجل من الهَيمنةِ عليه، والتأثير فيه ما لا يمكن لأحد الخلاص منه، وقد روي عن هارون الرشيد ـ رحمه الله ـ أنه قال: الخليفة يُدير شؤون الدنيا، ويُدير شؤونه ذوو الرأي والخبرة من رجاله، فكم من ملك يملكه رجلٌ من خاصَّته يأمره وينهاه، ولعل ذلك هو السبب في التوجيه النبوي الكريم بأن يدعو الناس لوليّ الأمر بالبطانة الصالحة التي تذكره إذا نسي، وترشده إلى الرأي الأفضل، والحكم الأعدل، أما موضوع غلبة الطبع على الخلُق المكتسب فهو أمر صحيح، ولكنه ليس أمراً لازماً لا مناص منه، فلربما قوَّمَ الأدبُ طبع الإنسان تقويماً ثابتاً يتحوَّل إلى طبع، أو ما يشبه الطبع، فإنَّ العِلمَ بالتعلُّم ، والحِلْمَ بالتحلُّم، والإنسان يمتاز عن الحيوان بالعقل الذي يستوعب به التقويم والتأديب، فليست القططُ التي رَمَت الشموع، وعادت إلى طبعها بملاحقة الفأر، دليلاً قاطعاً على حدوث مثل ذلك عند الإنسان الذي يستطيع أن يحكم حكماً صحيحاً على الأشياء ونتائجها بما منحه الله من عقلٍ وإدراك.

* * *

آداب

● قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: لا تُمارِ فقيهاً ولا سفيهاً، فإنَّ الفقيه يغلبك، والسفيه يُؤذيك.

● خطب الحسن بن علي رضي الله عنهما في دَمٍ، فأجابه صاحب الدَّم: قد عَفَوْتُ عن القاتل، ووضعت ذلك الدَّم لله ولوجوهكم.

قال له الحسن: ألا قلت: قد وضعتُ ذلك للهِ خالصاً.

● قال عبدالملك بن مروان ـ رحمه الله ـ:

ثلاثة لا ينبغي للعاقل أن يتسخفَّ بهم:

العلماء، والسلطان، والإخوان.

فمن استخفَّ بالعلماء أفسد دينه.

ومن استخفَّ بالسلطان أفسد دنياه.

ومن استخفَّ بالإخوان أفسد مروءتَه.

❀ ❀ ❀

من شرفة التأمُّل

قفْ معي على شُرْفة التأمُّل، واقرأ معي تلك العبارات المنقوشة على حائط الواقع المعاصر الذي تعيشه أمة الإسلام، وإيَّاك أن تنزعج انزعاجاً يُوقعك في اليأس من القيام بعد العثرة،

والاستقامة بعد الانحراف، فنحن هنا في واحة الاستبشار التي لا مكان فيها للمنهزمين اليائسين.

هيا نقرأ:

ـ **بُعد عن الله تعالى:** ضعف التديُّن عند كثير من المسلمين، صلاة بلا خشوع أو ناقصة الخشوع، عدم استشعار عظمة الله عز وجل حينما ينطقون بالركن الأول من أركان الإسلام وهو (الشهادتان)، زكاة متراكمة بلا عطاء، أو بعطاءٍ ناقص، صيام ناقص، أو إهمالٌ للصيام، أو صيام بالعادة، وتفريغٌ للصيام من معانيه العظيمة ـ في شهر رمضان تعرض على الناس في معظم الوسائل الإعلامية موادٌّ إعلامية مناقضة لروحانية الصوم.

حَجٌّ بالعادة، أو لأغراضٍ أخرى تخرج بالحج عن معناه الصحيح، تجارة قائمة على الغشّ، سرقة وخداع لأموال الحجَّاج، تزاحم وصراعٌ دمويٌّ قد يصل إلى درجة أزهاق الأرواح، عدم إحساس بأهمية تطبيق «**لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج**».. ضعف التدين سوسٌ ينخر في جسد الأمَّة.

ـ **فرقة وشتات:** تناحر، خلافات، تحاسد وتباغض، غدرٌ وخداع، ممالأة للأعداء على الأهل والأصدقاء، جنسيات متفرِّقة، حدود سياسية صارمة، سبابٌ وشتم واغتيابٌ للأقربين.

ـ **مَيْلٌ إلى اللهو والعبث:** حياةٌ منزلية لاهية، قنوات، مواقع، شاشات، غناء، رقص، أفلام، فتيانٌ يتمايلون كالفتيات، فتيات

مسترجلات، لقاءات مختلطة محمومة، غربةٌ عنيفة للأخلاق، وحشة مؤلمة للفضائل، شهوات تحرق أرواح أصحابها وعقولهم، وتُلقي بهم في الأوحال.

ـ **تربية هشّة:** آباء وأمهات مشغولون عن أولادهم، أوقات للأسرة مُهْدَرَةٌ ضائعة، أولاد كالقطعان التائهة لا يدركون عواقب لهوهم، تدليلٌ للأولاد، وتلبية لكل ما يطلبون، أبٌ يغيب أكثر مما يحضر، وأمٌ مشغولةٌ بالأزياء والمكالمات الهاتفية، والمناسبات المختلفة عن أولادها، والنتيجة: أجيالٌ تائهة لا تعرف ماذا تريد.

ـ **تبعيّة للأعداء:** في العقائد، والأفكار، والآداب، والثقافات، والسياسة، ضعف في الهمة، هبوط في العزيمة، قَتْلٌ للطموح، وتحطيم للمواهب، شعور بالانهزام أمام تفوّق الأعداء، قُطعانٌ سائبة تغير عليها الذئاب متى تشاء.

ـ **غَبَشٌ في الرؤية للأحداث:** تساؤلات حائرة، أين الحق والصواب؟ ما حقيقة ما يجري في هذا العالم؟ كيف ننقذ أنفسنا من طوفان الأعداء؟ لماذا نرى ونسمع ولا ندري عن الأسباب؟ هل نحن على حق؟ هل أعداؤنا على حق؟ هل يمكن أن نرى الأشياء على حقائقها، ضباب كثيف، وغبارٌ يكاد يسدُّ الأفق، أين الطريق؟.

ـ **تَرَفٌ قاتلٌ، وفقر مميت:** أين التكافل الاجتماعي؟ أين متابعة أحوال المحتاجين؟ أسئلة حائرة أمام أثرياء يصرفون الأموال دون

حساب، وأمام فقراءٍ لو استطاعوا لسرقوا اللُّقمة من فم الذُّباب. هزَّة اجتماعية عنيفة، وتفاوت اقتصادي خطير.

- **أُسَرٌ تتفكَّك:** بيوت مكشوفة ليل نهار، أبواب حديدية وخشبية تُغلق، وشاشات فضائية وشبكات عنكبوتية تجعل البيت مفتوحاً للجراثيم من كل جنس ونوع، أحداث اجتماعية خطيرة، بيوت مليئة بالخدم رجالاً ونساءً دون ضوابط، أمهات يشتكين، وآباء يعانون، وفتيانٌ منفلتون، وبنات معضولات عن الزواج، مُطلَّقات الحرية في العلاقات العاطفية وغير العاطفية، خَلَلٌ في العلاقات الأسرية، تأخير للزواج، أو رفضٌ له، أو تعقد له بغلاء المهور والمبالغة في التكاليف، أعراض المحارم تشكو من الخطر، علاقاتٌ شاذَّة بدأت تتسرَّب، مؤتمرات وندوات تنعقد لتفكيك نظام الأسرة في الإسلام.

- **في جامعات الغرب ومدارسه:** أبناء المسلمين يغوصون في الحياة الغربية، ضياعٌ وانحراف، صدمةٌ حضارية عنيفة، أفكار وثقافات منحرفة، عادات وتقاليد غربية بعيدة عن عاداتنا وتقاليدنا، شبابٌ يذوبون في فكر أساتذتهم والمشرفين عليهم من اليهود والنصارى والوثنيين والملحدين، إلقاءٌ بالأولاد في مهبٍّ أعاصير المدنيَّة الغربية الجارفة.

على رسلك ـ أيها الحبيب ـ كأني بك الآن تقول صارخاً في وجه قلمي: قف، لا تكتب، وكأني بك تقول لي: أين الاستبشار يا

من تقول لنا: بشِّروا ولا تنفِّروا؟ ها أنت ذا تنقل لنا ما نُقشَ على حائط الواقع المعاصر، بعد أن وقفت بنا على شرفة التأمُّل فما تنقل إلا نقوشاً سوداء قاتمة لا تَسُرُّ الناظرين؟

كأني بك تقول ذلك، وليس من حقي أن أنكر عليك هذا الذي تقول، بعد أن قرأتَ ما نُقش على جانبٍ من الحائط.

ولكنَّ واجب الإيضاح يدعوني إلى أن أقول:

على رسلك ـ أيها الحبيب ـ فما زلت، وسأظل أقول بملء فم قلمي: «بشِّروا ولا تنفِّروا»، وهل تظنُّ أن تلك النقوش السوداء قد استطاعت أن تغلق الأبواب، وتحجب الأنوار، وتحول بيننا وبين الاستبشار؟؟ كلاَّ ـ أيها الحبيب ـ كلاَّ.

وإني لأدعوك إلى تأمل نقوشٍ أخرى على الجانب الآخر من حائط الواقع المعاصر، لترى كيف يكون الاستبشار، فهيًّا بنا لنقرأ تلك النقوش التي وضعت تحت عنوان كبير:

«علاجٌ وإصلاح»

ـ **عودة صحيحة إلى الله:** يقظة الروح، وحياة القلب، والتَّسامي الروحي، صلاة خاشعة، صيام صحيح، حجٌّ مبرور، زكاة مدفوعة، وقبل ذلك شهادتان منطوقتان من القلب قبل اللسان، إخلاصٌ في التديُّن، عبادة موافقة لما أمر به الله عز وجل، ودلَّ عليه الرسول ﷺ.

ـ **ترتيبٌ وأولويات:** ترتيب صحيح للخطوات العلمية والمعرفية وفق برنامج صحيح... عناية بالقرآن والسنة، وبالعلوم الشرعية، واللغة العربية، والفكر والثقافة والأدب، والعلوم الحديثة.

ـ **تربية سليمة:** تكوين الإنسان المسلم القدوة الواعي، الذي يعرف ماله وما عليه: الحاكم، والتاجر، العالم، والأديب، الطبيب، المهندس، الطالب، الأستاذ...، التربية السليمة الشاملة.

ـ **تطبيق وعمل:** تفعيل المعارف والعلوم بتحويلها إلى واقع معاش، لا خير في علمٍ بلا عمل، كنا إذا تعلَّمنا عشر آيات لم نجاوزها حتى نعرف ما فيها من العلم والعمل.

ـ **قراءة التاريخ:** التاريخ تجارب ناضجة، قراءته قراءة صحيحة هي التي تجعلنا نستخلص منه العبرة.

ـ **التراث النافع:** لابد من تَمثُّل التراث وفقهه، ولابد من العمل الجاد لاستثبات إيجابياته في أرض الواقع.

ـ **لا ضعف ولا تبعية:** التخلُّص من الضعف، والارتفاع بالهمة عن التبعيَّة المقيته للآخرين، وعدم الذوبان في أفكارهم وعاداتهم وسياستهم.

ـ **البناء المتماسك للأسرة:** لا مجتمع بلا أسرة متماسكة، ولا أمة بلا مجتمع متماسك، ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾، ليس هنالك مثل الإسلام جامعاً لقلوب أبناء الأسرة الواحدة، وحافظاً لكيان أسرتهم من التفكُّك والضياع.

ـ **المرأة**... المرأة: وعيها، إيمانُها، ثقافتها وقوة شخصيتها، حشمتها وسترها ووقارها، وعلوُّ همَّتها، والإحساس العميق بالقيمة العظمى لدورها في الحياة.

ـ **الأمانة**: لابد من إحياء الشعور بمسؤولية الأمانة التي حملها الإنسان، بعد أن أبت من حملها السماوات والأرض، والجبال.

ـ **ثقـة**: بناء الشخصية الإسلامية الواثقة بربها، ثم بقدراتها وطاقاتها الإيمانية الكامنة فيها.

ـ **العلماء ورثة الأنبياء**: دورهم في العلاج والإصلاح كبير، وتقصيرهم في ذلك خطر على الأمة كلِّها، العلماء مشاعل مهمة في ظلمات الحياة.

«اليقظة وعدم الانخداع»، «الخروج من حفرة التفرُّق والشتات»، «البعد عن التهويل»، «تحديد الهدف بوضوح»، «المحجَّة البيضاء المشرقة التي يكون ليلها كنهارها»، لقد تركتكم على ما إن تمسكتم به لن تضلوا؛ كتاب الله وسنتي.

ـ **العاقبة للمتقين**: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أتدري ـ أيُّها الحبيب ـ ما خلاصة ذلك كلِّه؟

«قل آمنت بالله ثم استقم».

هنا سيكون الاستبشار هو الطريق الصحيح للوصول إلى ما نريد، فإذا علمنا أن هذه النقوش المشرقة مطبقة في واقع بعض

المسلمين المتّصلين بالله في هذا العصر، برغم ظلامه وأوهامه، أدركنا أننا قادرون ـ بإذن الله ـ على العلاج الذي يزول به الداء، الإصلاح الذي يزول به الفساد ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

❀ ❀ ❀

معرفة الداء أساس الاستبشار

الكارثة الكبرى في حياة البشر تتمثل في أمورٍ من أهمِّها: عَدَمُ معرفتهم بحقيقة ما يعانون من الأمراض، فلا مجال ـ في هذه الحالة ـ للاستبشار الذي يقوم على العلم والمعرفة. بمكامن الداء، ووسائل الدواء.

كلُّ نقش أسود نراه على حائط الواقع ينفعنا في معرفة الأسقام التي تعاني منها أمة الإسلام، وهذه المعرفة أوّل خطوات العلاج ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الأنفال: ٥٣].

❀ ❀ ❀

ألف تجربة فاشلة

توماس ألفا أديسون قام بأكثر من ألف تجربة فاشلة في مجال الكهرباء، حتى استطاع أن يخترع المصباح الكهربائي، وأن يكون سبباً في فتح أبواب «النور الكهربائي» على مصاريعها.

كان يقول لمساعديه بعد كل تجربةٍ فاشلة:

«لقد حقّقنا مرّة أخرى نجاحاً باكتشافنا أنّ هذه الطريقة لا تجدي»، ألف مرّة بعدَها أضاء المصباح الكهربائي الأوّل.

ياله من تفاؤلٍ كبير أوصلنا إلى نعمة الكهرباء!

* * *

الكُلُّ يقوم بذلك

صاغ كاتب اسمه (جاك جريفين) قصة بعنوان: «لا بأس يا بني، الكلُّ يقومون بذلك»، جاء فيها:

كان «جوني» في السادسة من عمره حينما قبض رجال المرور على والده بسبب مخالفة مرورية وهو معه.

وضع والده مبلغ عشرين دولاراً في يد الضابط أثناء إعطائه رخصة القيادة، وسارت الأمور على ما يرام، فالتفت الأب إلى ابنه وقال: لا بأس يا بني، الكل يقوم بذلك.

كان (جوني) في الثامنة من العمر حينما حضر اجتماع مجلس عائلته الذي انعقد لاختيار أفضل الوسائل للتحايل على قوائم ضريبة الدخل الكبيرة، وبعد نهاية الاجتماع العائلي التفت الأب إلى ابنه وقال: لا بأس يا بني: الكل يقوم بذلك.

كان (جوني) في التاسعة من العمر حينما ذهب مع أمه إلى مهرجان، وكانت تذاكر الحضور قد نَفَدت، فأخرجت الأم ورقة من

فئة خمسة دولارات، حصلت بعدها على التذاكر، وحينما جلست مع ابنها على مقعديهما قالت: لا بأس يا بني، الكل يقوم بذلك.

كان (جوني) في الخامسة عشرة من عمره حينما لعب في فريق مدرسته لكرة القدم، وقد علّمه المدرب أساليب المراوغة وإعاقة لاعبي الفريق الآخر بشدِّ القميص أو عرقلة الركض دون أن يتنبّه الحكم، ثم قال المدرب لجون: لا بأس يا بنيَّ الكُلُّ يقوم بذلك.

كان (جوني) في السادسة عشرة من عمره حينما عمل في إحدى البقّالات في وظيفةٍ محدَّدة وهي: وضع الفاكهة والخضروات الجيدة في أعلى الصناديق، والرديئة في أسفلها، وكان المسؤول يقول له: لا بأس يا بني، الكل يقوم بذلك.

كان (جوني) في الثامنة عشرة حينما تقدَّم لإحدى الجامعات مع صديقٍ له، لم يكن جوني متفوقاً في مستواه الدراسي، بينما كان صديقه من المتفوِّقين، ولكنَّ النتيجة كانت قبول (جوني) في الجامعة دون صديقه المتفوِّق، قال والدا جوني له؛ لا بأس يا بُنيَّ، الكلُّ يقوم بذلك.

التقى (جوني) بشخصٍ يبيع إجابات أسئلة الامتحان على أمثاله من الطلاَّب غير المتفوِّقين، فاشترى منه الإجابات وسمع منه الطرق الملتوية التي يمكن استخدامها للغشِّ أثناءَ أداء الاختبار، وقال له مُطَمئِناً: لا بأس يا بنيَّ، الكلُّ يقوم بذلك.

وحينما بدأ الاختبار بدأ (جوني) في تنفيذ الطرق الملتوية

للغشِّ، فرآه الأستاذ المراقب، وكانت النتيجة التي لم يكن يتوقّعها، حرمانه من الاختبار وطرده من الجامعة.

ذهب إلى منزله حزيناً، وأخبر أبويه بما جرى له، فصرخا في وجهه بلهجةٍ واحدة: كيف فعلت هذا يا (جوني) ليس الغشُّ من طبيعة منزلنا ولا عائلتنا؟ يا له من عمل سيئٍ مخجلٍ قد قُمْتَ به يا جوني!

نظر إلى أبويه صامتاً، وقد بدتْ على وجهه علامات دهشةٍ كبيرة، وأخذ يقلّب عينيه بين والديه، وهو يتذكّر صوراً ماضية للعائلة، كان من أبرزها صورة العشرين دولاراً التي دسَّها والده في يد ضابط المرور لدفع العقوبة عنه، وصورة العائلة وهي مجتمعة تناقش أنجع الوسائل للتحايل على قوائم ضريبة الدَّخْل، وحينما طال صمته صرخ والده قائلاً: لماذا تفعل ذلك يا جوني؟ كيف تجرَّأت على عمل تسيء به إلى سُمعة عائلتك؟

التفت إلى والده، وقال ـ بصوت حزين ـ: لا بأس يا أبي، الكلُّ يقوم بذلك. شعر الأب بالحرج، ونظر إلى وجه زوجته الذي بدا عليه الحرج أيضاً، وقال لولده: كلاَّ يا ولدي، ليس صحيحاً أنَّ الكلَّ يقوم بذلك، ودنا من ولده، وقبَّل جبينه قائلاً: موقفك هذا يا بنيَّ يعلّمنا نحن الكبار درساً مهماً لا يمكن أن ننساه.

قصَّة ذاتُ دلالةٍ واضحة، تؤكد خطورة دور الأسرة، والمجتمع في التربية والتوجيه، وخطورة غفلة المربِّين عن الآثار السلبية

المدمِّرة التي تتركها أفعالهم السيِّئة في نفوس الأجيال الناشئة.

إن الأب، أو الأستاذ، أو الداعية، أو المدير المسؤول يجني جناية كبيرة على الأمة حين يقول لمن يلي أمرهم: لا تكذبوا، ثم يكذب.

لا خير في احرفٍ تأتي منمَّقة

على اللسان إذا لم تَصْفُ افكار

الصدق بشارة، فبشروا بالصدق أمةً تحتاج إلى الصدق.

❁ ❁ ❁

تلوين

● مرَّت امرأةٌ بقومٍ من بني نُمير وهي في طريقها إلى دارها فأداموا النظر فيها حتى تعثَّرت، فغضبت وقالت لهم: والله يا بني نُمير ما أطعتم الله سبحانه وتعالى إذ قال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾.

ولا أخذتم بقول جرير:

فغُضَّ الطرف إنك من نميرٍ

فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

فأطرق القوم خجلاً.

● عن أنس بن مالكٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء شيخ كبير إلى النبيِّ ﷺ في حاجةٍ يريدها فأبطأ القوم عن الشيخ أنْ يُوسِعُوا له، فقال: «**ليس منا مَنْ لم يرحمْ صغيرَنا، ويوقِّرْ كبيرنا**».

وأقول: لا يبحث باحث عن أصلٍ من أصول التعامُل بالحسنى، ورعاية حقوق الإنسان؛ صغيراً وكبيراً، ذكراً وأنثى، غنياً وفقيراً، إلا ويجده ثابتاً في تُرْبةِ الإسلام الخصبة النقيَّة، فليت المشغولين بدعايات حقوق الإنسان في العالم الغربي من المسلمين يفطنون إلى هذا!

● هل رأيتم كَثيباً من مسك؟ وقبل ذلك، هل تعرفون معنى كَثيب؟

في لغتنا الخالدة نقول: كَثَبْتُ الشيء أكثُبه كثباً، إذا جمعتُه، وانكثب الرَّمل اجتمع، وسمِّي المجتمع من الرمل كثيباً؛ لأنه انصبَّ في مكان فاجتمع فيه.

وفي القرآن الكريم: **﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾**[المزمل: ١٤].

وكأني بكلمة كثيبٍ توحي بالجمال، والاستواء إذا أطلقت على الرِّمال، وهو إيحاءٌ ناتج من استخدامها للدلالة على كثبان الرمل الجميلة.

أين كَثيبُ المسك إذن؟

لقد ورد في حديثٍ يُروى عن الرسول ﷺ:

«ثلاثة يوم القيامة على كَثيبٍ من مسكٍ أسود، لا ينالهم فَزَعٌ حتى يُفْرَغَ ممَّا بين الناس...

١ ـ رجلٌ قرأ القرآن ابتغاء وجهِ اللهِ وأَمَّ قوماً وهم به راضون.

٢ـ ورجل اذن في مسجد ودعا إلى اللهِ ابتغاء وجه الله.

٣ـ ورجلٌ ابتُلي برقٍ في الدنيا، فلم يشغله عن عمل الآخرة.

يا له من انتظار جميل، على كثيبٍ من المسك!

بشاراتٌ لا تنقطع في ظلال واحات الإسلام الخضراء.

❀ ❀ ❀

نبغض ولا نبغض

قال لي: لا أدري لماذا تبغضون الأشخاص الذين يخالفونكم في الرأي، وتصورونهم بصور الانحراف عن الطريق المستقيم، وتحاولون إلغاءهم ومصادرة رفضكم للحقد والبغضاء؟

قلت: إن كنت تريد مخاطبتي أنا فقط أجبتك بما يوضّح لك الأمر، ويزيل عن ذهنك اللبس وفق ما أشعر به وأعرفه من نفسي، وإن كنت تريد بخطابك جماعة معينةً فأفصح حتى يكون الجواب على قدر السؤال.

قال: إياك أريد وأمثالك ممن تحرصون على ردّ كل رأي مخالفٍ للمألوف.

قلت: في كلامك تعميم يحتاج إلى تخصيص، وسوء فهم يحتاج إلى تصحيح، وأودُّ أن أنقل لك قصة قصيرة جداً لتكون منطلقاً لبيان ما أريد.

يروي ابن الأثير في أُسد الغابة خبراً عن أبي الدرداء رضي الله عنه فيقول: وقف أبو الدرداء على جماعة يحيطون بشخص ارتكب ذنباً وهم يسبُّونه، فقال لهم: أرايتم لو أنَّ صاحبكم هذا وقع في حفرةٍ أكنتم مستخرجيه منها؟ قالوا: نعم ـ لا شك في ذلك ـ قال: فلا تكثروا من سبِّ أخيكم، فيعافيه الله ويبتليكم، قالوا: أفلا نبغضه وقد أذنب؟، قال إنما أبغض ذنبه وإساءتَه، فإذا تاب فهو أخي.

أرجو أن تتأمل هذه القصة، وتقف معها وقفةَ الباحث عن الحقيقة من ورائها، فهي تصدق على موقفنا من كل من يرتكب خطأً بصفةٍ عامة، سواء أكان خطأ سلوكياً أم كان خطأ فكرياً أم ثقافياً، فليس من الحكمة ألاَّ نواجه الرأي الخاطئ ببيان خطئه، ودعوة صاحبه إلى الصواب، وليس من الحكمة أن نبغض صاحبه لذاته هو أو نصادره أو نرفضه رفضاً قاطعاً لا مجال للمراجعة فيه، وإنما يكون غضب المسلم من كل رأي أو فكرةٍ يظهر منها مخالفة شرع الله سبحانه وتعالى، وموافقة آراء وأفكار أهل الباطل والضلال، فنحن نبغض الفكرة السيئة، والرأي المخالف للحق بغضاً نتقرب به إلى الله عز وجلَّ، ونواجه هذا الرأي المخالف وتلك الفكرة السيئة بما نستطيع من الردِّ الصحيح، ونحذِّر منها الناس، ونعاتب صاحبها وندعوه إلى الحقِّ، ونحذِّره من مغبَّة ما يقع فيه من المخالفة التي نرى أنها تشكِّل خطورة على مجتمعه وأمته من جانب، وعليه هو من جانب آخر.

ونقول لمن يقعون فيما يخالف شرع الله سبحانه وتعالى كتابًا

وسنةً مثل ما قال أبو الدرداء لذلك المذنب: إننا نبغض مخالفتكم، فإذا زالت فأنتم إخواننا، هكذا علَّمنا ديننا الحنيف الذي لا يوازيه دينٌ في رعاية حقوق الناس ومقاماتهم، وفي التوازن والعدل الثابت فيما يطلقه من أحكام.

حينما يسخر كاتب مسلم من بعض مظاهر الإسلام الظاهرة، الثابتة بنصوص الكتاب والسنة الصحيحة مثل: (الحجاب) و(الفقة الناجية المنصورة) و(الحشمة) وغيرها، فإننا نعلن البغض لهذا الفعل، والرَّفض له، والتحذير منه، ولا يعني ذلك كلّه أننا قد أعلنا البغضاء لصاحبه، أو مصادرته، أو قصدنا الإساءة إليه لذاته.

نحن ننادي بالحب والصفاء، وسعة الصدر، ونرفض الحقد والبغضاء ونرسم للابتسامة الصافية أجل اللَّوحات في تعالمنا مع الجميع منطلقين من تعاليم ديننا الحنيف التي تقول لنا: «**ابتسامك في وجه أخيك صدقة**» وتقول: «**الرُفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه**»، ولكننا لا نحب الفكرة المنحرفة، والرأي المخالف لشيء من تعاليم الإسلام، ونحن بعدم حبنا لهذه الأشياء نحقّق حبَّنا للخير والإصلاح لنا ولأمتنا وللناس جميعاً.

إني لأرجو أن تكون قد اتضحت لك الصورة التي أحاط بها من الغَبَش ما جعلك تظنُّ بنا هذا الظنّ.

قال: لا شك أنَّ الصورة قد اتضحت، ولكنَّ هذه الصورة

ليست واضحة عند الذين تتصدّون لأخطائهم، فما زالوا ينظرون إلى الأمر بمنظار شخصي.

قلت: إذن تبيَّن لك الآن أنَّ النظرة الخاطئة قد نشأت عندهم، وأنَّ تصحيح هذه النظرة يعد من مسؤولياتهم، لا سيما وأننا نوضِّح الأمر بهذه الصورة الجليَّة.

وأزيد الأمر تأكيداً بأن كلَّ إنسان معرَّضٌ للخطأ، وأنَّ باب التوبة مفتوح للجميع، فلا يجوز لعاقل أن يُصِرَّ على خطئه انتصاراً لنفسه، أو تعصُّباً لفكرته، خاصةً حينما يظهر وجه الحق.

نحن نقول: إنَّ مقياسنا الأول والأخير كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ وأن الاستسلام لهذين المصدرين هو أساس الإيمان ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥].

فمرحباً بالجميع تحت هذا الأفق الفسيح.

وقديماً قال الإمام الطحاوي: لا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام.

نحن يا صاحبي نبغض الباطل الذي يحمله الأشخاص ولا نبغض الأشخاص لذواتهم.

هل تريد وضوحاً أكبر من هذا الوضوح؟

وإنصافاً أوضح من هذا الإنصاف؟

تفاؤلٌ شعري

قال أبو الفتح البُستيّ:

وإن نعمة زالت عن المرء وانقضتْ

فإنّ لها بعد الزّوال رجوعُ

فكن واثقاً بالله، واصبر لحكمه

فإنّ زوال الشرّ عنك سريعُ

❀ ❀ ❀

الفاروق والشعر

كان عمر ـ رضي الله عنه ـ من أكثر الصحابة استشاداً للشعر، وحرصاً على سماع جيّدة، وكان له ناقداً، وبجيّده مُشيداً، ولم تمنعه قوّةُ شخصيته وشدّةُ شكيمته، ومهابتُه التي تجعل الشيطان ـ نعوذ بالله منه ـ يسلك شعباً غير الشّعب الذي يسلكه الفاروق من أن يتفاعل مع الشعر الجيد، ويعلّق عليه تعليق الناقدين المتذوّقين.

وكان يسمي زهير بن أبي سُلمى (شاعر الشعراء)، ولابن عباس مع عمر في هذا الباب قصص وحكايات طريفةٌ جميلة تدلّنا على شيئين:

١ـ قربه من عمر بن الخطاب وعلاقته الوثيقة الخاصة به.

٢ ـ كثرة حفظه من الشعر مع أنه تَرْجُمانُ القرآن وحَبْر الأمة، قال له عمر ذاتَ يومٍ: أنشدني من شعر زهير، فأنشده عبدالله قولَ زهيرٍ في هَرِمٍ بن سنان بن حارثة ممدوحِ زهير الأوَّل:

قومٌ، أبوهم سنانٌ حين تنسبهم
طابوا وطابَ من الأفلاذِ ما ولَدوا

لو كان يَقعدُ فوقَ الشمس من كرمٍ
قومٌ بأوَّلهم او مجدِهم قعدوا

جنٌّ إذا فَزِعوا، إنسٌ إذا أَمِنوا
مُرزَّءون بها ليلٌ إذا احتشدوا

محسَّدون على ما كان من نِعَمٍ
لا يَنزع اللهُ منهم ما لَه حُسِدُوا

فقال له عمر: ما كان أحبَّ لو كان هذا الشعر في أهل بيت رسول الله ﷺ.

وهذا قولٌ من عمر رضي الله عنه يتكرَّر مثله من كثيرٍ من الصحابة رضي الله عنهم إذا سمعوا مَدْحاً جميلاً قالوا: الأولى به رسول الله ﷺ.

فما أعظمه من حُبٍّ عمر قلوبَهم، وملك عليهم نفوسَهم، وهنيئاً ثم هنيئاً صادقاً متوازناً بعيداً عن الغلوِّ الذي نهى عنه

الرسول ﷺ حين قال: **«لا تُطْروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبدالله ورسوله، فقولوا: عبدالله ورسوله».**

❀ ❀ ❀

الشعر وأصحاب الفيل

إنَّها تلك الوَقعة التي طغى فيها أبرهة الحبشي ملك اليمن وتجبرَّ، وتعالى وتكبَّر، وساق نفسه بوهمه إلى هلاكه مضيفاً بقصته حَلقة سوداء في سلسلة الطغيان والظلم والجبروت، والبعد عن الله عز وجل، تلك السلسلة التي تلقي بأصحابها في عذاب السعير.

قال أبو الصَّلت بن أبي ربيعة الثَّقفيّ في قصة الفيل:

إنَّ آياتِ ربِّنا ثاقباتٌ
لا يُماري فيهنَّ إلا الكَفُورُ
خَلَقَ الليل والنهار فكلٌّ
مستبينٌ حسابُه مقدورُ
ثم يجلو النهارَ ربٌّ رحيم
بِمَهاةٍ شُعاعها مَنْشُور
حُبس الفيلُ بالمُغمَّس حتى
ظلَّ يحبو، كأنَّه مَعقورُ

حـــــولَه مـن مـلـوكِ كِنْـدَةَ أبطـا
لٌ مَـلاويثُ في الحـروب صُـقـور
خلَّفـوه، ثم ابذعـرُّوا جـمـيـعـاً
كلُّهم عَظْمُ سـاقــه مكســورُ
كلُّ دينٍ يَومَ القــيــامـــة عند
الله إلا دين الحنيــفــةِ بُورُ

إنها حادثة ذات أثر إيجابيّ كبير في توجيه نفوس الناس إلى قدرة الخالق عز وجَلَّ التي تتلاشى عندها كل القوى البشرية الغاشمة الظالمة.

وكأني بجيش الفيل في هَيْلمتِه وهَيلمانه يشبه جيش أمريكا التي تَخبِط في عالم اليوم خَبطَ عشواء، مع اختلاف الوقت، ومستوى الأسلحة بين ذلك الجيش وهذا.

ولكنَّ النتيجة واحدة ـ لا شك في ذلك ـ أنَّ الله يمهل الظالم ثم يقصم ظهره بصورة تفاجئ الناس، ولا تخطر له على بال.

الأبيات السابقة رويت لأمية بن أبي الصلت، وهو ابن أبي الصلْت، وكلاهما كانا يعرفان دين إبراهيم الحنيف والنصرانية واليهودية.

يقول الشاعر: بمهاةٍ، يقصد به الشمس، والمغمَّس الوادي الذي حَبَس الله فيه جيش الفيل، وملاويث: تعني أشدَّاء، ومعني ابذعرُّوا: تفرَّقوا.

❀ ❀ ❀

﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

حينما يصل إيمان الإنسان بربه عز وجلَّ إلى أعلى درجات القوة والثبات تهون عنده الصعاب، وتصغر أمام صبره ويقينه وثباته المصائب، ويصبح في أسمى درجات الاستبشار بنصر ربِّه وتأييده.

هذا هو فرعون بجبروته وطغيانه، وملكه الطويل العريض، وجيوشه الجرَّارة ومستشاريه وقوَّاده، وأمواله الطائلة يرسل في المدائن حاشرين، رجالاً يجمعون الناس ليتضاعف عدد الجيش الذي سيحارب به موسى عليه السلام ومن معه، صورةٌ تذكِّرنا بأساطيل، وطائرات، وصواريخ الدول الكبرى المتسلِّطة في هذا الزمن، وهي صورة مخيفة في الميزان البشري، خاصة وأنَّ الظالم ينظر باحتقار إلى المظلوم: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾[الشعراء: ٥٤]، وما داموا كذلك فلن يصمدوا لحظةً واحدة أمام قوَّاتنا الجارفة المجلجة.

هكذا تصبح الصورة ضخمةً مخيفة، فماذا جرى.

يقول تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[الشعراء: ٦٠-٦٨].

هنالك قوّة غاشمة لا ترى إلا نفسها، ترى ما هي عليه من التمكُّن والقوّة وما عليه خصمها من التزعزع والضعف، فهي تنظر إلى زاوية واحدةٍ من خارطة الكون الفسيح، زاوية صغيرةٍ جداً لا يمكن أن تذكر أمام سعة هذا الوجود وعظمته، وهذه القوّة الغاشمة مغرورة بنفسها غروراً مثيراً للسخرية عند من ترى بصائرهم عظمة قوّة الله سبحانه وتعالى الذي لا تساوي دنيانا كلُّها عنده جناح بعوضة، الذي لو اجتمع الإنس والجن منذ بَدْءِ الخليقة، فأعطَى كلَّ واحدٍ منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكه سبحانه وتعالى شيئاً إلا بمقدار ما تنقص الإبرة الصغيرة من البحر العميق.

نعم، هذه هي صورة قوّة فرعون الغاشمة التي أرعبت الناس، وأصابت بني إسرائيل بالذعر، وجعلت كثيراً منهم يشعرون بعدم القدرة على مواجهة هذا الجيش الفرعوني الذي يلاحقهم.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ منذ الصباح الباكر، بدأت مطاردة الجيش العملاق لذلك العدد القليل، وما دامت مطاردة، فهي دليلٌ على أن التكافؤ بين الجيشين غير واردٍ أصلاً، إنما هي صورة واضحة لقوي طاغٍ متجبر يلاحق طريداً شريداً.

ومن هنا كانت صرخة قوم موسى الواضحة ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، توكيدٌ واضحٌ، وشعور بالضعف أمام تلك القوة البشرية الهائلة، مع ما في أذهانهم من صورة فرعون الطاغية التي رسخت فيها منذ سنوات طويلة.

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ جملة بشرية خالصة، تعبر عن إحساس الإنسان المجرَّد الذي يتعامل مع الأمور بمقاييسها المادية الظاهرة، وهي جملة صحيحة في هذا المستوى من التعامل مع الأحداث والمواقف، ولكنها جملة تدلُّ على حاجة قلوب من قالها إلى يقين أعمق بعظمة الخالق عز وجل، وهذه الجملة من الجمل «الانهزاميَّة» إذا نظرنا إليها بمنظار الإيمان الراسخ بالله سبحانه وتعالى، وهي كفيلة إذا توقف عندها الناس أنْ توقعهم فيما يخشونه؛ لأنَّ ما يخشونه بالمقياس المادي، ومقياس التماثُل والتكافؤ، يعد قويّاً جارفاً بالنسبة إلى القوة الضعيفة التي تواجهه، تلك القوة التي عبرَّ عنها فرعون بقوله: ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾.

كيف يكون الخلاص، ومتى تكون البشارة بالنجاة من هذا الموقف؟ ومتى يتحقَّق النصر مع هذه الصورة القاتمة؟

هنا، لا بدَّ من التعلُّق بالقوَّة العظيمة التي لا توازيها قوَّة، ولا بدَّ من التخلُّص من حولنا البشري وقوَّتنا الضعيفة إلى حول الله وقوته.

وهنا، لابد أن تكون درجات اليقين بالله عز وجل عالية جداً.

وهنا، كان الانتقال إلى درجة اليقين العالي بالله سبحانه وتعالى سريعاً مباشراً لا تَردُّد فيه ولا انهزام، حيث باشر موسى عليه السلام الموقف بقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، هذه الجملة هي المفتاح الحقيقي للنصر الحاسم في معركةٍ غير متكافئة مادياً، وهي بوَّابة البشارة التي تُفْتَح على مصراعيها في حائط الحسرة

والانهزام، ولا يمكن أن تُفْتح أقفال اليأس والألم إلا بهذا المفتاح العظيم.

﴿كَلاَّ إنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، اليقين الذي ملأ قلب موسى عليه السلام هو الذي دلَّه على هذا المفتاح مباشرة، فكان الفتح العظيم.

من أين جاء الفتح، وكيف حصل الفرج؟ وكيف اختفت ـ بلا رجعة ـ عبارة ﴿إنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾؟

هنا تأتي مفاجآت المعجزات الربَّانية التي لا يحسب لها حساباً أبداً.

إنها «العصا» التي في يد موسى عليه السلام، نعم «العصا» التي لا تساوي شيئاً أمام السيوف البتَّارة، والسِّهام القويّة، والدروع الحديدية، والخيول والمجانيق، والجبروت والطغيان، «العصا» هنا ـ بضعفها أمام ما ذكرنا ـ هي التي حسمت الموقف في الساعة الحرجة ـ بإذن الله تعالى ـ.

﴿فَأَوْحَيْنَا إلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾، استجابة مباشرة ليقين صادق ودعاءٍ مباشر خالص، هنا تزول كل الحواجز البشرية المادية، وتتهاوى كل المقاييس المحدودة بحدود الزمان والمكان، وطاقة العقل البشري، ولهذا كانت الأمور سريعةً بصورة مدهشة، وحي من الله، وعصا تضرب البحر، وبحر ينفلق، ويصبح كلُّ فرقٍ كالطود العظيم؛ جبل ضخمٌ من الماء الجامد يفصل بين تلك الطرق اليابسة التي نشأتْ

في البحر، وجيشٌ صغير طريد شريد يعبر تلك الطرق اليابسة الجديدة، وجيشٌ غاشم متجبر لا يرى إلا نفسه، يلحق بذلك الجيش الصغير غافلاً عن المعجزة ومعانيها وأبعادها، وعن القوّة التي جعلت البحر بهذه الصورة التي يراها، ونتيجة سريعة جداً: نجاة كاملة للجيش الصغير، وغرق كامل للجيش الكبير، وعودة سريعة مباشرة للبحر إلى وضعه الطبيعي، فما ترى العين جدران ماء جامدٍ مرتفعة، ولا طريقاً في البحر يبساً، انتهى كل شيء في لحظاتٍ قصيرة، ونجّى الله سبحانه وتعالى جسد فرعون حتى يراه الناس رأي العين، فيصبحوا على يقين من النصر العظيم الذي حدث، ومن البشارة الهائلة التي حققتها المعجزة الربّانية العظيمة.

إذن، فالبشارة، والتبشير، وما وراء ذلك من مشتقات هذه الكلمة، موجودة في وجدان الإنسان المؤمن بربه، الذي أسلم له قلبه وروحه، مهما اشتدّت المصائب، وعظمت الأحداث، ومهما أصبحت صورة الطغيان ضخمة مخيفة، هنا نقول: «بشّروا ولا تنفّروا».

ثلاثة أبيات ـ من شعري ـ:

❖ قــد كــثــر الأعــداء لكنهم
أمــام دين الله مــثل الغــثــاء

❖ يا ضــحــايا الغــدر في عــالمنا
ســوف يأتي النور بعــد الظُّلَمَ

❖ إن اصبحت امتي في عصرنا امماً
فــربّمــا وَحّــدتْ راياتهــا الأممُ

صَيْحَةُ الميلاد

يقول الشاعر ابن الرومي مصوِّراً حالة بكاء المولود حين ولادته:

لِمَا تُؤذِنُ الدنيا به من خطوبها
يكون بكاءُ الطفل ساعةَ يُولَدُ
وإلاَّ فما يبكيه منها، وإنها
لأفْسَحُ مما كان فيه وأَرْغَدُ
إذا أبصر الدنيا استهلَّ، كأنَّه
بما سوف يلقى من أَذاها يُهَدَّدُ

هنا نرى ماذا يصنع التشاؤم في الحياة بصاحبه، نظرة سوداوية للأشياء، يقول علماء الطب: إن بكاء المولود عند ولادته ينتج من اندفاع الهواء بقوة عَبْر حنجرته في طريقه إلى رئتيه، فتهتز لذلك أوتار الحنجرة، وتصدر عن الطفل صيحة الميلاد المعروفة، التي تهيئ الطفل للحياة في جوِّه الجديد.

هنا نرى أن بكاء الطفل يُعَدُّ نعمةً من الله؛ لأنه يهيئ مناطق التَّنفس لجريان النَّفَس بطريقة منسابة، فالأصل هنا التفاؤل والفرح والاستبشار بهذه الصيحة الجميلة.

لكن نفس ابن الرومي المتشائمة، دفعته إلى شعره المتشائم.

ولو نظر بعين التفاؤل لقال: ما أجمل صيحة الميلاد!

لوحة شعرية

قال عامر بن الطفيل:

قضى الله في بعض المكاره للفتى

برُشدٍ، وفي بعض الهوى ما يحاذر

ألم تعلمي أني إذا الإلفُ قادني

إلى الجور لا أنقاد، والإلفُ جائرُ

هذا معنى جميل أشار إليه عامر بن الطفيل في هذين البيتين، فإنَّ من أعظم صفات الإنسان الكريمة أن يكون بعيداً عن الجور، والاعتداء.

ولكنَّ عامراً لم يكن في آخر حياته على هذه الصفة، فقد جنح به سوء الخاتمة إلى نية الغدر والجور على محمد بن عبدالله ﷺ، ويبدو أن الكبرياء، وطمع الرئاسة والاعتداد بالنفس، وعدم الفهم الصحيح لمعنى الإسلام هي التي دفعته إلى أن يشترط على رسول الله ﷺ حين قال له: أَسلمْ يا عامر، فقال: أُسلم على أنَّ لي الوبر ولك المَدَر، قال الرسول ﷺ «لا».

فكرَّر عليه الرسول عليه الصلاة والسلام الدعوة إلى الإسلام، وهو يكرِّر شرطه، فلما يئس ولَّى وهو يقول: واللهِ يا محمد لأملأنَّها عليك خيلاً جُرداً، ورجالاً مُردا، ولأربطنَّ بكل نخلةٍ فرسا.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**اللهم اكفني عامراً، واهدِ قومَه**».

إنَّ هذه الدَّعوة النبوية دليلٌ على أن الرسول ﷺ قد رأى من كبرياء عامر، وسوء نيَّته، وقسوة قلبه، ما لا مجال معه لبشاشة الإيمان.

اللهم اكفني عامراً، فكفاه الله عامراً بغُدَّةٍ ظهرت في حَلقه وهو خارج المدينة في بيت امرأة من قومه يقال لها «سلولية»، إنَّها غُدَّةٌ صغيرة إذا قيست بصلابة جسم عامر بن الطفيل، وضخامته، ولكنها جعلته يضيق بحاله وقد أحسَّ بالموت فوثب على فرسه وأخذ يجول بها ويقول: غُدَّةٌ كغدَّة البعير، وموت في بيت سلولية، فلم تزل تلك حاله حتى سقط ميِّتاً، ثم هدى الله قومه فيما بعد إلى الإسلام، أين الخيلُ الجُرْدُ، والرجال المُرْد، أصبحت حكايةً طريفة تحملها كتب التاريخ.

هنا مكمن قوَّة التعلُّق بالله والإيمان به، مع بذل ما نستطيع من الأسباب، ثلاث كلمات فقط ـ اللهم، اكفني ، عامراً ـ، فكانت الكفاية من الله بتلك الغُدَّة الصغيرة في حلق الرجل.

هذه القوَّة العظيمة هي التي تجعلنا مستبشرين دائماً، مهما اشتدت الأهوال، لا نتكاسل ولا نتواكل، بل نعمل ونتّكل، ونوجِّه قلوبنا إلى خالق السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة.

بهذا نستطيع أن نملأ مسامع الدنيا بندائنا الجليل:

«الله أكبر، الله أكبر» وعندها نقول: بشّروا ولا تنفّروا.

* * *

الماريشال ويفل

قـائد بـريطـاني، كـان لـه دور كـبـيـر فـي عـدد من المواقع العسكرية، وإن كانت شهرته أقلَّ من غيره من القوَّاد الذين طار صيتهم في العالم الغربي، بل في العالم كلِّه.

كـان له دور في احـتلال العـراق وسـوريا ولبنان عـام ١٩٤١م، وأدوار أخرى في مصر، والهند وليبيا، وفلسطين.

له رأي في بناء القـوة وسـباق التـسلُّح، فـهـو يرى أنه يجب على الدولة التي تحترم نفسها، وسياستها، وتحرص على استقرارها أن تظلَّ معنيَّة بالتسلُّح وإعداد القوة؛ لأن البناء الحضاري والعلمي سرعان ما ينهدم إذا تعرضت الدولة لضربة خاطفة عنيفة من عدوٍ قويّ، وهي لا تملك جيشاً قوياً يحمي كل منجزاتها الحضارية، ويؤكد أن القائد المخلص هو الذي ينظر إلى المصلحة العامة، وليس إلى بناء المجد الشخصي؛ لأن الذي ينشغل ببناء مجده الشخصي يفقد ثقة قومه به، ويتعرض لخطط الأعداء التي تسعى إلى هدمه بمباركة قومه، وعند ذلك يخسر هو، وتخسر دولته، وأمته. وقفت أمام هذا الرأي متأمِّلاً، ووددت أنَّ كل دولة مسلمة، تفعل شيئاً من هذا الذي يحفظ لها المكانة، ويجعل لها شيئاً من الهيبة في نفوس الأعداء.

أما بناء المجد الشخصي الزائل على حساب الأمة، فقد رأينا صورته رأي العين في ذلك السجين العراقي الكبير، الذي تهاوت تماثيله الضخمة، قبل أن يتهاوى هو في غياهب السجن.

عندنا مبدأ ثابتٌ في هذا الشأن يتمثل في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾.

التجارب العسكرية لويفل هي التي جعلته يرى ذلك الرأي، أما نحن ـ المسلمين ـ فإنَّ شريعتنا الكاملة تضع أمامنا الصورة الصحيحة لكلِّ ما يحقِّق لنا وللناس معنا السعادة والأمن والرَّخاء إذا كنا مخلصين لربنا، صادقين في توجُّهنا إليه.

وقد أكد هذا المعنى قائد غربي آخر أكثر شهرةً من ويفل، إنه مونتغمري، الذي أشار في مذكراته إلى أنَّ إعدادك الصحيح لنفسك هو الذي يجبر الآخرين على تقديرك.

الفرق بيننا، وبينهم، أننا نحمل ديناً لهداية البشر، وتحقيق العدل بين الناس، وهم يحملون سياسةً تقدِّم مصالحهم على مصالح الآخرين.

ولن نكون محققين للعدل إلا إذا كنا مسلمين حقاً، مبشرين بهذا الدين الصالح لكل زمانٍ ومكان.

❀ ❀ ❀

تلوين

● هل سمعت بمحمد بن الحنفيَّة ـ رحمه الله ـ؟ وإذا كنتَ سمعتَ به فهل عرفت بعض صفاته؟.

إليك تعريفاً به: هو محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أمُّه كما قالت عنها أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ سندية سودا، وقد كانت أمَةً لبني حنفية، وقد صارت إلى علي من سبي اليمامة.

ورد في حديث ضعيف أن رسول الله ﷺ بشَّر به علياً وأخبره بأنه سيولد له فيما بعد غلام يحمل اسم محمد.

أما صفات محمد بن الحنفيَّة فهي: من التابعين من أهل المدينة، كان معروفاً بالصلاح، وكثرة العلم والورع الذي أصبح فيه مضرب مثل.

ومن أهم صفاته، قوة جسمه، ومتانة خَلْقه، وحزمُه الذي جعل له مهابة في نفوس الناس، وقد روى بعضهم أن عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ وهو ذو شجاعة معروفة ـ كان يهاب محمداً، وتصيبه رعدةٌ إذا ذكره أو رآه.

أمسك علي بن أبي طالب رضي الله عنه بدرعٍ فرآها طويلة، وطلب أن يُنقص منها عدد من الحلقات، فأخذها محمد وقبض بإحدى يديه على ذيلها، وبالأخرى على الجزء الزائد من حلقاتها ثم جذبه فقطعها من الحدِّ الذي أشار إليه أبوه، فعجب من قوَّته الحاضرون، خاصة وأنَّ الدرع مصنوعة من حلق الحديد القوي.

ومن دلائل ورعه ـ رحمه الله ـ: أن الشيعة كانوا يلقبونه بـ «المهدي» فيقول: نعم أنا المهدي أُهدى إلى الخير، ولا أسمح لأحد أن يقول لي إذا سلَّم علي إلا: يا محمد، فقولوا: السلام عليك يا محمد. وكان يبعث إلى بعض مجالسهم التي يجري فيها اللَّعن والطَّعن على بعض الصحابة بأحد أبنائه يقول لهم: إنا لا نحبُّ اللعَّانين ولا الطعَّانين، ولا نُحبُّ مستعجلي القدر.

ومن مواقف حضور بديهته: أنه سئل ذاتَ يومٍ، ما بالُ أبيكَ عليّ بين أبي طالب رضي الله عنه يرمي بك في مواقف صعبة لا يرمي فيها الحسن والحسين؟ قال: لأنهما كانا خدَّيه، وكنتُ أنا يدَه فكان يتوقَّى بيده عن خديه، وفي رواية أخرى: لأنهما كان عينيه وكنتُ يديه، فكان يقي عينيه بيده، وهذا كما نرى من أفضل الإجابات التي يهتدي إليها الإنسان:

ومن أخبار «شجاعته»: أنه صرع مروان بن الحكم يوم الجمل، وجلس على صدره، ولكنَّه لم يقتله، فلما وفد على ولده عبدالملك ابن مروان ذكر له ذلك الموقف، فقال محمد بن الحنفيَّة: عفواً يا أمير المؤمنين، فابتسم عبدالملك وقال: والله ما ذكرت ذلك لك وأنا أريد لك به جزاءً أو عقاباً.

ومن دلائل «حكمته» قوله: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف، من ابتُلي بمعاشرته فليس له منها بُدٌّ حتى يجعل الله تعالى له فرجاً ومخرجاً. وفي هذا القول حكمة واضحة، وسدادٌ في الرأي لا يخفى.

ومن دلائل «علمه»: أن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال لرجلٍ سأله عن مسألة: اسأل عنها محمد بن الحنفيَّة، فسأله الرجل فأجابه، ثم أخبر ابن عمر بجوابه، فقال ابن عمر مادحاً جواب ابن الحنفية: أهلُ بيتٍ مُفَهَّمون ـ أي أن الله سبحانه وتعالى فهّمهم ـ.

رجالٌ تتشرَّف بهم الرجولة، وأبطالٌ تأنس بهم البطولة، ونماذج مضيئة تستحق أن تكون قدواتٍ لأجيالنا المعاصرة.

❁ ❁ ❁

لوحة شعرية

قال السموأل بن عادياء:

ربَّ شتمٍ سمعتُه فتصامَمْتُ، وغيٍّ تركتُه فكُفِيتُ.

ينفع الطيِّب القليل من الرزق ولا ينفع الكثيرُ الخبيتُ.

ليس يُعطَى القويُّ فضلاً من الرزق، ولا يُحرَمُ الضَّعيف الشَّخيتُ.

بل لكلٍ من رزقه ما قضى اللهُ وإنْ حزَّ انفَه المستميتُ.

❁ ❁ ❁

مثلث النشاط الذهني

الإنسان مكوَّنٌ من روحٍ وجسد؛ فيه نفثة الروح، وفيه قبضة الطين، ولابد للإنسان من الحرص على التوازن بين هذين الجانبين

حتى يكون إنساناً سوياً فاعلاً، قادراً على العطاء النافع له، ولمجتمعه وأمته، وهذا التوازن المشهود هو الذي تحاول جميع الفلسفات البشرية أن تصل إليه؛ لأن تلك الفلسفات تهدف ـ في مجملها ـ إلى تحقيق السعادة للإنسان، وتزعم كل فلسفة منها: أنها قادرة على تحقيق هذه السعادة المطلوبة، وفق اجتهاداتها وتجاربها وما تصدره من تعليمات وقوانين وتشريعاتٍ خاصة بها.

ولكنَّ التاريخ، والواقع البشري يؤكد أنَّ تلك الفلسفات البشرية أخفقت وما تزال تحفق؛ لأنها تعتمد على نفسها بعيداً عن التعليمات السماويّة التي أنزلها الله سبحان وتعالى على أنبيائه ورسله لتحقيق ذلك التوازن المهم بين الروح والجسد.

الله سبحانه وتعالى أعلم بما خلق، وأدرى بما يصلح لعباده من الأقوال والأفعال، وبما يعمر الكون، ويحقِّق التوازن والانسجام بين المخلوقات فيه؛ ولذلك فإنَّ كلَّ اجتهادٍ بشري ينفصل عن تعاليم السماء يعد اجتهاداً مُخفقاً مهما تعالى ضجيج الدعايات له، وتعالت أصوات تلميعه وتسويفه.

الاجتهاد البشري المنقطع عن تدبير خالق الكون عز وجل، ساق البشرية في رحلتها الطويلة وما يزال يسوقها إلى الوثنيّة، والصراعات الطبقية، والحروب المدمِّرة، والانهيار النفسي والخلقي، والاضطرابات الفكرية، مع أنَّ الفلاسفة والمفكرين الذين يقفون وراء ذلك الاجتهاد المنقطع يعدُّون من عباقرة البشر،

وأصحاب القدرات النفسية والعقلية العجيبة؛ التي تروى أخبارها، وقصصها من جيلٍ إلى جيلٍ مصحوبة بهالةٍ من الانبهار، والإعجاب الذي يجنح برواتها إلى الغلوِّ والمبالغات واختراع الأساطير التي لا أساس لها من الواقع.

ماذا فعل فلاسفة الإغريق، ومفكرو الروم وعلماؤهم، وجهابذة الرأي في فارس، ورجال الحكمة والمعرفة في الصين، ورجال الدَّهاء والشجاعة من العرب في جاهليتهم؟ ماذا قدَّمت الفرعونية بإهراماتها الضخمة، وأساليبها المتطورة في تحنيط الأموات للبشرية؟ وماذا قدمت العلمانية، والشيوعية، والحداثة، والعولمة الغربية للروح البشرية التائهة؟؟

فقدانٌ للتوازن بين الروح والجسد، لا يخفى على أحد، وحيرةٌ واضطراب، وحروب وعداوات، ومصالح بشرية يأكل من أجلها القويُّ حقَّ الضعيف، ويلتهم الكبير الصغير، ويتسلَّط بها الغنيُّ على الفقير.

يتحدَّث علماء النفس عن مثلث النشاط الذهني عند الإنسان، وهو مثلَّث مهمٌّ يعمل بصورة مستمرة كما يعمل القلب؛ لأنه مرتبط بالمخ البشري الذي لا يتوقف في حال اليقظة والنوم، إنه مثلث «العقل والوجدان والإرادة».

ويرون أن عمل هذا المثلث المهم هو الذي يحقِّق للبشر ما يتقدَّم بهم من الإلهام المنتج لكل عمل أو قولٍ إبداعي، ويقفز بهم

في سلَّم التطوُّر والرُّقي، ويؤكدون أن عدم التوازن بين أضلاع هذا المثلث ينتج ما يمكن أن يسمَّى بجنون العبقرية، حيث يتفلَّت الإلهام من القيم والمبادئ التي تحكم المجتمعات البشرية، ويأتي بكل غريب مدهشٍ مثير، بصرف النظر عن كونه نافعاً أو ضاراً للناس.

كيف يمكن أن يضبط هذا المثلَّث المهم «العقل والوجدان والإرادة»؟

ليس هنالك من ضابط حقيقي له غير الدين الصحيح الذي أنزله الله لصلاح حياة البشر وغيرهم في هذا الكون الفسيح.

لأن الدين الصحيح (الإسلام) يحقِّق لأضلاع هذا المثلث ما تحتاج إليه من الحرية، الراشدة، والوعي، والاطمئنان الروحي الذي يمنع من التفلُّت والانحراف، مع فتح آفاق الكون والحياة والإنسان جميعها أمام العقل الراشد، والوجدان المستقيم، والإرادة الحرَّة القوية المنضبطة بضوابط السنن الإلهية المودعة في هذا الكون الفسيح، والدين الصحيح هو الذي يحمي الإنسان من الغلوّ في تمجيد العقل وتقديمه وتقديسه حتى تصبح (العقلانية) ديناً لأصحابها أو ما يشبه الدين، كما فعل غُلاة العقلانيين قديماً وحديثاً، وهو الذي يحمي من الغلو في تمجيد الروح وتقديسها حتى تصبح (الرُّوحيّة) ديناً أو ما يشبه الدين، كما فعل غُلاة الرُّوحية الحديثة في الغرب وفي الشرق في بلاد الهند واليابان وغيرهما، وكما فعل غُلاة «الصوفية» في تهويماتهم، وشطحاتهم التي لا تخفى على من يعرف سيرتهم، ويطّلع على طقوسهم.

إنَّ الدِّين الصحيح هو العاصم من هذا الانحراف، والخلل في توازن مثلث النشاط الذهني عند الإنسان.

وفي سير الأنبياء والرسل عليهم السلام ما يؤكد هذا التوازن الذي نتحدَّث عنه، فقد كانوا ـ بفهمهم الصحيح للدين الذي دعوا إليه الناس ـ مثالاً لتوازن الجسد والروح، وتوازن (العقل والوجدان والإرادة») فهم عليهم السلام نماذج مشرقة في الوعي والبصيرة، والحب والعطف والحنان، والقوة في نشر الخير ومواجهة الباطل، والإرادة الواعية في التغيير والإصلاح، مع النجاح في جوانب الحياة الأخرى، الاجتماعية، والعائلية، دون إفراطٍ ولا تفريط.

هنا يحقُّ لنا ـ نحن المسلمين ـ أن نكون دعاة التوازن المنشود بين أضلاع مثلث النشاط الذهني (العقل والوجدان والإرادة) فإنَّ ثقافة هذا العصر وقوانينَه، وفكره تكاد تنسف هذا التوازن نسفاً، فتدعه قاعاً صَفصَفاً، وإنَّ لسان حال البشر في هذا الزمان ليقول لنا: «يا معشر المسلمين، نحن بحاجة إليكم فبشّروا بما لديكم من الخير ولا تنفّروا».

❁ ❁ ❁

الدين دين الله

من شعري:

الدين دين الله، لا يأتي به

شيخٌ، ولا يُملي هداه الأسقُفُ

موسى، وعيسى، والنبي محمّدٌ
رُسلٌ بتوحيد المهيمن عرَّفوا
لم يشركوا في حكمه أحداً ولم
يتوجَّهوا لسواه أو يتزلَّفوا
الدين عندالله دينٌ واحد
والله فردٌ واحدٌ متصرِّفُ
دينٌ به خُتِمَتْ رسالات الهدى
وأتى بما فيها، وزاد المُصحَفُ

❀ ❀ ❀

اسأل نفسك

هل سألت نفسك يوماً عن معنى الدعاء الذي تردِّده بعد كل صلاة؟ «**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعتَ، ولا ينفَع ذا الجَدِّ منك الجِدِّ**».

اسأل نفسك الآن عن هذه الكلمات ذات المعاني العظيمة التي تردِّدها كثيراً، وبعد معرفة معناها تأمَّل حالك معها، هل تجد أثرهَا في حياتك؟

إذا سعيتَ إلى شيء واجتهدت في الوصول إليه، والحصول عليه ولكنك لم تصل ولم تحصل بالرغم من سعيك واجتهادك، فماذا تصنع؟

لا شك أنَّك ستأسف على حالك، وتحزن على ذلك، وهذا الأسف لا يمكن أن يخلو منه إنسان، وما على صاحبه من تثريب، ولكن التثريب على الإنسان الذي يبالغ في أسفه إلى درجةٍ يصبح بها ساخطاً متسخطاً.

في هذه الحالة التي لا يتحقَّق لك فيها ما تريد، جديرٌ بك أن تتذكر: «ولا معطي لما منعت»، كما يجدر بك أن تتذكر في حالة حصولك على ما تريد: «لا مانع لما أعطيت»، وأن تتجه إلى ربك بالشكر في الحالتين، وأنْ تكون راضياً بما قضى الله لك؛ لأنَّ فيه مصلحتك وإن كنت لا تراها رأيَ العين.

كنت مرَّة في مجلسٍ كبير، فرأيت شيخاً كبير السنّ يتقدم إلى صاحب المجلس، ويطلب منه مساعدةً مالية، ولكنَّ طلبه لم يَحظَ بالقبول، فسمعتُه يردِّد: الحمد لله، لو أعطاني الله ما منعني هذا، وكرَّرها أكثر من مرَّة، وحينما علمتُ أنه رجلٌ أمِّي تذكرتُ قول عمر رضي الله عنه: «اللهم إيماناً كإيمان العجائز»، إنَّ هذا الشيخ الكبير الطاعن في السنّ الذي لا يحسن القراءة والكتابة قد أحسن كلَّ الإحسان حينما اتَّسع صدرُه لقبولِ الموقف ـ برغم صعوبته على نفسه ـ؛ لأنه بذلك قد حقَّق الإيمان بقضاء الله وقدره، وطبَّق عمليّاً، ما يردِّده يومياً: «ولا معطيَ لما منعت».

أما جملة: «ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجِدّ» فهي مهمة في تحقيق الإيمان بما كتب الله من الرزق وغيره، وفي عدم ذَهاب نفسِ الإنسان حسراتٍ على ما يفوته من دنياه.

فإنَّ الله سبحانه وتعالى هو الواهب، فمن كان له حَظٌّ من توفيق الله ومنحته، فإن جميع الوسائل تتهيَّأ لذلك، ويظل الاجتهاد والعمل من باب بذل الأسباب، وإلا فإنَّ ما قدَّره الله حاصل لا محالة، فلا يكون الجِدُّ في العمل والسَّعي هو السبب في حصول ما قدَّره الله سبحان وتعالى وحده.

خلاصة ما أريد قوله لك:

تعامل مع كل آية تتلوها، أو حديثٍ تقرؤه، أو ذكر ودعاءٍ تردِّده بهذه الصورة من التطبيق في واقع حياتك، على قدر استطاعتك، وأبْشِرْ بالنجاح والسعادة.

بلا نقط

الحمد لله الصَّمد
حال السرور والكَمَدْ
اللهُ لا إله إلاَّ
اللهُ مَولانا الأحَدْ
أوَّل كلِّ أوَّلٍ
أَصْلُ الأصولِ والعَمَدْ
الحَوْلُ والطَّوْلُ له
لا درْعَ إلا ما سَرَدْ

ربما كان جميلاً أن نريح ريشة القلم من الحروف ذوات النقط!

لكنَّ ذلك لا يتــأتَّى إلاَّ بالتكلُّف الذي يُفـقِـدُ النَّصَّ المكتــوبَ سلاستَه وبهاءَه.

❀ ❀ ❀

لا يردُّ البُشرى إلاَّ محروم

إذا قيل لك: ابشرْ فاستبشر، وبشِّر؛ لأنَّ الخير موجودٌ في الدنيا لا ينقطع عنه أبداً حتى يرث الله الأرض ومن عليها، والمسلم أولى الناس بالتبشير والاستبشار قولاً وعملاً؛ لأن البشارة عندنا لا تأتي من الخيــال والأوهام، وإنما تأتي من القــرآن والسنة الصحيحة، فهي بشارة ثابتةٌ لا شكَّ فيها، إذا حقَّق الإنسان عمل أسبابها ودواعيها.

فالمغفرة من الله بشارة ثابتة، ولكنها تحتاج منا إلى التوبة.

ونتائج العمل في الدنيا بشارة ثابتة، ولكنها تحتـاج إلى الإخلاص والصبر والنصر على الأعداء بشارة ثابتة، ولكنه يحتاج إلى إخلاص النية مع الله عز وجل، والعمل بما أمر، ومناصرة الحقّ، والبعد عن عصيان خالق الخلق.

لا يردُّ البشرى إلا محروم، فَلَيستَبشر بالخير كلُّ من نُقلت إليه بُشرى.

عن أبي موسى الأشعري قال: كنا عند النبي ﷺ وهو نازلٌ بالجعرّانة بين مكة والمدينة، ومعه بلال، فأتى الرسول ﷺ رجل

أعرابي فقال: ألا تنجز لي يا محمد ما وعدتني؟ فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : «أَبشِرْ»، فقال الأعرابي: أكثرتَ عليَّ من أبشِر، فأقبل الرسول ﷺ على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال: **«إنَّ هذا قد ردَّ البُشرى، فاقبلا انتما»**، فقالا: قبلنا يا رسول الله، ثم دعا الرسول ﷺ بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه ومجَّ فيه، ثم قال: **«اشربا منه وأَفرغا على وجوهكما ونحوركما وأَبشرا»**، فأخذا القدح ففعلا ما أمرهما به رسول الله ﷺ فنادتهما أم سلمة رضي الله عنها من وراء السِّتر: أفضلا لأمكما من إنائكما، فأفضلا لها منه طائفة.

هنا موقفٌ نبويٌّ تربوي من المواقف التي تعوَّدنا على إضاءتها ونورها وجمالها في سيرة محمد بن عبدالله ﷺ، أعرابيٌّ جُبل على الغِلظة، ينظر إلى الدنيا بمنظار المصلحة الآنية التي سرعان ما تذهب أدراج الرياح.

يبدأ موقفه الغليظ بسؤالٍ غليظ: ألا تُنجز لي يا محمد ما وعدتني؟؟ ولو لم يكن المخاطب هو الرَّحمة المهداة عليه الصلاة والسلام لرأى الأعرابي ما لا يسرُّه، لكنَّ الحِلْم النبويَّ الفسيح قال له: أبشرْ، وهل هناك كلمة أجمل في مثل هذا الموقف وأحسن من كلمة: أبشر يقولها واضحةً جليَّة صادق الوعد محمد ﷺ؟!، وهنا تتجلَّى غِلظة ذلك الأعرابي التي كانت سبباً في حرمانه من خير كثير، فتقول غلظته بلسانها السليط: أكثَرْت عليَّ من أبشرْ، إنه الجهل بقيمة الكلمة العظيمة التي ينطق بها أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام.

وهنا يعطي الرسول ﷺ الأعرابيَّ ومن حضر درساً عملياً في قبول البشرى، فهو لم يزجر الأعرابي، ولم يعنِّفه، وإن كان قد غضب من قوله غضب الحليم الذي لا يتجاوز غضبُه الحدَّ المعقول أبداً، وإنما اتجه إلى أبي موسى وبلال وطلب منهما قبول البشرى التي رفضها جهل الأعرابي وغِلظته، وتجري أمام الأعرابي وقائع عمل كريمٍ من نبيٍّ كريم، ويفوز بالبشرى أبو موسى وبلال، وتشاركهما فيها أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها.

أبشِرْ: كلمة مضيئة لا يرفضها إلا محروم، ولا يردُّها إلا ذو قلب سقيم.

ولنا أن نقف وقفة تقدير جلية أمام موقف الرسول ﷺ من عُنْف الأعرابي وغِلظته حيث لم ينقل الراوي لنا كلمة قاسية منه نحو الأعرابي، بل إن التعبير عن غضب الرسول ﷺ من الأعرابي جاء دليلاً على أنه غضب رقيق حيث وصفه أبو موسى بقوله: «كهيئة الغضبان» ولو كان غضباً شديداً لما ورد الوصف بأداة التشبيه التي نراها هنا، واللهم بشرنا بالخير دائماً، ودلَّنا عليه.

* * *

ربما تكون الخاتمة

أعجبني منطق شابٍ ملتزمٍ بدينه، عابدٍ لربه، يتعامل مع الناس بخلقٍ حسن، وابتسامةٍ تشرح الصدر مع كونه ذا تجارة ناجحةٍ، وقد كان مجاوراً لي في رحلةٍ جوية من الرياض إلى جدة،

أعجبني منطقه حينما قال لي، بعد حوارٍ بيننا: إنني أنظر إلى ضرورة العمل الصالح وأهميته للإنسان من زاوية مهمة، ألا وهي (الخاتمة)، فأنا أدعو دائماً - كما يدعو كل مسلم ملتزمٍ بدينه - بالثبات على الحق وحسن الختام، وأضع أمام عينيّ دائماً عبارة: «إنما الأعمال بخواتيمها»، وأذكر دائماً وصية الرسول ﷺ لأمته ألاّ ينقطعوا عن سؤال ربهم حسن الختام، ولا أنسى أنه ليس هنالك أحد من البشر ولا من غيرهم من المخلوقات مهما أوتي من العلم يستطيع أن يحدّد اللحظة التي سيودّع فيها الحياة، ومن أجل ذلك عقدت العزم - برغم التقصير - على ألاّ ينقطع عني العمل الطيب، وإذا مالت نفسي إلى الدَّعةِ واللهو، وجنحت إلى بعض الملذّات أحذّرها مباشرة بقولي: «ربَّما تكون الخاتمة»، وهل يرضى الإنسان أن يختم حياته بسوء؟.

منطق جميل من شابٍ ملتزم بدينه، ناجحٍ في حياته.

قلت له: وأين أوقات عملك؟

قال: العمل في الدنيا إذا أصلح الإنسان نيّته، وحفظ أمانته، وراقب ربَّه عبادة، قلت له : كيف؟ قال: غاضبتُ مرَّةً أحد العاملين عندي وقلت له كلاماً شديداً آذاه، وخرج مغضباً، وما إنْ غاب عن مكتبي شخصه حتى قلت لنفسي: «ربَّما تكون الخاتمة»، وانطلقت سريعاً، ولحقت به طالباً منه صفحه عني، فما كان منه إلا أن بكى وهو يقول: اصفح عنك فيما قلت، وأطلبك أن تصفح عني فيما

ارتكبت من الخطأ في العمل، قلت له: نعم، فصار من أفضل العاملين، إنني بهذا أعبدالله وأنا أؤدّي عملي الدنيوي.

قلت لهذا الشاب الرائع: إنَّ عقاب العامل على خطئه من باب حفظ أمانة العمل.

قال: نعم، ولكن ذلك يمكن أن يحدث دون أن تسمعه كلاماً لا يليق.

قلت في نفسي: ما أجمل هذا النموذج من المسلمين!

وخطرت ببالي صورٌ من السيرة النبوية الكريمة تؤكد ما قاله هذا الشاب في موضوع الرِّفق في الحديث مع المذنب حتى ونحن نعاقبه.

فهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه يضرب بعظمٍ كبير رجلاً كان يُرجَم، فينضح منه الدم على رداء خالد، فيسبّه، فينهاه الرسول ﷺ قائلاً: **لا تسبوا اخاكم**، إنه شرع الإسلام الذي لا يَحيف عن الحق، فهنالك عقاب للمخالف والمذنب تُضبَطُ به أمور الحياة، وهناك شفقة ورحمة، وحفاظ على إنسانية المذنب؛ لأن الخطأ لا يلغي حقوق الإنسان الأخرى.

«ربما تكون الخاتمة» ذكرتني هذه الجملة البديعة بقصّتين:

القصة الأولى: يطرحها أبو هريرة رضي الله عنه على الصحابة رضوان الله عليهم في صورة سؤالٍ قال فيه: حدثوني عن

رجلٍ دخل الجنة، لم يُصَلِّ قَطُّ، فإذا لم يعرفه الناس سألوه: مَن هو؟، فيقول: أُصَيْرِم بني عبدالأشهل (عمرو بن ثابت بن وقش)، كان يأبى الإسلام على قومه، فلما كان يوم أحدٍ بدا له فأسلم، ثم أخذ سيفه فغدا. حتى دخل في عُرْضِ الناس، فقاتل حتى أثبتته الجراح، قال: فبينما رجالٌ من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به، فقالوا: والله إنَّ هذا لأُصَيْرِم! ماذا جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكرٌ لهذا الحديث فسألوه: ماذا جاء بك يا عمرو، أحَدَبٌ على قومك، أم رغبةٌ في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام آمنت بالله وبرسوله وأسلمت ثم أخذتُ سيفي، وغدوت مع رسول الله ﷺ فقاتلتُ حتى أصابني ما أصابني، فلم يَلْبَثْ أنْ مات في أيديهم، فذكروه للرسول عليه الصلاة والسلام، فقال: **إنَّه من أهل الجنَّة.**

القصة الثانية: قصةٌ حديثةٌ، رواها لي أحد كبار العسكريين عن موظفٍ أمريكي في إحدى الشركات الأمريكية العاملة في المملكة العربية السعودية، كان يشغل منصباً في الشركة، تأثَّر بمنظر المصلِّين وهو يراهم داخلين إلى المسجد أو خارجين منه بعد الصلاة، فأخذ يبحث في تعاليم الإسلام حتى اقتنع بها، فأعلن إسلامه، وبعد أسابيع رغب في العمرة، فذهب إليها مع رفقةٍ من زملائه السعوديين، وطاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، ثم وقف مع المسلمين لأداء صلاة العشاء، فمات في صلاته، في أطهر بقعة على وجه الأرض، ثم أذن أهله بدفنه في مكة، فسبحان الله

الذي نقل عبده هذا من الكفر إلى الإسلام، وأنعم عليه بحسن الختام!

أرأيتم كيف كان ذلك الشاب الذي رافقته في رحلة الطائرة حكيماً حينما قال: ربما تكون الخاتمة؟ يا لها من عبارة تنبيهٍ مهمَّة!

❀ ❀ ❀

آداب اجتماعية

قال حاتم الطائي يخاطب زوجته ماويَّة بنت عَفْزَر:

أماوِيَّ، إنَّ المالَ غادٍ ورائحٌ
ويبقى من المال الأحاديثُ والذِّكْرُ
أماوِيَّ ما يُغني الثراءُ عن الفتى
إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ
وقد علم الأقوامُ لو أنَّ حَاتِماً
أرادَ ثَراءَ المالِ، كان له وَفْرُ
غَنِينا زماناً بالتَّصَعلُكِ والغِنَى
وكلاً سقاناه بكأسيهما العَصْرُ
فما زادنا بغياً على ذي قرابةٍ
غِنانا، ولا أَزْرَى بأحسابنا الفَقْرُ

وما ضرَّ جاراً يا ابنةَ القوم فاعلمي

يُجَــاورني الاَّ يكون له سِــتــرُ

بعــينيَّ عن جــاراتِ قــوميَ غَـفْلَةٌ

وفي السَّمع منّي عن حديثهمُ وَقْرُ

وأقول: كرمٌ، وأدبٌ، وحفظ لحق الجار، أخلاقٌ أقرَّها الإسلام وزكّاَّها.

❁ ❁ ❁

إحصاء

قال: هنالك إحصاءٌ يدلُّ على كارثة أخلاقية.

قلت: ما هو؟

قال: خُذْ وتأمَّل.

١ ـ ٢٠٠ مليون، عَدَدُ مواقع الإنترنت في العالم.

٢ ـ ٩٩٪، مواقع جيدة، ومفيدة.

٣ ـ ١٪، مواقع سيئة جداً (إباحية).

٤ ـ ٨٣٪، من الصور المبثوثة في الإنترنت خليعة.

٥ ـ ١٦ ساعة يومياً، يقضيها بعض الشباب من الجنسين مع مواقع الإنترنت.

٦ ـ ٧٢٪ من مستخدمي مواقع الدّردشة في الإنترنت، يلبسون اقنعة ولا يفصحون عن شخصياتهم ولا يريدون إلاَّ العبث.

وحينما رآني صامتاً بعد أن سرد هذه الأرقام، قال لي: كيف يمكن الاستبشار والتبشير بالخير مع هذا؟؟

قلت: مع هذا وما هو أعظم من هذا يكون الاستبشار بالخير في أقوى درجاته عند المسلم.

إنَّ هذا الإحصاء يؤكد أن ٩٩٪ من المواقع جيد ومفيد.

قال لي: لا تستعجل، نسيت إحصائيَّة مهمة تجعل الحكم على الأمر صحيحاً.

قلت: ما هي، قال: ٩٠٪ من الشباب والشابات يهتمون بالمواقع السيِّئة.

قلت: مع ذلك فإن الاستبشار موجود بقوَّةٍ في نفوسنا.

قال: لعلك احتقرت نسبة ١٪ للمواقع السيئة.

قلت: نحن لا نحقر شيئاً من الشرّ، وأنا أعلم أن هذه النسبة تعني وجود مليوني موقع سيئ من المائتي مليون، ولكنَّ هذا لا ينفي وجود أضعافٍ مضاعفة لهذا الرقم من المواقع الجيدة حسب الإحصاء الذي ذكرت.

قال: نعم، ولكنْ ما الفائدة ما دام تسعون في المائة من الشباب يهتمون بالمليونين، ويغرقون في أوحالها.

قلت: إني أشك ـ أصلاً ـ في صحة هذه الأرقام، ولكنني أقول: حتى على افتراض صحتها نظلُّ مستبشرين.

قال: كيف؟

قلت: عندنا نحن ـ المسلمين ـ تقصيرٌ كبير في التربية، وتدريب أولادنا على مواجهة التيَّارات الجارفة في هذا العالم، وهو تقصيرٌ ناشئ من تقصيرنا في التطبيق الأمثل لتعاليم ديننا، ومن مبالغتنا في تضخيم مكانة ودور وقوة غير المسلمين في عصرنا هذا، ومعنى ذلك أننا تركنا مساحةً كبيرة من التأثير في نفوس أجيالنا لغيرنا بما يطرحون من مواد ثقافية وإعلامية وإعلانية منوَّعة لا تجد أمامها سداً من تربية قوية سليمة، ولا حاجزاً من التزام قويٍّ، وتطبيقٍ صحيح منا لشرعنا الحكيم فأتحنا للباطل فرصة ثمينة: وضيقنا مجال الثبات والقوة، والاستبشار في حياتنا.

هنا يأتي دور ما ندعو إليه من الاستبشار في تحقيق النتيجة الممتازة إذا سلكنا الطريق الصحيح إلى ذلك.

إنَّ المساحة التي يتحرك فيها الباطل كبيرةٌ جداً، ولكنَّ ذلك لا يعني أننا لا نستطيع أن نتحرك في مساحة الحقّ الموجودة في هذا الزمن.

راجع سوءَ واقع الناس الذين أرسل الله إليهم أنبياءه ورسلَه، لتعلم أن الاستبشار، والتبشير بالحق والخير ينطلق من منابع الخير الموجودة في ذلك الوقاع السيئ، ويظل ينتشر حتى يهزم الباطل، أو يُضعفَه ويقلِّل من مساحته التي يتحرَّك فيها.

قال: ما زلت أشعر بضخامة المسؤولية، وصعوبة الإصلاح.

قلت: ومن الذي قال إن طريق الإصلاح سهل، إنَّه صَعبٌ، ولكنه ميسَّر لمن صدق وأخلص واستبشر بنصر الله، وطوَّع نفسه للحقِّ قبل أن يخوض غمار الدَّعوة إليه.

ارجع إلى ما ورد في السيرة من طغيان الكفر والانحراف والفساد قُبيل انبثاق فجر الإسلام، ثم تذكَّر ذلك الرجل الطاهر النقي الذي كان يتعبَّد في غار حراء، بعيداً عن ضجيج الباطل وصخبه، واستعرض ما ورد عن المعاناة التي وجدها هو ومن آمن به حتَّى كان فتح مكة، فسوف ترى من ذلك عجباً.

لولا الاستبشار بنصر الله، واليقين بتأييده عز وجل، والإيمان الراسخ بالحقِّ الذي أرشد إليه عباده، لما قامت للإسلام قائمة مع تلك المساحات المعتمة التي كان يغطيها الباطل بظلامه الدَّامس.

إني أقول لك يا صاحبي:

«بشروا ولا تنفّروا» برغم الإحصاء المزعج الذي ذكرت.

وصية

أوصى عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ أهله حينما حضرته الوفاة بأمور منها:

فإذا متُّ فلا تبكينَّ عليَّ باكية، ولا يتبعني مادحٌ ولا نار، وشدُّوا عليَّ إزاري فإني مخاصَم، وشنُّوا عليَّ التراب شَنًّا، فإنَّ جنبي الأيمن ليس أحقَّ بالتراب من جنبي الأيسر، ولا تجعلُنَّ في قبري خشبةً ولا حجراً، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدرَ نَحرِ جزُور أستأنس بكم، لأنظر ماذا أراجع رُسُلَ ربِّي عز وجلَّ، ثم حوَّل وجهه بعد قوله هذا إلى الجدار، وجعل يقول:

اللهم أمرتَنا فعصينا، ونهيتنا فما انتهينا، ولا يسعنا إلا عفوك، ويقال: إنه وضع يده على موضع الغلّ من عنقه ورفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم لا قويٌّ فأنتصر، ولا بريءٌ فأعتذر، ولا مستكبرٌ بل مستغفر، لا إله إلا أنتَ، فلم يزل يردِّدها حتى مات رضي الله عنه وأرضاه.

❀ ❀ ❀

زوارق النجاة

الذين يغفلون عن وسائل الاتصال غير المرئيّة، يخسرون كثيراً، ويتعبون كثيراً، وربما وصلت بهم غفلتهم عن هذه الوسائل إلى الانقطاع الذي ينتج عنه الضياع، إنَّ مشكلةَ كثير من الناس، أنهم ينقطعون عن ربهم في خضمِّ حياتهم الصاخبة، وينسون (زوارق النجاة) التي تحسن تجاوز أمواج المحيطات.

جاءني شاب أديب شاعر بعد ترة غيابٍ طويلة، لم أعرفه أوَّلَ ما رأيتُه؛ لأن وجهه قد تغيَّر عمَّا كنت أعهد؛ كانت لحيته كثيفة

جميلة الشكل منسجمة مع ملامح وجهه، والآن رأيتُها في صورة تشبه صورة النّبات في أوائل ظهوره حينما يصيبه البرد القارس «القُرّ»، فيجعله بين الخضرة والصُّفرة، والنضارة والذبول، قد تناثرت على جانبي وجهه بصورة غير مريحة، نظرات عينيه تقول عن يأسه وقنوطه ما لا يُحتاج معه إلى حديث اللسان، وحينما عرَّفني بنفسه صدمَتني المفاجأة؛ أنت فلان؟ ما لي أراكَ على هذه الحالة من الوَهَن واليأس ماذا أصابك؟.

قال: أنا شقيٌّ، أنا انتهيتُ، لم يعد لي قيمة عند نفسي، ولا عند أهلي، ولا عندك أنت الآن، ولا عند ربي، أنا هيكل إنسانٍ ـ كما ترى ـ لا يمنعني من الانتحار إلا خوفٌ من التخليد في النَّار.

وانطلق في حديث طويل، وأنا أستمع إليه باهتمام، وأجد في كلّ كلمة يقولها ثغرة هائلة من (الانقطاع) عن مصدر السعادة الحقيقي.

ثم شكا إليَّ ديوناً تراكمت عليه بسبب فشله في بعض الأعمال.

كان قلقُه واضطرابُه أبرزَ شيء في شخصيّته، بل إنَّ قلقَه هو الذي كان يتحدَّث على لسانه.

طلب مني مساعدته مالياً، وإقراضه مبلغاً من المال يصدُّ به شكاوي الدائنين، وبعد لحظة صمتٍ طويلة لم أكن أجد أثناءَها كلاماً أبدأ به حديثي معه، قلت له: إنَّ مشكلتك ليست الدَّين الذي تتحدَّث عنه، ولا مصائب الحياة التي تشكو منها، إنَّما مشكلتك الكبرى أنتَ، قلبُك، مشاعرك، تفكيرك، هي مصيبتك العظمى أيُّها الفتى.

أنت انقطعت عن أعظم ما يريحك من هذا العناء؛ انقطعت عن الاتصال بالسماء، ولذلك أصبحتَ تعيش هذا الشقاء.

قال لي: أنا جئت أقترض مالاً، ولم أجئ لاستمع إلى مواعظ.

قلت له: الموعظة التي تسمعها هي التي ستساعدك في قضاءِ دينك، فاستمع إليَّ، وأحسن الاستماع، ودَعْك من العناد.

طأطأ برأسه، وسكت سكوتاً يدلُّ على أن الحياةَ بدأت تَدبُّ في قلبه وروحه.

قلت له: ما أخبار والديك؟، فانفجر باكياً وقال: منذ ستة شهور لم تكتحل عيناي برؤيتهما، ولم تسعد أذناي بسماع صوتيهما، وتبلغني الأخبار عن حزنهما الشديد، وعن لهجةٍ غاضبة يتحدَّث بها والدي عني.

قلت له: ويحك يا فلان، أنت والله تجمع الشقاء من أطرافه، كيف ترى النجاةَ في محيطٍ من الأحزان والمشكلات، قد حطَّمتَ أنتَ جميع زوارق النجاة فيه؟.

ثم قلت له: أنا أوجِّهك الآن إلى ثلاثة أمور ليس عندي لك غيرها.

١ ـ مراجعة علاقتك مع ربك سبحانه وتعالى، وعدم مقاطعة المسجد أبداً مهما كانت الشواغل، والموانع، فإنَّ هذا سيوقف تيار القلق الذي يجرفك.

٢ ـ العودة مباشرة إلى والديك، والارتماء عند قدميهما، وفتح صدرك لهما، وشرح أمورك لهما شرحاً مفصَّلا، والاعتذار إليهما، فإنك بذلك ستفتح من جديدٍ بوَّابة الدُّعاء الصادق المتصل بالسماء، بل إنك بهذه العودة إليهما ستجتثُّ نَبتَةَ الحيرة والشقاء التي آذتك بأشواكها.

٣ ـ الزم بعد كل صلاةٍ ابتداءً من هذا اليوم، الأذكار والأدعية الواردة عن سيِّد الخلق عليه الصلاة والسلام، وأكثر، ثم أكثر من الاستغفار، وردِّد صباحاً ومساءً الدعاء المأثور: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**» سبع مرات.

هيَّا قم راشداً موفقاً، ونفِّذ ما طلبتُ منك بلا تردُّد.

قال لي: والقرض الذي طلبته منك، قلت له ـ وأنا صادق ـ: لو كنت أملكه أو أملك جزءاً منه ما تأخَّرتُ، وإني أؤكد لك أيها الفتى أنَّ دَينك سيقضى بإذن الله إذا نفَّذْتَ ما نصحتك به.

وبعد أشهر جاءني ذلك الفتى في صورة مشرقة، ذكرتني به في حالته الأولى قبل الانتكاس، وهجم على رأسي يقبِّله، ويبكي، ويحلف بالله أنَّ الفرج قد بدأ معه منذ أن عزم بعد خروجه من عندي على زيارة والديه، وأخبرني عن دعاء أمه له في جنح الليل، وأقسم لي أنَّ أثر ذلك الدعاء كان يظهر في نهار اليوم التالي مباشرةً.

قلت له: لا تقسم على أمرٍ أنا علي يقينٍ منه، إنَّ الاتصال بالله عز وجلَّ هو أعظم أنواع الاتصال وأرقاها، وهو أفضل وسائل الراحة النفسية والهناء والسعادة في الدنيا، والنجاة في الآخرة.

إنَّ دعوات المحبين لك من والديك وزوجك، وأولادك، وأقاربك، والأبعدين الذين يحبونك، حبالٌ مضيئة لا تنقطع، فاحرص عليها.

❁ ❁ ❁

مَنْ رَبُّ هذا الجمل؟

«يقول عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما: أردفني رسولُ الله ﷺ خَلفَه ذات يومٍ، فأسرَّ إليَّ حديثاً، لا أحدِّث به أحداً من الناس، وكان أحبَّ ما استتر به الرسول ﷺ لحاجته هَدَف أو حائشُ نخلٍ، فدخل حائطاً لرجلٍ من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبيَّ ﷺ حَنَّ وذرفَتْ عيناه، فأتاه رسول الله عليه الصلاة والسلام فمسح ذِفراه، فسكت، فقال: **مَن رَبُّ هذا الجمل؟** فجاء فتىً من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله، فقال له: **أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكك اللهُ إيَّاها، فإنَّه شكا إليَّ: انك تُجيعه، وتُدئبُه**».

سبحانَ الله، جمل أبكم لا يعقل يشكو صاحبه؟! نعم، ذلك حَقٌّ يغفل عنه من البشر مَنْ يغفلون عن وسائل الاتصال غير المرئيَّة بربِّ العالمين.

إنَّ الفتى الأنصاري وهو يُتعب جمله بكثرة استعماله، لم يكن يظنُّ أنَّ هذه البهيمة ستكون قادرة على الاتصال المؤثِّر بهذا المستوى الكبير، وكذلك كثير من البشر في غفلتهم، وانشغالهم ببهرج الحياة الدنيا، ينسون وسائل الاتصال التي لا حجب أمامها.

«اتقوا دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

كم ملك ضاع ملكه بدعوة مظلوم، وكم فارس تهاوى مهزوماً بدعوة مظلوم، وكم تاجر خسر تجارتَه بدعوة مظلوم، وكم ذي منصبٍ يتعالى على الناس أصبح ذليلاً ضعيفاً بدعوة مظلوم!.

وكم ذليل أعزَّه الله بدعوة صالحةٍ من محبٍّ أو إنسان أحسنَ إليه.

وكم فقير أغناه الله بدعوةٍ وجَّهها هو إلى ربِّه، أو وجَّهها له غيرُه في ساعة استجابة.

وكم صاحب كربة فرَّج الله كربته بدعوة أطلقها في لحظة إخلاص.

❀ ❀ ❀

اثنا عشر ملَكاً

عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يصلي إذ جاء رجلٌ وقد حَفَزه النَّفَس فقال: الله أكبر، الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما قضى الرسول ﷺ صلاتَه، قال: **ايُّكم المتكلِّم**

بالكلمات؟ فأرَمَّ القوم، فقال: **إنه لم يقل بأساً**، فقال رجل: أنا يا رسول الله قلتها، فقال عليه الصلاة والسلام: **لقد رأيتُ اثني عشر مَلَكاً يَبتدرونَها، أيُّهم يرفعها**».

بَخٍ، بَخٍ، لهذا الفضل العظيم، أفلا يحقُّ لنا أن نردِّد بعد هذا «بشِّروا ولا تنفِّروا»؟

❁ ❁ ❁

إلغاء

يجب على الإنسان المسلم أن يُلغي من قاموسه اللغوي بعض الجمل والعبارات التي تقتل الطموح، وتصادم ما ندعو إليه من الاستبشار بالخير.

ـ أنا لا أستحق التقدير.

ـ ما دمت قد ارتكبت هذا الخطأ بعيداً عن الناس، فإنني إنسان فاشل، جبان، عاجز.

ـ أنا إنسان غبيٌّ، كيف استطعت أن أنجز هذا العمل المهم؟

ـ أنا لا أصلح لشيء في هذه الحياة فقد فشلت أكثر من مرة.

ـ ضاعت الفرصة الثمينة، لا مجال لفرصةٍ أخرى.

ـ هذه الفرصة كبيرة، مثلي سيعجز عن استثمارها.

ـ أين أنا من ذلك الإنسان الناجح، أنا لا أستطيع النجاح.

ـ ذلك إنسان متديِّن، حريصٌ على صلاته في المسجد، أنا لا يمكن أن أكون مثله.

ـ هذا نصيبي في الحياة، أتعثَّر دائماً.
ـ لو فعلت كذا، لكان كذا.

هذه العبارات المدمِّرة لشخصية الإنسان لا يجوز أن تجري علي لسان المسلم الواعي، ولا على لسان الإنسان الواعي من أي جنسٍ، وعلى أي دينٍ كان.

عندنا عبارات مشرقة في حالات الفشل، أو الانهزام، أو الحزن على فقد شيء.

«حسبنا الله ونعم الوكيل، لا حول ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم، قدَّر الله وما شاء فعل، الخيرة فيما يختار الله، إنَّ مع العسر يُسراً، لا بأس سيعوِّضني الله خيراً....».

لابد من إلغاء عبارات الفشل من قاموسنا اللغويّ في الحياة.

❀ ❀ ❀

معايير بلاتينية

ينادي كاتب أمريكي اسمه «سكوت فنترِلاً» إلى استخدام المعايير البلاتينية في الحياة، ويقول: داخل جدران المكتب الوطني للمعايير في واشنطن دي. سي، يوجد مقياسٌ بطول مترٍ واحدٍ مصنوعٍ من البلاتين، ويُعَدُّ هذا المقياس من أفضل وسائل القياس المِتريَّة الدقيقة، وتتم العودة إلى هذا المقياس في كل خلافٍ ينشأ عند تحديد الطول الفعلي للمتر.

ثم يقول: قد يسأل سائل: لماذا كان هذا المقياس من البلاتين؟ ويجيب بقوله: لأن البلاتين مادة ذات صفات خاصة، فهو لا ينكسر، ولا يصدأ، ولا يتآكل ولا يتمدَّد ولا يتقلَّص؛ إنه مادة ثابتة.

ثم ينصح هذا الكاتب بأن يقوم كلٌّ فردٍ منا بتعريف وتبني قيم أخلاقية مصنوعة من البلاتين، يمكن الرجوع إليها عند مواجهة أية مشكلة أخلاقية، ويؤكد الكاتب أنَّ معياره البلاتينيّ في الحياة مبنيٌّ على نظام «الإيمان المسيحي» ويصفه بأنه صعبٌ وفَذٌّ في آنٍ واحد.

ونقول نحن: كلام «سكوت» مهمٌّ في ضرورة الاعتماد على مقياس دقيق سليم ثابتٍ في الحكم على الأشياء، مع وجوب الاقتناع والتسليم بما يرشد إليه المقياس الثابت.

كلامٌ نهديه إلى المستغربين من أبناء أمتنا الذين يستسلمون إذا سمعوا اسماً غربياً أمريكياً أم أوروبياً، نهديه إليهم حتى يتوقفوا - مشكورين - عن التقليل من أهمية معيارنا الإسلاميّ الثابت.

نحن - ولله الحمد - نملك معياراً صحيحاً ثابتاً لو اهتدى إليه سكوت فنترلاً لجعله مقياسه في رحلة الحياة.

- ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ آية قرآنية.

- **«تركتكم على المحجَّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك»** حديث شريف.

ـ «الحكمة ضالة المؤمن، انّى وجدها فهو احقُّ بها» حديث شريف.

❦ ❦ ❦

متى يكون الاستبشار

استبشار المؤمن بما هو عليه من الخير لا ينقطع؛ لأنه قائمٌ على أمله في الله وثقته في رحمته سبحانه وتعالى؛ ولأنه بجناحي الخوف من الله والرجاء فيه، لا يُغفِلُه عن ربه رجاؤه في رحمته وعفوه، ولا يُصيبه باليأس خوفُه منه وخشيته؛ لأن الرجاء في الله يشرق في قلب المؤمن الخائف من الله.

إنَّ الله وحده هو الذي إذا خاف الإنسان منه فرَّ إليه، وتعلَّق به رجاؤه واتَّصلت به أسبابه ـ سبحانه وتعالى ـ ولهذا نقول في تمجيدنا لخالقنا عز وجل: «لا ملجأ لنا منك إلاَّ إليك».

استبشار المؤمن لا ينقطع؛ لأنه أصلٌ من أصول خلافته في الأرض، وبنائه لها، وعمارته لهذا الكون؛ لأن اليائس البائس لا يمكن أن يكون ذا عطاءٍ نافع، ولا صاحب عملٍ مفيد.

استبشار المؤمن لا ينقطع، فهو متصل بدنياه وآخرته، يستبشر في الدنيا بإيمانه، وصلاته، ودعائه، وذكره، وقرآنه وسنة نبيه ﷺ، وبإتقانه لعمله الدنيوي والأخروي، ويستبشر عند الموت بما يكشف له من فضل ربه عليه، ومغفرته له، ومظاهر النعيم التي تنتظره،

ويستبشر في الآخرة بما يمنحه الله من الثواب العظيم، والمغفرة والرحمة، والنعيم المقيم.

يقول تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران].

حياة موصوله بالاستبشار الذي لا ينقطع مهما كانت المصائب والأحداث، ومهما كان التعبير عن الألم والحزن والإحساس بالقَرْح - وهو الجرح -.

ومهما تجمَّعت ضدَّ المؤمن فرق الضلال، وتكالب عليه أعداء الحق والخير.

الاستبشار موجود برغم ذلك كله، بل إنه يكون حاضراً حضوراً قوياً في قلب المؤمن وحسّه حينما تشتد عليه الأحداث.

فالله سبحانه وتعالى امتدح في الآيات السابقات أولئك

المؤمنين الذين أصابهم القرح و﴿قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾، قد جمعوا لكم العدد الكثير، والعتادَ القويّ، والمكائد، والمؤامرات، وضجيج الدعايات، ووسائل الحرب النفسية المتعدّدة عبر وسائل الإعلام المتاحة، فماذا قالوا؟.

كلُّ هذه المظاهر العدائية المخيفة لم تستطع أن تجتثَّ شجرة اليقين والاستبشار بنصر الله وتأييده ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾، ولأن إيمانهم زاد ونما وصار قوياً فقد قالوا باطمئنان ويقين: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

متى يكون الاستبشار؟

يكون عند المؤمن في كل وقت، وفي كل مكانٍ، وعند أي حَدَثٍ شديدٍ من أحداث الدنيا.

❀ ❀ ❀

وجهٌ مستدير

من شعري:

أقــــول لمن زلَّ الطريق بخَطوه
ومن عــزمُــه عند الخطوب يُذابُ
سيمنحنا وجهُ الهلالِ استدارةً
ويفـتـح باباً في الظلام شــهــابُ

❀ ❀ ❀

رسالة وإمام

قال الإمام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ كلمته الشهيرة التي أوضح فيها رسالته بإيجاز:

«إنَّ الموقف الذي أقفه، والرسالة التي أدعو إليها كل واحد، وهي لا إله إلا الله، وأركان الإسلام الأساسية لعمل الخير وترك الشر، فإنْ صبرتم على هذه الرسالة، وثبتُّم عليها، فإن الله سبحانه وتعالى سينصركم على عدوكُم».

هذه الكلمات الواضحة لا تحتاج إلى شرح، ولا تأويل وتفسير، وميسورة سهلة، ولكنها ذات دلالاتٍ عظيمة، وهل كان الإسلام إلا دينَ يُسرٍ وسهولة ووضوح.

شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وصلاة وصيام، وزكاة، وحج.

أركان يقوم عليها الصَّرح الكبير، منها ينبثق عمل (الخير)، كلِّ الخير، ومَنْ عَمِلَ الخيرَ وتعلَّق به ترك الشرَّ، كلَّ الشر، وإن وقع في شيء منه تذكر، وتاب واستغفر، فعاد إلى الخير أقوى عزيمةً، وأكثر حرصاً.

هكذا أطلق الشيخ محمد بن عبدالوهاب دعوتَه، وأوضح رسالتَه بعيداً عن المبالغة والتزويق والادِّعاء، فسرت سريان الخصب الربيعيِّ في عروق الأشجار، وانتشت القلوب التي غُمست

في غفلتها وهواها زمناً ليس بالقصير؛ لأنها رسالة الإسلام التي تخاطب القلوب، وتوافق الفطرة السليمة التي فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليها.

وأمام هذا الوضوح واليُسْر والسهولة تتهاوى كل الأصوات المغرضة التي تتهم هذه الدعوة المباركة بما ليس فيها من التعصُّب الأعمى والغلوِّ، وادّعاءِ مذهبٍ جديد في الإسلام.

دعوة التوحيد، أقرب الدعوات إلى القلوب، فلا نامت أعينُ المرجفين، ولا سلمت أقلام الذين يكتبون بغير دليل، أولئك الذين يتحدَّثون عن التعصُّب، والمذهبيَّة الضيقة، والغلوِّ في ما يسمَّى الحركة الوهَّابية، وهم بعيدون عن معرفة الحقيقة، يقرؤون عن (الوهابية)، ولا يقرؤون كتب الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولا يتعبون أنفسهم في الرجوع إلى المراجع الصحيحة التي تناولت تاريخ هذه الدعوة، وسجَّلت سيرة صاحبها، ورصدت أساليب انتشارها في العالم.

إنَّ نقص الاستقراء هو المشكلة الكبرى في ساحات العلم والثقافة والفكر، وكم من رجلٍ غيَّر رأيه من النقيض إلى النقيض بعد أن اطَّلع على الحقائق في موضوع من الموضوعات، أو قضية من القضايا.

وإذا كانت القاعدة الفقهية الصحيحة تقول: «الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوُّره» فإنَّ مشكلة كثير من الناس إنما تأتي من الحكم على الشيء قبل تصوُّره، وقبل معرفة حقيقته.

وليست القصة التي تُروى عن الشيخ «عبدالله القرعاوي» حينما زار الهند إلا دليلاً واضحاً على خطورة نقص الاستقراء، حيث يقال إنه في زيارته للهند دخل مسجداً، حضر درساً لإمامه بعد الصلاة فسمعه يحذِّر الناس من خطورة مذهب جديد في الدين اسمه الوهابية، ظهر في نجد من الجزيرة العربية، وفيه خطورة على الإسلام والمسلمين، وكان مع القرعاوي كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب، فما كان منه إلا أن خلع الأوراق التي تحمل اسم المؤلف، وقدَّم الكتاب إلى الشيخ الهندي قائلاً: هذا كتابٌ وجدته أحببت أن آخذ رأي الشيخ فيه، ورحَّب به الرجل، وحينما حضر المجلس في اليوم التالي، سمع الشيخ الهندي يقول: هذا أخوكم من الجزيرة العربية، أعطاني هذا الكتاب، وقد رأيت فيه كتاباً واضحاً مختصراً في بيان عقيدة التوحيد الصحيحة، وقد اعتمدته للقراءة والشرح، وبعد الدرس سلَّم القرعاوي على الشيخ، وأعطاه الأوراق التي فيها اسم الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فتحوَّل ذلك الرجل إلى داعيةٍ مخلص لعقيدة التوحيد الخالية من الشوائب.

هكذا ينتقل الإنسان من الموقف إلى نقيضه حينما يطَّلع على الحقيقة، والأصل ألاَّ يستعجل الإنسان في الحكم، وأنْ يتوخَّى الدِّقة فيما يطلق من الآراء، وما قصَّة الطفيل بن عمرو الدَّوسي رضي الله عنه عنا ببعيد، فقد وضع في أذنيه القطن حتى لا يسمع كلام السحر الخطير من محمد بن عبدالله ﷺ، وفق ما

تروّج له قريش، ثم لام نفسه على ذلك، واستمع إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، فما سمع إلا كلام الحق، ودعوة الخير، فأسلم في مكانه.

كم من كاتب أو مثقَّف يضع في أذنيه ما هو أغلظ من القطن في زماننا هذا، فيضرب بأقواله ميامنَ ومياسرَ مثيراً للفتن، مروِّجاً للشبه.

نحن لا نتعصَّب لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولا ندعو إلى التعصُّب، وإنما ندافع عن حقٍّ واضحٍ كالشمس، وندعو إلى التثبُّت حتى لا نستسلم للباطل، ونصبح من الدعاة إليه، ومروِّجي أفكاره ونحن لا نعلم، وإذا حدث تعصُّبٌ أو غلوٌّ من شخصٍ ينتمي إلى فئةٍ أو دعوةٍ أو دين، فليس معنى ذلك أن نحكم على جميع المنتمين إلى ذلك الدين وتلك الدعوة أو الفئة بالتعصُّب والغلو، وأن نتهم ما يدعون إليه بذلك؛ لأن هذا يصبح ظلماً واعتداءً، وهل يفسد حياة الناس إلا الظلم والاعتداء؟

❀ ❀ ❀

النقد المتحامل

هنالك ناقد متحامل، وظيفته النَّيْلُ من الآخرين بدافع غيرة وحسد، أو بسبب موقفٍ شخصي لا علاقة له بالنقد، يظل يسقطه على كلِّ ما يتحدَّث به عن من ينقده، ومن أبرز صفات هذا الناقد المتحامل أنه لا يعتمد على معلومة صحيحة، ولا على قاعدة نقدية

سليمة؛ لأنَّ الهوى قد أعماه عن ذلك كلِّه، وهنالك متلقّفون لما يقوله ذلك الناقد المتحامل، يعملون على ترويجه، ويميلون إليه لأسبابٍ كثيرة لا تخرج عن دائرة الغيرة والحسد؛ لأن من الناس مَنْ يضايقه نجاح الناجحين، وإبداع المبدعين، فيصبح همُّه النيل منهم، ويفرح بكل نقدٍ متحاملٍ عليهم وإليك هذا المثال:

كان ابن الأعرابي اللغوي الناقد شديد الإعجاب بأبي العتاهية شاعر الزهديات الشهير، وقد مدحه في مجلسه ذات يوم، فقال له رجل: ما شعر أبي العتاهية بمستحق لما تقول، قال ابن الأعرابي: ولماذا؟ قال: لأن شعره ضعيف، فقال ابن الأعرابي ـ وكانت فيه حِدَّة ـ: الضعيف ـ والله ـ عقلك لا شعر أبي العتاهية، الأبي العتاهية تقول: إنه ضعيف الشعر، فوالله ما رأيت شاعراً قَطُّ أطبعَ ولا أقدر على بيتٍ منه، وما أحسب مذهبَه إلا ضرباً من السحر، ثم أنشد له:

قطّعتُ منك حبائل الآمالِ
وحَطَطْتُ عن ظهر المطيِّ رحالي

ووجدتُ بَردَ اليأس بين جوانحي
فأرَحتُ من حَلٍّ ومن تَرْحالِ

يا أيُّها البَطِرُ الذي هو من غدٍ
في قبره متمزِّقُ الأوصالِ

حَذَفَ المُنَى عنه المشمِّر في الهدى
وأرى مُناكَ طويلةَ الأذيَالِ

حِيَلُ ابن آدمَ في الأمور كثيرة
والموتُ يقطع حيلةَ المحتالِ
قِستُ السؤالَ، فكان أعظمَ قيمةً
من كلِّ عارفةٍ جرَتْ بسؤالِ
فإذا ابتُليتَ ببذل وجهك سائلاً
فابذُلْهُ للمتكرِّم المِفضالِ

ثم قال للرجل: هل تعرف شاعراً يُحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل: يا أبا عبدالله، جعلني الله فداءَك، إني لم أردُدْ عليك ما قلتَ، ولكنَّ الزُّهْدَ مذهبُ أبي العتاهية، وشعره في المديح ضعيف.

قال ابن الأعرابي: أفليس هو الذي يقول في مدح هارون الرشيد:

وهارونُ ماءُ المُزنِ يُشفى به الصَّدَى
إذا ما الصَّدِي بالريق غصَّت حناجرُهْ
وأوسطُ بيتٍ في قريش لَبَيتُه
وأوَّلُ عزٍّ في قريشٍ وآخرُهْ
وزَحْفٍ له تحكي البروقَ سيوفُه
وتحكي الرعودَ القاصفاتِ حوافرُهْ
إذا حميَتْ شمس النهار تضاحكتْ
إلى الشمس فيه بَيْضُه ومغافرُهْ

إذا نُكِبَ الإســـلام يومـــاً بنكبـــةٍ

فــهــارون من بين البـــريَّة ثائرُ

قال: فتخلَّص الرجل من الموقف بقوله لابن الأعرابي: القول ما قلتَ يا أبا عبدالله، وما كنتُ سمعت لأبي العتاهية مثل هذين الشعرين، وكتب الأبيات عنه.

هنا نرى أثر التسرُّع في نقل الأحكام النقدية المتحاملة التي لا تعتمد على دراسة الموضوع، أو الأبيات الشعرية، وإنما تعتمد على نقل الآراء (الطيَّارة) التي لا تقوم على معرفةٍ ودرايةٍ واستقراء.

ولذلك استطاع ابن الأعرابي أن يُزيل ذلك الوهم عن ذهن الرجل، فقول ذلك الرجل: عن أبي العتاهية: إنَّه ضعيف الشعر، قولٌ تائه في الفضاء، وكلمة عامة وافق بها الرجل هوى حسَّاد الشاعر وقد كانوا كثيرين في وقته، والدليل على أن حكم الرجل عائمٌ غير صحيح، سكوته أمام ابن الأعرابي الذي اعتمد على شواهد الشعر، لا على الموقف الشخصي من الشاعر، ومن المؤكد أن ذلك الرجل لم يقرأ شعر أبي العتاهية قراءة جادَّة بدليل أنه قال: وما كنتُ سمعت لأبي العتاهية مثل هذين الشعرين، سبحان الله!، فلماذا إذنْ تحكم على شعره بالضعف؟.

وقد رأينا كيف ظهر الرجل ضعيفاً أمام ابن الأعرابي، وحاول أن يخرج نفسه من الموقف بعد أن سمع أبيات الزهد، بادعائه أنَّ ضعف أبي العتاهية في المدح وليس في الزهد، ولكن الناقد العالم

بما يقول ردَّ عليه قوله هذا بنصٍّ شعري في المدح، فأسكته، بل جعله يعترف أنه لم يسمع بهذا الشعر من قبل، وتجاوز ذلك إلى أن كتب تلك الأبيات عن ابن الأعرابي.

هنا تتجلَّى لنا الصورة بوجهيها المختلفين، الوجه النقدي المعتم الذي لا يقوم على دليل، والوجه النقدي المضيء الذي يُطلق أحكامه بناءً على معرفة ودراية واطِّلاعٍ.

وصدق مَنْ قال: مَنْ حَفِظَ حجَّةٌ على من لا يحفظ.

لوحة شعرية

لطُريح بن إسماعيل في مدح أبي جعفر المنصور:

لما اتى الناسَ أنَّ مُلكَهُمُ
إليك قد صار أمرُه، سجدوا

رُزِقتَ من وُدِّهم وطاعتهم
ما لم يجدْه لوالدٍ وَلَدُ

أَثْلَجَهَم منكَ انهم علموا
انَّك فيما وَلِيتَ مجتهدُ

كنتُ أرى أنَّ ما وجدتُ من الفرحةِ، لم يَلقَ مثلَه احَدُ
حتى رأيت العباد كلَّهم
قد وجدوا من هواك ما أجدُ

قد طلب الناسُ ما بلغتَ فما

نالوا، ولا قاربوا وقد جَهِدُوا

يرفعك الله بالتكرُّم والتقوى

فتعلو، وأنتَ مُقتصِدُ

قد صدَّق اللهُ مادحيك فما

في قولهم فِرْيَةٌ ولا فَنَدُ

أنتَ إمام الهدى الذي أصلح الله به الناسَ بعدما فسدوا

وأقول: ما أسلَسَ هذه الأبيات، وأجملَها، وأرقَّها، لولا ما فيها من مبالغةٍ في بعض أبياتها، ولو كان يصح لأحدٍ أن يغير كلمات في شعر شاعٍ لغيرت قوله «قد صدَّق الله مادحيك» إلى «قد صدَّق الفعل مادحيك».

* * *

تلوين

● سُمع رجلٌ في عرفةَ يبتهل باكياً ويقول: اللهم ارحمني، فإنَّ رحمتك قريبٌ من المحسنين، فإن لم أكن محسناً فقد قلتَ وأنتَ العزيز الحكيم: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، فإن لم أكن ذلك، فأنا شيء، وقد قُلت: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، فإن لم أكن كذلك فأنا ـ حينئذ ـ مصابٌ بردِّ عملي وتعبي ونصبي، فلا تحرمني ما وعدتَ به المُصابَ من رحمتك يا أرحمَ الراحمين.

● يئس مذنبٌ من نفسه بسبب كثرة ذنوبه، وظنَّ أنه قد أصبح من الذين كُتب عليهم الشقاء، فسمع صوتاً يردِّد:

يا كبيرَ الذَّنب، عفوُ الله من ذنبك أكبَرْ

أكبر الأوزار في جانب عَفْوِ اللهِ يَصْغرُ

فانتعش أملُه، وكان خليقاً به ألاَّ ييْأس من مغفرة ربه الذي يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

وانظروا معي إلى كلمتي «أسرفوا» و«جميعاً»، لتستمتعوا ببلاغة القرآن الكريم وبيانه الفريد.

«أسرفوا» تعبيرٌ عن أقصى حالات الذنب والعصيان، «جميعاً» تعبيرٌ عن أقصى حالات التوبة والغفران، فما الذي يبقى بعد هذا؟ إنما تبقى عزيمةُ الإنسان.

لوحة شعرية

يقول حميد الضبي:

إذا أنتَ أُعطيت الغنى، ثمَّ لم تَجُدْ

بفضلِ الغنى، أُلفيتَ، مالَكَ حامدُ

إذا أنتَ لم تَعْرُكْ بجنبك بعضَ ما

يَريبُ، من الأدنى، رماكَ الأباعدُ

إذا الحِلْمُ لم يغلِبْ بك الجهلَ لم تَزَلْ
عليك بُروقٌ جمّةٌ ورَواعدُ
إذا العزمُ لم يفرُجْ لك الشكّ لم تزلْ
جَنيباً، كما استتلى الجنيبةَ قائدُ

يقال في لغتنا الخالدة: فلانٌ عَرَك بجنبه إساءةَ فلان، أي: تجاوز عنها، وكان بالمسيء رفيقاً.

وهذه من الصفات التي أوصى بها الإسلام، وطبَّقها في حياته سيِّد الأنام، عليه الصلام والسلام.

أما كلمة «جَنيب» فهي تعني الشيء الذي وُضع جانباً لعدم الاهتمام به، فالإنسان إذا لم يكن صاحب عزيمة فقد المكانةَ عند الناس.

❀ ❀ ❀

تواصلٌ لا ينقطع

حينما يرتبط الناس بالله عز وجلّ، ويوثّقون صلتهم بدينه الحقّ، دين الإسلام الذي بعث الله به جميع النبيين، وأتمَّه وأكمله بخاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام، وحينما يعلم الناس أن هذا الكون كلَّه سلسلة ذات حلقات متواصلة منذ أن خلقه الله إلى أن تقوم الساعة، يعلمون من حلقاتها ما يعلمون، ويجهلون منها ما يجهلون؛ حين ذلك يستطيع الناس أن يدركوا معنى التواصل

العجيب بين أجزاء هذا الكون الفسيح تواصلاً يثير العجب، ويرفع درجة اليقين، ويعمِّق الإيمان في القلوب.

إنَّ العلم الحديث الذي أتاح الله للبشر به وسائل الكشف عن بعض أسرار الكون قد وصل إلى عجائب يقف أمامها الإنسان عاجزاً، أجرامٌ سماوية عجيبة، وكواكب ونجوم، وذرَّات لا تُعَدُّ بمقاييس البشر ولا تُحصى، ومخلوقات عجيبة غريبة، وتواصُلٌ كوني قويٌّ لا يستطيع الإنسان أنْ يُلِمَّ بكل أبعاده، وإنما يطَّلع على بعضها من خلال ما أوحى الله إلى رسله، أو من خلال ما هيَّأ الله للناس من الاكتشافات العلمية المذهلة.

تواصلٌ لا ينقطع بين أجزاء الكون ونواحيه، وبين سمائه وأرضه، يجعل الناس سواسية كأسنان المشط، وإنما تفرِّقهم أهواؤهم، وجهلهم، وغفلتهم عن حقائق هذا التواصل العجيب.

يتعصَّب اليهوديُّ ليهوديته، والنصراني لنصرانيته، ويعلنون مواقفهم الرافضة للإسلام، الجاحدة لمكانة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وهم يجهلون أو يتجاهلون، حقيقة ذلك التواصل القوي بين إبراهيم ومحمد عليهما السلام ويتناسون أخوَّة إسماعيل الجدّ الأعلى لمحمد بن عبدالله، لإسحاق الجدَّ الأعلى لبني إسرائيل، ويتناسون ـ أيضاً ـ أنَّ إبراهيم أبو الأنبياء عليهم السلام جميعاً، وأنه هو الذي أعاد مع ابنه إسماعيل بناء البيت الحرام قبل أربعين سنة من بناء يعقوب ابن إسحاق للمسجد

الأقصى، كما يتناسون أنَّ المسلمين الذي يؤمنون بكل الأنبياء والمرسلين هم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام.

تواصلٌ لا ينقطع، نجد آثاره واضحة في عددٍ من الأحاديث التي وردت عن الصادق المصدوق عليه الصلاة السلام:

١ ـ إنَّ أوَّل بيتٍ وضع للناس مباركاً يُصَلَّى فيه: الكعبة، قال أبو ذر: ثم أيٌّ يا رسول الله؟ قال: **المسجد الأقصى**، قال أبو ذر: كم كان بينهما؟ قال: **اربعون عاماً**.. أخرجه البخاري ومسلم والنسائي.

٢ ـ **نزل الحجر الأسود من الجنَّة، وهو أشَدُّ بياضاً من اللَّبن، وإنَّما سوَّدته خطايا بني آدم**... حديث حسن أخرجه الترمذي.

٣ ـ روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال في الحجر الأسود: **والله ليبعثنَّه الله يوم القيامة له عينان يُبصر بهما، ولسان ينطق به، يشهد على من استلمه بحق**... حديث حسن أخرجه الترمذي وصححه الذهبي.

٤ ـ **ليُحَجَّنَّ هذا البيتُ، وليُعْتَمَرنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج**.. رواه البخاري.

٥ ـ **ليُهِلَنَّ ابنُ مريمَ بفجِّ الرَّوحاء، حاجّاً او معتمراً، أو ليَثنينَّهما**... أخرجه مسلم.

٦ ـ روى ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، مَرَّ بوادي الأزرق ـ وهو ما بين مكة والمدينة، فقال: **اي وادٍ هذا؟** قالوا:

وادي الأزرق، قال: كأني أنظر إلى موسى هابطاً من الثنيّة وله جُؤار إلى الله بالتّلبية، ماراًّ بهذا الوادي، ثم أتى على ثنيَّةِ هَرشَى، فقال: اي ثنِّية هذه؟ قالوا: ثنيَّة هَرشى، فقال: لكأني انظر إلى يونس ابن متى عليه السلام على ناقةٍ حمراء جَعْدة، عليه جُبَّةٌ من صوف، خِطام ناقتِه خُلْبَةٌ - أي من اللِّيف - ماراً بهذا الوادي يُلَبِّي... أخرجه البخاري ومسلم.

٧ ـ لا تُشَدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول، ومسجد الأقصى.... أخرجه البخاري ومسلم.

٨ ـ قال الرسول ﷺ يوم فتح مكة: إنَّ هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنَّه لم يحلّ القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحلّ لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة... أخرجه البخاري ومسلم.

٩ ـ إنَّ إبراهيم حرَّم مكة، ودعا لها، وإني حرَّمت المدينة، ما حرَّم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومدِّها بمثلَي ما دعا إبراهيم لأهل مكة.. أخرجه البخاري ومسلم.

١٠ ـ يأتي المسيح (الدجَّال) من قِبَل المشرق، وهِمّتُه المدينة، حتى ينزل دُبُرَ أحد، ثم تصرف الملائكة وجهه، قِبَل الشام، وهناك يَهْلِك.. رواه مسلم.

١١ ـ ما بين بيتي ومِنبري روضةٌ من رياض الجنة، ومنبري على حوضي... رواه البخاري ومسلم ومالك في الموطأ.

١٢ ـ **إن قوائم منبري هذا رَواتبُ في الجنَّة.... أي ثوابتُ فيها،** أخرجه النسائي.

١٣ ـ **إنَّ فُسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغُوطة إلى جانب مدينةٍ يقال لها: دمشق، من خير مدائن الشام...** أخرجه أبو داود.

١٤ ـ **سَيحان، وجَيحان، والفُراتُ، والنِّيل: كلٌّ من أنهار الجنَّة...** رواه مسلم.

١٥ ـ **اتاكم أهل اليمن أرقُّ افئدةً، وألينُ قلوباً، الإيمان يَمانٍ، والحكمة يمانية..** أخرجه البخاري ومسلم.

نصوص كثيرة ترحل بقلوبنا وأرواحنا عَبْر هذا الكون الفسيح، وتتجاوز بنا حدود الزمان والمكان، مؤكِّدة التواصل بين أجزاء هذا الكون الفسيح، وقد رأينا كيف اجتمعت لنا في النصوص السابقة ـ مع أنها غَيْضٌ من فَيضٍ ـ أطراف الكون، واقتربت مسافاته، وتواصلت أجزاؤه، وأرضه وسماؤه، فالحجر الأسود من الجنة، والأنهار الأربعة المعروفة في الدنيا سيحون وجيحون والفرات والنيل من أنهار الجنة، وما بين بيت النبي ﷺ ومنبره روضة من رياض الجنة، ومنبره عليه الصلاة والسلام على حوضه، وقوائم منبره ثابتة في طينة الجنة المباركة، وإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء حرَّم مكة ودعا لها ولأهلها، ومحمد عليه الصلاة والسلام، حرَّم المدينة ودعا لها ولأهلها، والرحال لا تشدُّ إلا ثلاثة مساجد، والدَّجال يحاول دخول المدينة فتمنعه الملائكة، والحج والعمرة

يستمران إلى البيت الحرام في مكة المكرمة بعد خروج يأجوج ومأجوج، وعيسى بن مريم عليه السلام سيُهلُّ بالحج أو العمرة، أو بهما معاً حينما ينزل إلى الأرض، ورسول الله ﷺ يخبر أصحابه أنه كأنما ينظر إلى موسى عليه السلام رافعاً صوته بالتلبية «لبيك اللهم لبيك» التي نردّدها الآن في حجنا وعمرتنا، هابطاً من ثنيَّة وادي الأزرق، ويخبرهم أنه كأنما ينظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقته الحمراء الجعدة التي كان خطامها من الليف، عليه جبة صوف وهو هابط من ثنية هَرشَى متجهاً إلى البيت الحرام وهو يردّد «لبيك اللهم لبيك»، وغوطة دمشق ستشهد الملحمة الكبرى بين المسلمين والروم، والإيمان يَمانٍ، والحكمة يمانية. ـ سبحان الله! ـ، ما هذا التواصل العجيب بين أطراف هذا الكون الا يدلُّ ذلك على عظمة الإله الواحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد؟ ألا يدل على أن شعور التآلف والتعارف والتعاطف، والتكاتف يجب أن يكون سائداً بين الناس على ضَوْءٍ من هدى الله عز وجل ومنهجه، وشريعته التي بعث بها أنبياءَه؟.

لماذا الفرقة، والخلاف، والمكابرة والانحراف، والطغيان والإجحاف، والاضطراب والإرجاف؟ لماذا كلُّ ذلك، مع أن الكون كلَّه يقول لنا بلسان حاله أنا لحمة واحدة، تتواصل أطرافي على فطرة الحقّ التي توجِّه الخلائق كلَّها إلى الله العليّ القدير.

تواصُلٌ لا ينقطع، فما أصغر الذين يحاولون أن يفرِّقوا بين الأجزاء المتواصلة المتلاحمة، من بني البشر الذين يخالفون منهج الله!.

وما أضيق أفكار الذين لا يدركون حقيقة هذا التواصل، وأضلَّ عقولهم!

تواصلٌ لا ينقطع، يؤكد لنا أن الكون الفسيح مظلَّة صغيرة لمن ينظر إليه بعين بصيرته التي ترى الحقَّ حقاً، والباطلَ باطلاً.

تواصُلٌ لا ينقطع، يقول للمؤمنين بربهم عز وجل، وأنبيائه ورسله جميعاً عليهم الصلاة والسلام: كيف يبقى لضيق الأفق، واليأس، والوهن مكان في نفوسكم بعد هذا؟!

❀ ❀ ❀

تلوين

● سمع خالد بن صفوان مكثاراً يتكلَّم، فقال: يا هذا، ليست البلاغة بخفَّة اللسان، وكثرة الهذيان، ولكنَّها إصابة المعنى، والقصد إلى الحجَّة.

● كان شبيب بن شيبة المنقريّ من أقوى الخطباء في زمانه، فأمره الخليفة المهديُّ ذات يومٍ ان يقتل أسيراً رومياً حكم عليه بالقتل، فخاف وأبى، وظهر عليه الارتباك، فقال أبو الهول الحميري في شبيب:

فَزِعْتَ من الروميِّ وهو مقيَّدٌ
فكيف إذا لاقيتَه وهو مُطْلَقُ

فَنَحٌ شبيباً عن قِراعٍ كتيبةٍ

وأَدْنِ شبيباً من كلامٍ يُلَفَّقُ

فما خطب شبيبٌ بعد هذين البيتين خطبةً إلا وظهر عليه الاضطراب.

وأقول: نسي الشاعر أنَّ كلَّ امرئٍ ميسَّرٌ لما خُلِقَ له، ولو تذكر دور حسان بن ثابت رضي الله عنه لما قال في شبيبٍ ما قال:

● قال ابن عباس رضي الله عنهما:

ما أهدى المسلم لأخيه أفضل من كلمة حكمة، يزيده الله لها هدى، ويرد بها عنه الرَّدَى.

* * *

تَعَبُ القلوب الحاسدة

يروي أحد الشعراء العباسيين، وهو أشجع السُّلَمي القصة التالية:

قال: جلس الخليفة المهدي للشعراء يوماً فأذن لهم وفيهم بشار وأبو العتاهية وغيرهما من الشعراء، وكنت معهم، وأنا آخذ عن بشارٍ وأعظِّمه، فلما سمع بشار بن برد ـ وهو كفيف البصر ـ صوت أبي العتاهية قال: يا أخا سُليم، أهذا المتحدث ذلك الكوفيّ الملقّب؟ قلت: نعم؛ قال بشار: لا جزى الله من جمعنا به خيراً، ثم قال المهدي لأبي العتاهية: أنشد؛ فقال بشار: ويحك يا أشجع أيبدأ به الخليفة أيضاً قبلنا، فقلت: قد ترى، فأنشد أبو العتاهية:

الا مـــا لسـيّــدتي مـــا لهـــا
أَدُلًا فـــأحـــمِلَ إدْلالَهـــا
والاّ فـــفـــيمَ تجلَّت ومـــا
جنيتُ، ســـقى الله أطلالهـــا
الا إنَّ جـــاريـةً للإمـــام
قـــد أُسكِنَ الحُبُّ سِـــربالَهـــا
مـــشتْ بين حُـورٍ قِـصـارِ الخُطا
تُجـاذِبُ في المشي أكـفـالَهـا
وقـــد أتعب الله نفـــسي بهـــا
واتعبَ باللَّوم عُـــذَّالهـــا

قال أشجع: فقال لي بشار: ويحك يا أخا سُليم! ما أدري من أيٍّ أمريه أعجب: أمن ضَعف شعره، أم من تشبيبه بجارية الخليفة، والخليفةُ يسمع، حتى أتى أبو العتاهية على قوله:

أتتـــه الخـــلافـــةُ منقـــادةً
إليـــه تجـــرِّرُ أذيالَهـــا
ولـــم تَـــكُ تَـصـلُـــح إلا لـــه
ولـم يـكُ يـصلُح إلاّ لـهـــا
ولو رامَـــهـــا احـــدٌ غـــيـــره
لـزلـزلـت الأرض زلـزالـهـــا
ولـو لم تـطعـــه بـنات القـلوب
لما قـــبلَ اللـهُ أعـــمـــالهـــا

وإنَّ الخليـــفـــة من بغض لا
إليــه ليــبُــغض مَنْ قــالهــا

قال أشجع: فقال لي بشار وقد اهتزَّ طرباً لما سمع:

ويحك يا أخا سُليم: أترى الخليفةَ لم يَطِرْ عن فُرُشه طَرَباً لما يأتي به هذا الكوفي؟

هكذا يفعل الحسد في القلوب، أبو العتاهية كان مشغولاً بموقفه أمام الخليفة المهدي، وبأبيات قصيدته السلسلة العَذبة، ذات الإيقاع الآسر الجميل، وبشار بن برد كان مشغولاً بما يحمل قلبه من الغيظ والحسد لأبي العتاهية، مع أنه قد اهتزَّ طرباً لما سمع منه، ولكنه لم يزد على أن سمَّاه بالكوفي دون ذكر اسمه أو كنيته.

مقام الحاسد ذليلٌ مهما حاول أن يعلو؛ لأن الحسد نارٌ، والنارُ تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكلُه.

❀ ❀ ❀

يا عجباً

يقول أبو العتاهية:

الا إنـــنـــا كـــلّـــنـــا بـــائـــدُ
وايُّ بـنـي آدمٍ خـــــالـــدُ
وبَدْؤُهم كـــان من ربِّهم
وكـلٌّ إلـى ربِّه عـــائـدُ

فيا عجباً كيف يُعصَى الإله
أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كلُ شيءٍ له آيةٌ
تدلُّ على أنه واحدُ

❦ ❦ ❦

روائح الجنة

لما سمع الجاحظ قول أبي العتاهية: «روائحُ الجنة في الشباب» قال: انظروا إلى قوله هذا فإنَّ له معنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير، وخيرُ المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرعَ من اللسان إلى وصفِه.

❦ ❦ ❦

ناقشوا أولادكم

ينطلق كثير من الآباء والأمَّهات في تعاملهم مع الأبناء والبنات من منطلق الحياة المعتادة في أسرة واحدة تحت سقفٍ واحد، ولذلك يقعون في سلبيات التعامل البارد، والأسلوب الجامد، والخطاب الجافّ دون قصدٍ إلى ذلك، ودون إحساسٍ بما يحدثه من آثار سلبيَّةٍ في نفوس أفراد العائلة.

ومن مظاهر هذا التعامل السَّلبي استخدام العبارات دون حرصٍ على انتقاء الأفضل والأنسب، وكأن العبارات المختارة مقصورة على الحديث مع الغرباء، أو الأصدقاء والمعارف من خارج دائرة الأسرة.

ومن مظاهره أيضاً عدم الاهتمام بترتيب جلساتٍ مع الأولاد للمناقشة فيما يشغل عقولهم وقلوبهم من الأفكار والأحداث، وللسؤال عن أحوالهم ومشاعرهم الخاصة بطريقةٍ تشعر بالاحترام والتقدير المتبادل، فمن المعلوم في واقع الحياة العائلية عند كثير من المسلمين، أنَّ الأب والأم يحرصان على اختيار أجمل العبارات، والأساليب الرَّاقية حينما يلتقيان بأصدقائهم وضيوفهم، ويظهران بمظهر الابتسامة والبشاشة وحسن التعامل والاحترام الكبير لمن يقابلان من الناس، ولكنهما لا يستخدمان شيئاً من ذلك في تعاملهما مع الأهل والأولاد.

كلمات الترحيب، والتقدير، ودماثة الخلق تنهال على بعض الناس، حينما يكونون في مجلس استقبال الضيوف، أو خارج المنزل، أما حينما يدخلون إلى مكان جلوس أفراد الأسرة فإن الصمت الثقيل، وأسلوب الأمر والنهي والنَّهر، والتأنيب تصبح سائدة في أجواء المنزل.

كم من أبٍ يتعامل مع مَنْ يخطئ من الموظفين، أو الأصدقاء والزملاء بالأعذار، وعبارات التشجيع وعدم المؤاخذة على الخطأ،

والتجاوز عن الزَّلل، ولكنه يتعامل بالقسوة، والعُنف، وعدم الإعذار مع خطأ الزوجة والأخوة والأخوات، والبنين والبنات.

وكم من أمٍّ تشتهر بين صواحبها بالمرح ودماثة الخلق، وحسن المنطق والتسامح والكرم، ولكنَّها لا تمنح شيئاً من ذلك لزوجها وأولادها الذين هم أحقُّ الناس بذلك منها.

قلت لأحد أولادي ـ بعد أن عاتبته ـ: ما لي أراك انقبضت حينما عاتبتُك؟ وقد بدا ذلك على ملامح وجهه، أتُراك تتضايق من توجيهي لك، وعتابي، وأوامري؟.

قال: يضايقني ما أسمعُه من عبارات التأنيب على كلِّ موقف سلبي مهما كان صغيراً؛ لأنني أرى فيها شيئاً من القسوة، وتحطيم الهمَّة.

قلت له: أنت تعلم أنني لا أريد إلا سعادتك ونجاحك، وأنني انطلق في حديثي معك من الحرص عليك، والحبِّ لك.

قال: نعم، أعلم ذلك، ولكنَّ أسلوب التأنيب المستمر، واستخدام اللهجة القاسية ـ أحياناً ـ يجعلك بعيداً عن تحقيق ما تريده لي من السعادة والنجاح.

قلت: أرجو أنْ تقبل أسفي، وأن تكون على ثقة بتقديري لك، ولشخصيتك المتميزة، وحسن تعاملك، وصدق خدمتك لي ولأمك وإخوتك.

قال لي مبتسماً: أنا واثق بك كلَّ الثقة، فأنت أبي، لك عليَّ حق التقدير والطاعة، فطاعتك عبادة يا أبي.

عندها شعرت بتقصيرنا في الإبداع في لغة التخاطب مع أهلنا، وفي مناقشة أولادنا مناقشة هادئة هادفة.

إنها دعوة صادقة إلى كل أبٍ ولكل أم؛ أن يحرصوا جميعاً على الارتقاء بلغة التخاطب العائلي، وعلى صرف قدرٍ كبير من الاهتمام بأساليب التعامل الراقية، والمناقشات الصريحة المؤدَّبة، إلى داخل بيوتهم؛ لأنهم يحققون بذلك من السعادة، والنجاح، والثقة في النفس لأهلهم، ما لا يمكن أن تحقّقه أساليب العنف والتأنيب.

لقد روى لنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ من حسن تعامل الرسول ﷺ مع أهله صغاراً أو كباراً، ومن عباراته النبوية النقيّة التي تخاطب بها مع أهله، ما يحقّق لنا وجود القدوة الصالحة في هذا المجال، فما يبقى علينا إلا الاقتداء والامتثال.

إنَّ هذا المنهج في مناقشة الأولاد، وحسن التعامل معهم هو الذي يربي للأمة أجيالاً قويَّة سويَّة قادرة على العطاء، جديرةً بمواجهة مؤامرات الأعداء.

❁ ❁ ❁

لوحة شعرية

من شعري:

هبني مع الحب تقديراً وإجلالا
يُخلص لك القلبُ أقوالاً وأفعالا
هبني حناناً وإشفاقاً أشدُّ بها
عزم الفؤاد إذا لاقيتُ أهوالا
فلن ترى كحنانٍ منك يدفعني
إلى العطاء، ويُحيي فيَّ آمالا
يهون منك عقاب حين يصحبه
رفقٌ يقوِّم مني بعضَ ما مالا
فربَّ نظرةِ عطفٍ منك تجعلني
أراكَ أَجْدَرَ إكراماً وإفضالا
لو حدَّث الرِّفقُ عن شيءٍ لقال لنا:
ما فاز مَنْ أغلظوا للناس أقوالا

❀ ❀ ❀

بين ابن مسعودٍ وأمِّ يعقوب

روى الناس عن ابن مسعود قوله: لعن الله الواشمات، والمستوشمات، والمتنمِّصات، والمتفلِّجات للحُسن، والمغيِّرات لخلق

الله، فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنتَ كَيتَ وكيت ـ وذكرت له ما قال ـ فقال: وما لي لا ألعَنُ مَنْ لعنَ رسول الله ﷺ؟ أليس هو في كتاب الله؟

فقالت: لقد قرأتُ ما بين اللَّوحين فما وجدتُ فيه ما تقول. فقال ابن مسعود: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه، أوَ ما قرأتِ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾؟، قالت: بلى، قال: فإنَّه قد نهى عنه، قالت: فإني أرى أهلك يفعلونه ـ تعني زوجته ـ.

قال: فاذهبي فانظُري، فذهبَتْ إلى زوجة ابن مسعودٍ رضي الله عنهما فنظرت فلم تر من حاجتها شيئاً، فقال ابن مسعود: لو كانت «أهلي» كذلك ما جامعتُها.

في هذا الخبر موقف مشرق لصحابي جليل، عالمٍ من علماء المسلمين، قارئ متقن من قرَّاء كتاب الله الكريم، راوٍ صادقٍ من رواة أحاديث سيد المرسلين، ولامرأة من المسلمات الواعيات القارئات لكتاب الله، والحريصات ـ كما يدلُّ الخبر السابق ـ على معرفة الحقّ لاتباعه.

موقفٌ مشرقٌ لقلوبٍ سليمة، بعيدةٍ عن الخَبَث وسوء الظن، تخفق بحب الحق وكلمته، واتباعه ومناصرته.

موقف تجلَّى في حوارٍ هادفٍ قائم على مقارعة الحجة بالحجة، للوصول إلى المَحجَّة، بعيداً عن الصَّخَب والضَّجَّة.

عبدالله بن مسعود، الذي أشاد به الرسول عليه الصلاة والسلام في أكثر من موقف، وكان وعاءً مُلئ علماً وفقهاً، ومعرفة بكتاب الله؛ مكّيّه ومدنيّه، ناسخة ومنسوخه، مناسباته وأسباب نزوله، يخبر الناس بأحكام شرعية تتعلَّق بالنساء، مبلِّغاً عن رسول الله ﷺ، واعظاً مرشداً، محذِّراً من الوقوع فيما يجلب لصاحبته اللَّعنَ والإبعادَ من رحمة الله تعالى:

- الواشمات: الوشم: أن يُغرَزَ الجلد بإبرة ثم يحشى بكحلٍ أو غيره فيصبح لونه أزرق أو أخضر، وكان يعد زينةً مستحسنةً في النساء.
- المتنمِّصات: النَّمصُ: هو إزالة الشعر من الوجه لغير حاجة ظاهرة.
- المتفلِّجات: الفلج هو تفريج ما بين الثنايا والرباعيات من الأسنان.

وكل ذلك تغيير لخلق الله لا حاجة إليه، ولربما استقبحه كثير ممن رآه.

هنا يصل الخبر إلى امرأة مسلمة من بني أسد، فيصيبها الذُّعر لهول ما سمعت، ولربما كانت على شيءٍ مما ورد في الحديث، أو أنها كانت مع نساءٍ فيهنَّ شيء من ذلك، أو أنَّها أرادت أن تستوضح حقيقة ما نقله الناس عن ابن مسعود، فالمهم في ذلك كلِّه أنها امرأة ذات بصيرة ووعي، وذات معرفة بكتاب الله تعالى

بدليل قولها لابن مسعود: لقد قرأت ما بين اللَّوحين فما وجدت فيه ما تقول، أي أنها قرأت المُصحف كاملاً، وهذا دليل على المستوى العلمي الذي تنطلق منه في حوارها مع ابن مسعود.

إنَّه المجتمع المسلم القائم على الوعي والبصيرة والحرص على طاعة الله ورسوله، والوضوح المنبثق من الثقة المتبادلة بين جميع المسلمين.

وفي قول ابن مسعود لها: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه، إيحاءٌ بحسن التعامُل، وحسن الظنّ بامرأة مسلمة جاءت تستوضح وتناقش، ودليلٌ على المستوى الرَّاقي من التعامل بين أولئك القوم الذين تعلَّموا في مدرسة النبوَّة، وتربَّوا على يد أفضل خلق الله محمد عليه الصلاة والسلام.

ويكون الجواب حاسماً مقنعاً للمرأة من حيث الحكم الشرعي بعد أن أرشدها ابن مسعود إلى الآية الجامعة المانعة: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾، فعند هذه الآية وقف نقاش أم يعقوب، وصدَّقت ما قال هذا العالم الصحابي الجليل، وبقي عندها شيء من حظٍّ النفس البشرية، أو توجيهٌ أرادت أن تسمعه ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، ومَنْ يدري؟ ربما أنها قد سمعتْ قبل أن تأتي إليه من يقول لها: هذا ابن مسعود يروي هذا الحديث، ويحذِّر من هذه المخالفات، وأهله يقعون في ذلك داخل

منزله، فأرادت أن تصل إلى الحقيقة بنفسها حتى تكون على بصيرة من أمرها، فقالت: فإني أرى أهلك يفعلونه.

إنه الوضوح الجميل، والصَّفاء الروحي الذي يجعل الحوار يجري بهذه الصورة البديعة؛ ولذلك لم يغضب ابن مسعود، وإنما وجَّهها إلى ما تريد برضا نفسٍ واطمئنان قلب: فاذهبي فانظري.

اذهبي الآن مباشرة لترى أهلي، إنْ كانوا على شيء مما تظنين، كلام الواثق من أهله، الحريص على ألاَّ يبقى في نفس أم يعقوب شيء من ريبةٍ أو شكٍ يسبِّب لها إثماً، ويكسبها ذنباً.

لكأني بها بعد أن نظرت إلى زوجة ابن مسعود تستغفر الله مما قالت فيها، ومما ظنَّتْ بها، لقد خرجت وهي مقتنعة ـ كلَّ الاقتناع ـ بأنها جاءت إلى بيتٍ مسلم يعرف ما له وما عليه.

وأراد ابن مسعود أن يؤكد لكل من يطّلع على هذه القصة من الناس على مدى الأزمان أنه وقَّاف عند شرع الله مهما كان حبُّه لزوجته، فقال: لو كذلك ـ أي فيها شيء من وَشْم أو نَمصٍ أو تفلُّجٍ ـ لما كان نصيبها مني إلا الهجر، حتى تقلع عما هي عليه.

صورةٌ مضيئة، تؤكد لا ما تملكه أمتنا من عوامل القوَّة التي يمكن أن تنهض بها من كبوتها في هذا العصر.

لنا همـــة الإيمان بالله، عندها

ينافس مـا تروي الأساطير واقع

❀ ❀ ❀

اعلم، إن كنتَ لا تعلم

جسمك يستقبل قدراً كبيراً من الأشعة الكهرومغناطيسية يومياً، تهديها إليك الأجهزة الكهربائية التي تستخدمها، والآلات المتعددة التي لا تستغني عنها، والإضاءة الكهربائية التي لا تحتمل أن تنطفئ ساعةً من نهار.

أنت جهاز استقبال لكميّات كبيرة من الأشعة الكهرومغناطيسية، أيْ أنك مشحون بالكهرباء وأنت لا تشعر.

لديك صداع، وآلام مختلفة، وشعور بالضيق، وكسلٌ وخمول؛ لا تنسى وأنت تشعر بشيء من ذلك هذه المعلومة مهمة.

كيف الخلاص؟.

باحث غربيٌّ غير مسلم توصَّل في بحثه العلمي إلى أن أفضل طريقة لتخلُّص جسم الإنسان من الشحنات الكهربائية الموجبة التي تؤذي جسمه أن يضع جبهته على الأرض أكثر من مرة؛ لأن الأرض سالبة فهي تسحب الشحنات الموجبة، كما يحدث في السلك الكهربائي الذي يُمَدُّ إلى الأرض في المباني لسحب شحنات الكهرباء من الصواعق إلى الأرض.

ضع جبهتك على الأرض حتى تفرغ الشحنات الكهربائية الضارَّة.

ويزيدك البحث بياناً وإدهاشاً حين يقول: الأفضل أن توضع الجبهه على التراب مباشرة، ويزيدك إدهاشاً أكبر حينما يقول: إنَّ

أفضل طريقة في هذا الأمر أن تضع جبهتك على الأرض وأنتَ في اتجاه مركز الأرض؛ لأنك في هذه الحالة تتخلَّص من الشحنات الكهربائية بصورة أفضل وأقوى، وتزداد اندهاشاً حينما تعلم أن مركز الأرض علمياً، مكة المكرمة، وأن الكعبة هي محور الأرض تماماً، كما تثبت ذلك الدراسات الجغرافية باتفاق المتخصصين جميعاً.

إذن... فإنَّ السجود لله في صلواتك - أيها المسلم الغافل - هو الحالة الأمثل لتفريغ تلك الشحنات الضَّارة.

وهو الحالة الأمثل لقربك من خالق هذا الكون ومبدعه سبحانه وتعالى.

❀ ❀ ❀

الفاصلة في القرآن الكريم

قارئ يقرأ القرآن الكريم، يتلو آية من سورة المائدة، وأعرابيٌّ يستمع إليه استماع المتأمِّل، المتذوِّق بسليقته العربية الصافية لجلال القرآن وجلاله؛ القارئ يرتل: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً..﴾ كان الأعرابي مطأطئ الرأس يكاد يهوي بوجهه على الأرض تأثُّراً بما يسمع، حتى إذا سمع القارئ يختم الآية بقوله: «والله غفور رحيم».

رفع رأسه مستنكراً، وقال مبادراً: ما هذا فصيح!! كيف يحدث هذا؟!، فتنبَّه القارئ إلى ما قال الأعرابي، وتنبَّه لخطئه

فقال له: ليست كذلك يا أعرابي، وإنما هي ﴿واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.﴾، فتألَّق وجه الأعرابي سروراً وقال: بَخٍ بَخٍ، والله لقد عزَّ فحكم فقطع.

هذه الجمل الأخيرة من الآيات القرآنية تُسمَّى عند علماء البلاغة «الفاصلة»، وقد أولَوها عناية كبيرة، وتحدَّثوا فيها عن التناسب، ومراعاة النظير، وأشاروا إلى التوشيح، والإرصاد، فوصلوا إلى كثير من النكت البلاغية البديعة في القرآن الكريم، أشار إليها من كتبوا في هذا الباب مثل الأستاذ محمد الحسناوي في كتابه: الفاصلة في القرآن.

كنوز قرآنية، كم نحرم منها أنفسنا وأولادنا في عصر الفضائيات والشاشات العنكبوتية الملوَّنة.

* * *

الكهرباء والإنسان

ترتبط كثير من الأمراض الشائعة بين الناس في هذا العصر بالشحنات الكهربائية التي تؤثر في جسم الإنسان تأثيراً كبيراً، وتجعله «ضيِّق الصدر» متقلِّب المزاج، وتصيبه ببعض الأمراض التي ينتج عنها اضطراب في وظائف كثير من أعضاء الجسم.

لاحظ باحث أمريكي اسمه هانسل عام ١٩٣٠م أن أحد مساعدي المختبر يشعر بتقلُّبٍ في المزاج، وبعد فترة من المراقبة

تأكد له أن السبب في ذلك عمله قرب مولدٍ كهربائي، فإذا كان استقطاب المولِّد موجباً اسودَّ مزاج الرجل وشعر بالاكتئاب وصار سريع الغضب عدائياً، وإذا كان استقطاب المولِّد سالباً، أصبح صافيَ المزاج وشعر بالنشوة والحيوية، والكهرباء فيها ذرات موجبة، وذرَّات سالبة، ولكلٍّ منه أثره الفعَّال في جسم الإنسان ووظائفه.

وهنالك بحوث علمية كثيرة درست ما يُسمَّى بـ (الأيونات الكهربائية السالبة والموجبة)، والأيونات جمع (أيون) وهي القطعة الصغيرة التي تحمل شحنة كهربائية موجبة أو سالبة، وهي توجد بنسبة ١٢ أيون (قطعة) موجبة، مقابل ١٠ أيونات سالبة، وتتفاوت هذه النسب تفاوتاً كبيراً من مكانٍ إلى آخر حسب الضغط الجوِّي، والرياح السائدة، والإشعاع الأرضي، والتلوُّث.

الشحنات السالبة ذات أثر إيجابي في الإنسان؛ يشعر معها بانشراح الصدر، والنشاط والحيوية، وهذا ما يحدث في الأماكن الغنية بها مثل شواطئ الأنهار والبحار، والجبال، والشلاَّلات، والمساحات الخضراء، أما الشحنات الموجبة التي تكثر في أماكن توليد الطاقة الكهربائية، وفي أماكن وجود الأجهزة الكهربائية المختلفة، كالأفران، وأجهزة التكييف، وأجهزة التلفاز والحاسب الآلي، فإنها سببٌ في ضيق الصدر، والشعور بالكسل والخمول، وانحراف المزاج.

بل إن الشحنات الموجبة تكون سبباً في بعض الأمراض العضوية، كأمراض المرارة، والكبد، والرئة، وأمراض الصدر المختلفة، وقد أجريت تجارب علمية دقيقة على ذلك.

وقد أثبتت الدراسات حول هذا الموضوع وجود علاقة قوية بين الخلافات الزوجية، والعائلية، وبين «الأيونات» الكهربائية الموجبة التي تتولَّد من الأجهزة، ومن المواد المختلفة المستخدمة للنظافة في المنزل، ومن فراش الأرض الاصطناعي «الموكيت»، ومن الملابس المصنوعة من المواد الكيماوية، كالنايلون وغيره، ومن ملمِّعات الأثاث التي تستخدم بكثرةٍ في المنازل.

وتؤكد دراسات عدَّة في أمريكا أنَّ الهواء داخل المنزل «النموذجي» في أمريكا الشمالية ملوث بمقدار أربعة أضعاف التلوُّث الموجود خارج المنزل، وهذا ما يفسِّر الارتفاع الكبير في نسبته ٨٠٪ من أمراض الرئة بين النساء؛ لأنهن يمضين أكثر وقتهن داخل تلك المنازل، والسبب في ذلك كثرة الأجهزة والأدوات المولِّدة للشحنات الكهربائية الموجبة.

وتفيد الدراسات إلى أن الإكثار من المواد الطبيعية كالقطن، ومن شلالات المياه والنافورات داخل المنازل وفي الحدائق والأماكن العامة يساعد على زيادة الشحنات السالبة التي تنفع الإنسان.

ونقول:

ربما نستطيع أن ندرك الآثار السلبية لهذا التقدم الصناعي الهائل في عالم اليوم، وأن نعيد النظر في طريقة استخدام الوسائل الحديثة في منازلنا، حينما نعرف قيمة تلك الدراسات العلمية التي ترشدنا.

❀ ❀ ❀

تلوين

● قال قَزَعةُ بن يحيى: قال لي عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: هَلُمَّ أودِّعك كما ودَّعني رسول الله ﷺ: **أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيمَ عملِك.**

● صخر بن بن وَدَاعةَ الغامدي ـ رضي الله عنه ـ يحدِّث عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا بعث سريَّةً أو جيشاً بعثهم أوَّلَ النَّهار. وكان صخر رجلاً تاجراً، وكان يبعث تجارته من أوَّل النهار فأثْرى وكثُر مالُه، وهو راوي الحديث: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**».

● قيل لابن الأعرابي، لماذا سُمِّي السفر سفراً؟ قال: لأنه يُسفِرُ عن أخلاق القوم، ويكشف عن طباعهم.

● قيل لبعض الأعراب: ما اسمك؟ قال: قُراد؛ قيل: لقد ضيَّق عليك أبوك بهذا الاسم، قال: إن ضيَّق الاسم فقد وسَّع الكُنية، قيل: وما كُنْيتُك؟ قال: أبو الصَّحارى.

● لما تزوج علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ النَّهشليَّة بالبصرة قعد على سريره، وأقعد الحسن عن يمينه، والحسين عن شماله، وأجلس ابنه محمداً المعروف بابن الحنفيَّة أمامه على الأرض، فخاف أن يجدَ في نفسه شيئاً من ذلك فقال: يا بنيَّ أنتَ ابني، وهذان ابنا رسول الله ﷺ.

وأقول: إنَّ هذه الفطنة، وهذا الأدبَ الجمَّ، وهذه التربية الواضحة الرَّاقية هي التي جعلت العَلاقةَ بين الإخوة الثلاثة مثالاً للاحترام والمودَّة والتقدير كما هو معروفٌ في سيرتهم ـ رضي الله عنهم ـ جميعاً.

❀ ❀ ❀

بين بشَّر ونَفَّر

البَشَر: الخَلق، يقع على الأنثى والذكر والواحد والاثنين والجمع لا يُثنَّى ولا يُجمعَ، إلاَّ أنَّه تصح تثنيتُه لأنها وردت في القرآن الكريم، وهو مرجع اللغة العربية الأوَّل قال تعالى: ﴿**أنؤمن لبشرين مثلنا**﴾، والجمع: أبشار.

البَشَرة: أعلى جلدة الرأس، والوجه، والجسد من الإنسان، وهي التي عليها الشعر.

وفي المثل: إنما يُعاتَبُ الأديم ذو البشرة.

وفي الحديث: «**لم أبعث عمَّالي ليضربوا أَبشاركم**».

وبَشَرَ الأديمَ يَبْشُره بَشراً: قَشَر بَشَرتَه التي عليها الشعر.

في الحديث: «من أحبَّ القرآن فليبشر»، أي: ليفرَح، ويسر أراد أن محبة القرآن دليل على محض الإيمان من بَشَرَ يَبْشَرُ ـ بالفتح ـ.

أما مَنْ رواه بالضمّ «فَليَبشُرْ»: فهو من بَشَرتُ الأديمَ أبشُره إذا قَشَرتَه بالشَّفرة، فيكون المعنى:

فَلْيُضَمِّر نفسَه للقرآن، أي: يُقلّل من الطعام؛ لأن الإكثار من الطعام يُنسي وقد قيل:

«البِطنَةُ مُذهِبَةٌ للفِطنة».

ما أحسنَ بَشَرتَه!، أي: سَحنَاءَه وهيأتَه.

وأبْشَرتِ الأرضُ: إذا أخرجتْ نباتَها.

وأبشَرَت إبشاراً: بُذِرَتْ فظهر نباتُها حَسَناً، فيقال عند ذلك: ما أحسنَ بَشَرتَها!

باشَرَ الأمرَ: وَلِيَه بنفسه، ومن قول علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: فباشِروا روح اليقين.

البِشْر: الطَّلاقة، وقد بَشَرَه بالأمرِ، وبَشَّرَه: سَرَّه وفرَّحه به، يقال: بَشَرْتُه وبشَّرْتُه، فأبشَر، واستبشَرَ وتبشَّرَ وبَشِرَ: أي فَرِحَ وأظهر السرورَ بما سمع من البِشارة.

وفي القرآن الكريم: فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وفيه أيضاً: وأبشروا بالجنة، وفي القرآن كذلك: يا بُشْرايَ هذا غلام.

البِشَارةُ: إذا أُطلقَتْ فالمقصود بها الخير دائماً، وإنما تكون البِشَارةُ بالشرِّ إذا قُيِّدت به، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وهي بقصد التَّبكيتُ والتهكم، كما تقول لمن تهدّده: تحيَّتُك الضرب، وعتابُك السيف، وبِشارتُك عندي العقاب، ولله سبحانه وتعالى المثل الأعلى.

البُشْرَى: إسمٌ للبشارة بالخير، وفي القرآن: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾.

بَشَرتُه بمولودٍ وبشَّرتُه: أي أخبرته بخبرٍ يُفرِحُه ويسرُّه، ولا يُقال بشَّرتُه بموت أحدٍ من أهله.

أتاني أمرٌ بَشِرت به: أي فرحتُ وسُررتُ.

بَشَرني فلانٌ بوجهٍ حَسَنٍ: لقيني مبتسماً، وهو حَسَنُ البِشْر، أي: طَلق الوجه.

المبشِّرات: الرياحُ التي تَهُبُّ بالسَّحاب وتبشِّر بالخير والغيث، وفي القرآن: ﴿وَمِنْ آيَاتِه أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ وفيه أيضاً: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِه﴾.

يَبشُرُك، ويُبَشِّرُك: يَسرُّك ويُفرِحُك، وأصلُ ذلك: أنَّ الإنسان يستبشر، وأنَّ بَشَرتَه تنبسط عند السرور.

التَّباشير: طَرائقُ ضوء الصبح في الليل، وتباشيرُ الصُّبح: أوائلُه، يقال: كيف كان المطر وتَبشيرُه: أي أوّلُه وبدايتُه.

البَشارةُ ـ بفتح الباء ـ الجمال والحسن، وامرأة بَشيرةُ الوجه إذا كانت جميلةَ الوجه.

البَشير: الحسن الوجه، والمبشُورة: الجاريةُ الحسنةُ الخَلق واللون.

هكذا ترحل بنا كلمة البِشْر هذه الرِّحلة الماتعة لتدلَّنا على موضع البلاغة في قول الرسول ﷺ «بَشِّروا»، حيث اختار هذه الكلمة بكلِّ ما تحمله من معاني البشارة، والفرح والسرور، والخير والحبور.

أما الكلمة الأخرى التي جاءت في الحديث مصحوبةً بـ (لا) الناهية فهي ذات دلالاتٍ وأبعادٍ أخرى، «لا تنفِّروا».

النَّفْرُ: التفرُّق، يقال: نَفَرتِ الدَّابَّة، تَنفِرُ وتَنفُر نِفَاراً ونُفوراً، ودابةٌ نافِر.

وكلُّ جازعٍ من شيءٍ نَفُورٌ.

وفي حديث حمزة الأسلمي: نُفِّرَ بنا في سَفَرٍ مع رسول الله ﷺ، أيْ: تفرَّقتْ إبلُنا ونفَرَتْ، يقال: أُنفِرَ بنا، أي: جُعِلنا مُنفِرين ذوي إبلٍ نافرة. ومنه ما ورد في قصة هجرة زينب بنت محمد عليه الصلاة والسلام «فَأَنْفَر بها المشركون بعيرَها حتى سقطتْ».

ظَبْيٌ نافِر: أي أنَّه شارد، وظَبْيٌ نَيْفُور: شديدُ النِّفار.

استَنفَر الدَّابَّة: أي نَفَّرها.

وفي القرآن الكريم: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾.

نفـر ينفـر نفـوراً ونفـاراً: إذا فـرَّ وذهب، وفي الحـديث: «**إن منكم منفِّـرين**» أي: يَلقـون الناس بالغِلظَة، والشـدَّة فـينفِـرون من الإسـلام والدِّين، وفي حديث عمرَ بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ ورد: لا تنفِّرِ الناس.

ومما رُوي في السيرة أنَّ أعرابياً سأل الرسول ﷺ مالاً وعنده بعض أصحابه، فأعطاه درهمين، فأظهر الأعرابيُّ التَّسَخُّطَ من هذا العطاء وقال كلاماً لا يليق بمقام النبوَّة، فهمَّ بعض الجالسين بَزَجْرِه، والإغلاظ له في القول، فنهاهم الرسول ﷺ، ودعا إليه الأعرابي وزادَه في العطاء فرضي واستبشر، وطلب منه الرسول عليه الصلاة والسلام أن يُظهِرَ رضاه واستبشاره للصحابة؛ لأنهم قد غضبوا منه، فعاد إليه الأعرابي، وقال موجِّها حديثه إلى رسول الله ﷺ: أجْمَلْتَ وأكملتَ، جزاك الله من رجلٍ خيراً، وانصرف.

هنا التفت معلِّم البشرية الخير عليه الصلاة والسلام وقال لأصحابه موجِّهاً: «**مَثَلي ومثلكم مع هذا الأعرابي كمثل رجلٍ نَدَّ له بعير، فجعل الناس يلحقونه معه ليمسكوه، والبعير يزدادُ «نِفَاراً»، فقال للناس: دعوا لي بعيري، ثم اخذ شيئاً من حشائش الأرض وامسك بعيره**».

هنا تبرز لنا دقة اختيار البلاغة لكلمة «**لا تنفِّروا**».

هكذا تكون رحلة الإمتاع البيانيّ، والتوجيه الدَّعويّ، في الحديث النبويّ، عند الذي قال: «**أنا أفصح العرب بَيْدَ أني من قريش**»، وقال: «**بشّروا، ولا تنفّروا**».

❁ ❁ ❁

تنبيه

قال الأشعث بن قيس لشُريحٍ القاضي: لَشَدَّ ما ارتفعتَ، أي: صار لك مكانةٌ وجاه، قال شريح: وهل ضَرَّك ذلك يا أشعث؟، قال: لا ، قال شريح:

فأراك تعرف نعمة الله عليك، وتجهلها على غيرك.

❁ ❁ ❁

توقيع

جعفر البرمكيّ، وقَّع على ورقةِ شكوى من أحد عُمَّاله: قد كَثُر شاكُوك، وقلَّ شاكروك، فإمَّا عَدَلْتَ، وإما اعتزلتَ.

❁ ❁ ❁

تلوين

● امتدح شاعر اسمه أبو أسماء عليَّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقال:

وجــدنا عليــاً إذ بَلَونا فَــعــاله

صــبـوراً على اللأواءِ صَلبَ المكاسـرِ

هو اللّيثُ إن جــرَّبتَــه وندبتَــه

مشى حاسراً للموتِ أو غيرَ حاسرِ

فقال له علـي: رحمــك اللــه يا أبا أســماء، وأســمعكَ خيـراً أو أراكَه، فإنَّك من قومٍ نُجبَاء، أهل حِسْبةٍ ووفاء.

ووهب له مملوكاً جائزة له.

وحينما مدحه كعب بن زهير بشعرٍ فيه:

صِـهــرُ النبـيِّ، وخـيــر الناسِ كلُّهمُ

فكلُّ مَنْ رامَــه بالفــخــر مـفــخــورُ

وهبــه عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ فـرسـاً، وأجـازه جـائـزةً سنيَّــةً وكساه.

● قال عبدالله بن جعفر لابنته حين زواجها:

يا بُنيَّة، إياكِ والغَيْرةَ.... فإنها مفتاحُ الطَّلاق

وإياكِ وكثرةَ المعاتَبَـة.... فإنها تُورِثُ البِغْضَة

وعليكِ بالزينةِ والطِّيب

واعلمي أن أزينَ الزِّينةِ الكُحل، وأطيبَ الطِّيب الماء.

● قال رجلٌ لآخر: أنتَ بُستان الدنيا.

فأجابه: وأنتَ النَّهر الذي يشرب منه البُستَان

❀ ❀ ❀

الكلمة الطيبةٌ

واحة لا تعرف الذبول

أين نحن من هذه الواحة الخضراء، وظلالها الوارفة، وأنهارها الجارية، ونسيمها العليل؟ أين نحن من أزهارها الفوَّاحة بأطيب الشذا، وعصافيرها الشادية بأجمل الألحان.

الكلمة الطيبة صدقة؛ هكذا يتصدَّق أحدنا بكلمة، والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يُطفئ الماءُ النَّار، أيُّ فضل عظيمٍ في هذه الواحة الجميلة؟!

«اتقوا النار ولو بشق تمرة.. فإن لم تجد... فبكلمة طيبة».

كلمة طيبة؟

نعم، كلمة طيبة يمكن أن تقيَك لَفْح النار يوم القيامة.

واحة لا تعرف الذبول، ودين يدعو إلى سموِّ الإنسان عن رذائل الأقوال والأفعال، وفضل عظيم من العظيم الكريم.

ما بال الكلمة الطيبة تحظى بهذا الاهتمام العظيم؟

من حجَّ هذا البيت، ولم يرفث، ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

ما علاقة هذا الحديث بالكلمة الطيبة؟ إن العلاقةَ تأتي من جملة: «لم يرفث»، أي: لم يقل قولاً فاحشاً، فالرَّفثُ في اللغة: الفُحش من القول، تقول منه: رَفَثَ الرجل وأرفث، أي: قال قولاً فاحشاً.

وإذا لم يرفُثِ الحاجُّ في قوله، فقد التزم بالكلمة الطيِّبة، فهي ذات أثر كبير في قبول الحج، ومغفرة الله سبحانه وتعالى لصاحبها، ألم أقل لكم: إنها واحة لا تعرف الذبول؟

هذا عبد بن حميد يروي حديثاً في مسنده عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً، جاء فيه:

«من قضى نسكه، وسلم المسلمون من لسانه ويده، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر».

سلم المسلمون من لسانه ويده، وهل يمكن السلامة من اللسان إذا لم ينطق بطيِّب الكلام، إن الكلام الطيب يوصِّل إلى المغفرة والتوبة، يا له من خيرٍ لا يفرِّط فيه إلا محروم.

«الحجُّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»، ما أعظمهُ من جزاء!

وما الحجُّ المبرور يا تُرى؟

روى الحاكم في مستدركه، وأورده ابن رجب في لطائفه، عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ، أن رسول الله ﷺ سُئل عن برِّ الحجِّ ما يعني، فقال: **«إطعام الطعام، وطيبُ الكلام».**

علاقة حميمة بين الحج وطيب الكلام، كالعلاقة الحميمة بين الصلاة وطيب الكلام؛ لأنَّ الصلاة كلها قرآن وذكر ودعاء وتسبيح وتحميد، وكالعلاقة بين الصِّيام وطيب الكلام؛ لأن الصيام لا يتم إلا بحبس اللسان عن القول السيئ: «**من لم يدع القول بالزور والعمل به، فليس بالله حاجة إلى أن يدع طعامه وشرابه**».

«**وإن سابَّه أحد أو شاتَمه فليقلْ: إني صائم**».

نعم، صائمٌ لله لا يليق به إلا الكلام الطيب.

وكالعلاقة بين الزكاة، وطيب الكلام: ﴿**لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ**﴾ [البقرة:٢٦٤]، وهل يكون المنُّ إلا باللسان، يمنُّ صاحب الصدقة، فريضة كانت، أم نافلة، فيؤذي شعور المحتاج إليها.

الكلمة الطيبة: واحةٌ لا تعرف الذبول.

أنس بن مالك - رضي الله عنه - يؤكد لنا أن رسول الله ﷺ لم يكن سبَّاباً ولا فاحشاً، ولا لعَّاناً، وكان يقول أحدنا عند المَعْتَبة: «مالَهُ، تربَ جبينُه»، يا له من عتاب رقيق!

ويؤكد لنا أنس نفسه أنه خدم الرسول ﷺ عشر سنين فما قال له: أُفٌّ، ولا: لِمَ صنَعتَ، ولا: ألا صنعتَ؟

يا لها من مدرسة عظيمة في تعليمنا «الكلمة الطيبة».

هذه عائشة - رضي الله عنها - تقول: دخل رَهط على رسول الله ﷺ فقالوا: السَّام عليكم، قالت: ففهمتها، فقلت: وعليكم السام واللعنة.

فقال عليه الصلاة والسلام: «مَهلاً يا عائشة، إنّ الله يحبُّ الرِّفق في الأمر كلِّه»، فقلت: يا رسول الله، أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: «قد قلت: وعليكم».

وفي رواية أخرى أنه قال لعائشة: «مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق، وإياكِ والعُنفَ والفُحش».

ما هذا الخلق العظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

مدرسة محمدية لا مكان فيها للعُنف والفحش.

مدرسةٌ شعارُها «الكلمة الطيبة صدقة».

مدرسة منقوشٌ على واجهتها:

«من كان يومن بالله واليوم الآخر فَليقُل خيراً أو لِيَصمت».

الم أقل لكم: إنها واحة لا تعرف الذُّبول؟

هذه إحدى واجهاتها المضيئة، قد نُقِش على بوّابتها الكبيرة:

«سِبابُ المسلم فُسوق، وقتالُه كُفْر».

لا مكان في هذه الواحة للسِّباب والشتائم، فهي واحة الكلمة الطيبة التي لا ينبتُ فيها إلا الطيِّب من القول.

«من لَعَن مؤمناً فهو كقتله، ومَنْ قَذَفَ مؤمناً فهو كقتله».

اللَّعن كلمات سيئة يجري بها اللسان، تجرح وتؤذي، فهي بمنزلة إهدار الدَّم بغير حق.

والقَذْفُ كلمات سيئة باللسان تجرح وتؤذي، فهي بمنزلة إهدار الدم بغير حقّ.

وإذا توقَّف اللسان عن اللعن والقذف، والسِّباب والشتم، فليس أمامه إلا الكلام الطيِّب.

إنها محاصرةٌ شديدة للسيئ من القول من جميع الجهات، ولذلك نهى الرسول ﷺ عن قيل وقال، وكثرة السؤال.

هل تقف حدود واحة الكلمة الطيبة عند هذا؟

كلاَّ، إنها ذات مساحات فسيحةٍ لا تقع فيها العينُ إلاَّ على كلِّ منظر جميل.

سُئل الرسول ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟

قال: **تطعم الطعام.**

وتقرا السلامَ على مَنْ عَرَفْتَ ومن لم تعرفْ.

السلام؟، هل هنالك أطيب من هذه الكلمة المباركة.

«اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

أرأيتم منزلة الكلمة الطيبة في ديننا الحنيف؟

السلام، الذي يعني، الأمن والاطمئنان، والمحبة، والمودة ويعني الرَّغبةَ في الخير، والوئام، وينفي نيَّة السوء، وقَصْدَ الشرّ، يأمرنا الرسول عليه الصلاة والسلام أن نبذله لمن عرفنا، ومَنْ لم نعرف.

كلمة طيبة تلازم المسلم الحقَّ في حياته كلِّها.

كان أفضل الخلق ﷺ يسلِّم على الصِّبيان، يملأ نفوسهم بالاطمئنان، وصدورهم بالحبِّ، ويربيهم على السلام، وعلى الطيِّب من الكلام.

ماذا نكتب، وماذا ندع؟ واحةٌ لا تعرف الذُّبول.

ارحل معي ـ أيها الحبيب ـ إلى هذا المرتع الخصيب في واحة الكلمة الطيبة.

«رسول الله ﷺ راكب على حمار وقد أردف أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وهو متجه إلى دار سعد بن عبادة لعيادته في مرضٍ أصابه، وكان ذلك قبل وقعة بدر.

ينطلق عليه الصلاة والسلام، ويمرُّ في طريقه بمجلسٍ فيه أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود، وفيه عبدالله بن أُبيّ بن سَلول، وعبدالله بن رواحة رضي الله عنه.

وتغمر عَجاجة الدَّابة ـ أي غبارها ـ المجلس فيخمِّر عبدالله ابن أُبيٍّ وجهَه وأنفَه، ويقول: لا تغبرِّوا علينا.

فسلَّم عليهم النبي ﷺ، ووقف، ثم نزل، ودعاهم إلى الله عزَّ وجل، وقرأ عليهم القرآن، قال ابن سَلولٍ له:

أيُّها المَرء، لا أحسَنَ من هذا إن كان ما تقول حقاً، فلا تُؤْذِنا في مجالسنا، وارجع إلى رَحْلِك، فمن جاءك منّا فاقصص عليه.

قال ابن رواحة: اغشنا في مجالسا، فإنا نُحبُّ ذلك.

ثم استبَّ القوم؛ المسلمون والمشركون واليهود حتى همُّوا بالتواثُب، فلم يزل الرسول عليه الصلاة والسلام يخفِّضهم، ثم ركب دابته، واتجه إلى سعد بن عبادة، وقال له:

أي سعد: **ألم تسمع إلى ما قال (أبو حُباب)**، يقصد عبدالله بن أُبيٍّ، وأخبره بما قال، فقال سعد:

اعف عنه يا رسول الله، فو الله لقد أعطاك اللهُ الذي أعطاك، ولقد اصطلح عليه أهل هذه البَحرة على أنْ يتوِّجوه، فلما رَدَّ الله ذلك بالحقِّ الذي أعطاك، شَرِقَ بذلك.

فعفا عنه النبي ﷺ.

تأمل معي قول الحبيب محمد ﷺ ألم تسمع إلى ما قال (أبو حباب).

وانظر كيف استخدم أحبَّ كلمة إلى الإنسان، وهي كُنيتُه، فقال (أبو حباب)، ولم يقل كلمة نابيةً مع أنه قد أغضبه بالصورة التي رأينا في الخبر السابق.

هنا تتجلَّى مدرسة (الكلمة الطيبة) في أبهى صورها وأجلاها.

في الخبر إشارة إلى السِّباب الذي جرى بين القوم، ولم يكن لرسول الله ﷺ فيه موقع أبداً، بل كان يخفِّضهم، أي: يأمرهم بالهدوء والسكوت.

الكلمة الطيبة واحة لا تعرف الذُّبول، الكلمة الطيبة صدقة.

ألا يحقُّ لنا ـ نحن المسلمين ـ أن نبشِّر بها العالمين؟

المهاجر المستبشر

صورةٌ من صور الاستبشار بالرغم من صعوبة الموقف، واحتدام العداء، ومطاردة الأعداء، صورةٌ يرسمها لنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالكلمات فيقول: قال سراقة بن مالك بن جعشم لما خرج الرسول ﷺ مهاجراً من مكة إلى المدينة: جعلت قريش فيه مائة ناقةٍ لمن ردَّه عليهم، وبينما أنا جالس في نادي قومي إذْ أقبل رجلٌ منا حتى وقف علينا، فقال: والله لقد رأيت ركباً ثلاثةً مرُّوا عليَّ آنفاً، إني لأراهم محمداً وأصحابه، فأومأتُ إليه أن: اسكتْ، ثم أمَرتُ بفرسي وسلاحي، فأحضرا إلي وركبت وأنا أرجو أن أرد على قريش وآخذ المائة ناقة، وركبت سائراً في أثره حتى إذا بدا لي القوم، ورأيتهم، عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض، وسقطتُ عنه، ثم انتزع الفرس يديه من الأرض، وتبعهما دخانٌ كأنه إعصار، فعرفتُ حين رأيت ذلك أنه قد مُنِعَ مني، وأنه ظاهر، فناديتُ قائلاً: أنا سراقة بن جعشم، أنظروني أكلّمكم فوالله لا أُريبكم، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: قل له: **وما تبغي منا؟** قال: خذ يا رسول الله سهماً من كنانتي، وإنَّ إبلي بمكان كذا، فخذ منها ما أحببتَ، فقال الرسول ﷺ: **لا حاجةَ لي بإبلك**، فلما أراد سراقةُ أنْ يرجع، قال له

عليه الصلاة والسلام: «**كيف بك يا سراقة إذا سُوِّرْتَ بسواري كسرى؟**» قال سراقة: كسرى بن هرمز؟، قال: «**نعم**».

وعاد سراقة إلى مكة يرد الناس عن المهاجر المستبشر بقوله: كُفيتم ما ها هنا.

رحلةٌ مصيرية بالغة الصعوبة، وهجرة تاريخية لها ما وراءَها، ومؤامرات من المشركين لا تتوقف أبداً، وعيونٌ طامعة في الجائزة تتابع كل الطرق بين مكة والمدينة، ومهاجران كريمان معهما دليلهما لا يملكان من مظاهر القوى البشرية شيئاً، ومع ذلك فالبشارة والاستبشار تملأ النفوس.

من هنالك بدأت رحلة اليقين من غار حراء، ثم من غار ثور حيث قال عليه الصلاة والسلام لصاحبه أبي بكر: «**ما بالك باثنين، الله ثالثهما**».

هنا تكمن روح القوة التي لا تنهزم أمام أحلك الظلمات، «**لا تحزن إنَّ الله معنا**»، ومن هنالك بدأت رحلة الاستبشار، وهنا في طريق الهجرة المباركة، تأكدت معالم تلك الرحلة العظيمة، بل تجاوزت حدود الزمان وحدود المكان؛ لأن اليقين بالله عز وجل يتجاوز كلَّ الحدود المادية في هذه الحياة وينتقل بأصحابه إلى عوالم بعيدة من البشارة، والأمل، والتفاؤل، وحسن الظن بالله.

أولاً: **لا حاجة لي بإبلك**، جوابٌ نبوي واضح، فلقد خرج الرسول ﷺ من مكة بلا مال، بل إنه خرج مديناً لأبي بكر بقيمة

الراحلة وما عليها، فالمال هنا لا موقع له؛ لأن الرحلة كلَّها قائمة على الثقة بنصر الله وتأييده.

ثانياً: يتأكد هذا المعنى بذلك الوعد العظيم، والمُدهِش المثير، الوعد بسواري ملك إحدى الدولتين العظيمتين اللتين تسيطران على العالم في ذلك الوقت، سواري كسرى، نعم كسرى بن هرمز نفسه الذي غاية ما يتمنّاه كل عربي في الجاهلية أن يكون بواباً على بابه، إن البشارة هنا تتجاوز كلَّ حدٍ من الحدود الدنيوية الضيقة، وكلَّ حاجز من الحواجز البشرية القائمة على الهوى والوهم والحيرة والاضطراب، بشارةٌ «فوق العادة».

ثالثاً: كان سراقة على يقين حينما سمع هذا الوعد من أنه سيتحقق، ولذلك كان حريصاً على التأكد من أنَّ المقصود هو كسرى بن هرمز نفسه، ولعله في تلك اللحظة قد تذكَّر القيمة العظيمة لذَينِكَ السِّوارين، كان سراقة على يقينٍ من تحقُّق هذا الوعد؛ لأنه قد رأى قبل قليل تلك المعجزة التي وقعت لفرسه، وهو يلاحق هذا الركب المهاجر.

رابعاً: البشارة هنا فيها استشراف للمستقبل المشرق، واستثارة لهمة النفس حتى تسعى إلى تحقيقه؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام متصلٌ بربه، ومعه أبو بكر الصديق الذي سيكون خليفته من بعده، ومثل هذه البشارة جديرٌ بإشعال جذوة العزيمة للوصول.

خامساً: حينما وصل سوارا كسرى بن هرمز إلى المدينة بعد الانتصار العظيم الذي حققه المسلمون، نادى عمر بالسِّوارين وألبسهما سراقة بن مالك فضجَّ المكان بالتكبير.

إشارة: البشارة هنا تحققت للأمة، ولم يَرَ تحقُّقَها مَن وعد بها عليه الصلاة والسلام ولا صاحبه أبو بكر، وإنما رأتها الأمَّة التي واصلت طريقها في تحقيق البشارة العظيمة، وكأنَّ لسان كل واحدٍ من المسلمين يقول: بشِّروا ولا تنفِّروا.

❁ ❁ ❁

تلوين

● لقِّب المرقِّش الأكبر، وهو شاعر مجيد، بالأجدع؛ لأنه كان أجدع الأنف قد أكل السبع أنفه في إحدى الفَلَوات التي كان يسير فيها بمفرده، وله في ذلك شعر يقول فيه:

يا راكباً إمَّا عَرَضتَ فبلغَن
أَنَسَ بنَ عمروٍ حيث كان وحَرمَلا

من مبلغ الفتيان أم مرقشاً
أضحى على الأصحاب عبئاً مثقلاً
ذهب السِّباع بأنفه فتركنَه
ينهشن منه في القفِار مُجَدَّلا

وأقول: يا له من سبع قَنوع يكتفي من الفريسة بأكل أنفها!

● كان عنترة بن شدَّاد يُعير بسواد لونه عند قومٍ لم يعرفوا بَعدُ المعانيَ العظيمة التي جاء بها الإسلام في المساواة بين الناس،

وكانوا يعيرونه بالسواد لأنهم في الجاهلية التي لم تسمع قول الرسول ﷺ: «**الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى**» ومع ذلك، فقد أصبح فارسَ قومه بشجاعته وهمَّته، وهو الذي يقول:

لا يحمل الحقدَ مَنْ تعلو به الرُّتَبُ
ولا ينال العُلا مَنْ طَبْعُه الغَضَبُ
قد كنتُ فيما مضى أرعى جمالَهمُ
واليوم أحمي حماهم كلَّما نُكِبُوا
لئن يعيبوا سوادي فهو لي نَسَبٌ
يوم النزالِ إذا ما فاتني النَّسَبُ
إذا التقيت الأعادي يوم معركةٍ
تركتُ جمعَهم المغرورَ يُنتَهَبُ
والنَّقع يوم طِرادِ الخيل يشهد لي
والضرب والطَّعنُ والأقلام والكتُبُ

❀ ❀ ❀

القواعد الذهبيّة للحوار

١ ـ اخيار الوقت المناسب والمكان المناسب والموضوع المناسب.

(بإمكانك الاعتذار عن الحوار إذا اختاره غيرك).

٢ ـ معرفة الجماعة التي تحاورها، أو الشخص معرفة جيدة.

(من الخطأ محاورة أصحاب الأمزجة المضطربة، أو أصحاب العناد والمشاكسة).

٣ ـ الاهتمام الكبير باختيار الكلمات الملائمة للحوار والبعد عن الكلمات الجارحة.

٤ ـ عدم احتقار من تحاوره، فإنّ آفة الحوار احتقارك لمحاورك.

٥ ـ احترم آراء من تحاوره، وإعطاؤه فرصته كاملة (أحب لأخيك ما تحب لنفسك).

٦ ـ الهدوء وعدم الانفعال «تدريب النّفس على ذلك».

٧ ـ تذكر أنَّ اللِّين والرِّفق من أساليب التأثير الكبرى.

٨ ـ عدم التفكير في الانتصار على محاورك رغبةً في الانتصار فقد يدفعك ذلك، إلى الإخلال بآداب الحوار من أجل الانتصار، وذلك يفقدك مكانتك عند الآخرين.

٩ ـ العناية بتدريب النّفس على الحوار تدريباً شخصياً.

١٠ ـ تصوُّر الآراء المعارضة والرّد عليها قبل الدخول في الحوار.

١١ ـ تركيز نقاط الحوار وعدم الاستسلام لتشعُّب موضوعاته.

١٢ ـ تعويد النّفس على عدم المقاطعة لمن يحاورك إلاّ في الوقت المناسب.

١٣ ـ بين الحوار المرغوب فيه، والجدال المرفوض خيط رفيع فكن حريصاً على عدم قطعه.

١٤ ـ كن مستعداًّ لمفاجآت الحوار حتى لا تضطرب.

١٥ ـ إخلاص النيّة لله يبعدك عن المجادلة بغير حقّ.

أهمية الكلمة

١ ـ ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ آية قرآنية كريمة.

٢ ـ «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**» حديث شريف.

٣ ـ «إنَّ البلاء موكَّل بالمنطق» مَثَلٌ سائر.

٤ ـ **لسان الفتى نصف ونصفٌ فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدَّم**

٥ ـ الشهيق والزفير عمليتان مستمرتان طوال الحياة، وأصوات الكلمات، والنطق بها مرتبطان بهاتين العمليتين المهمتين، ومن هنا تبرز الأهميَّة لكل كلمة تُقال، إنها مرتبطة بحياة الإنسان.

٦ ـ «رُبَّ كلمةٍ قالت لصاحبها دَعني» مَثَلٌ سائر.

٧ ـ تستطيع الأذن البشرية أن تسمع أصواتاً تُحدِث اهتزازات تتراوح بين عشرين وعشرين ألفاً في الثانية، وتُدعَى ذَبْذَبةَ الصوت.

٨ ـ المستشرق الفرنسي (لويس ماسينيون) يقول: استطاعت العربية أن تبرز طاقة الساميين في التعبير عن أدقِ خلجات الفكر والاكتشافات العلمية والحسابية، ووصف المشاهدات وتصوير خيالات النفس وأسرارها، إنَّ اللغة العربية هي التي أدخلت إلى الغرب طريقة التعبير العلمي.

اللغة العربية من أنقَى اللُّغات، من كتاب (**الفصحى لغة القرآن**) لأنور الجندي.

٩ ـ يقول الرافعي: ما ذلّت لغة شعبٍ إلا ذَل، ولا انحطَّت إلا كان أمرها في ذهاب، يحكم المستعمر على الأمة المغلوبة بثلاثة أحكام:

أ ـ يسجن لغتها في لغته.

ب ـ يحكم على ماضيها بالقتل مَحواً ونسياناً.

ج ـ يقيد مستقبلهم بأغلاله اللغوية وما تبعها. من كتابه (وحي القلم)، جـ٣ ص٣٣ .

١٠ ـ يقول (دانيا ويبستر)؛ أحد كبار المهتمين بتأثير الكلمة: «إذا سلبت مني جميع مواهبي وقواي، وكان لي الاختيار في واحدةٍ منها فقط، فسوف أختار قوة الحديث؛ لأنني من خلالها أستطيع استدراك، كلّ ما ينقصني».

١١ ـ ذَلاقَةُ اللِّسان: قوَّة أدائه، وحِدَّةُ طرفه، وقدرته على تصريف الكلام.

في الحديث: «**يوم القيامة تتحدَّث الرَّحم بلسانٍ ذُلَقٍ طُلَق**».

نصاعة البيان: صفاؤه، اللون الناصع هو اللون الخالص الذي لا تشوبه شائبة.

في الحديث: «**المدينة كالكير تنفي خبثها وتَنصَعُ طِيبَها**».

أناقة اللهجة: حسنها وجمالها، الأَنَق حسن المنظر.

له منطقٌ عَذبٌ ولفظٌ مؤنَّق ... يحرِّك أشجانَ القلوب ويبعثُ

١٢ ـ الحديث: مرآة الروُّح، إذا صفَّيتَ داخلك صفت كلماتك.

١٣ ـ البلاغة والبيان تقودان إلى الإمتاع والإقناع.

١٤ ـ العناية باللغة ترقى بالذوق وتصقل الفكر.

١٥ ـ العناية باللغة تحقِّق المتعة بما نقرأ من قرآنٍ وسنّةٍ وشعر ونثر.

١٦ ـ أبو داود بن حَرِيز وهو من بلغاء العرب وخطبائهم يقول:

رأس الخطابة الطّبع، وعمودُها الدُّربَة، وجناحاها روايةُ الكلام، وحَليُها الإعراب، وبهاؤها تخيُّر الألفاظ، والمحبَّة مقرونة بقلَّة الاستكراه. وأنشد قوله:

يَرمُون بالخُطَبِ الطِّوال وتارةً وَحيَ المَلاَحظِ خيفةَ الرُّقباءِ

١٧ ـ اللغة بفصاحتها وبيانها وبلاغتها: (**فاتنةٌ لا تخذل عاشقها**).

❀ ❀ ❀

بين التردُّد والحزم

لابد للإنسان لكي يكون ذا دورٍ إيجابي في الحياة أنْ يعوِّد نفسه على العزيمة والحزم في اتخاذ القرارات بعد الدراسة والاستخارة والاستشارة، وأن يجنِّب نفسَه الوقوع في خندق التردُّد، والتهيُّب الذي لا مسوِّغ له؛ لأن المبالغة في التردُّد تهزُّ شخصية الإنسان، وتزعزع ثقته في نفسه.

إذا كنتَ ذا رأيٍ، فكن ذا عزيمةٍ
فإنَّ فساد الرأي أن تتردَّدا

ولو أنَّ الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وجميع القواد الناجحين، والمصلحين المؤثرين استسلموا للتردُّد، وبالغوا في التهيُّب من صعوبات الطريق لما استطاعوا أن يتقدموا خطوة واحدةً في الحياة.

ولابد للإنسان أن يتعب في إعداد نفسه فكراً وثقافة، وعلماً نافعاً، ومجالسة لأصحاب الهمم من العلماء، والمفكرين، والتجَّار وغيرهم من أصحاب التجارب الناجحة في الحياة؛ لأنَّ هذا العداد للنفس يساعد على الإقدام، ويُزكي روح العزيمة، ويمد حبال الحزم والقوة في اتخاذ القرار وتنفيذه.

إنهَ المواقف الزاخرة بالعزيمة والإقدام كثيرة في تاريخ البشرية، وكتب السِّيَر والتاريخ مليئة بذلك، وإنَّ الاطلاع عليها، وتأمُّلَ ما وَرَدَ عنها، لينفع الإنسان في تهيئة نفسه ليصبح واحداً من أولئك الأفذاذ.

إذا شعر الإنسان بالتردُّد، فما عليه إلاَّ أن يُلِمَّ بأطراف الموضوع الذي يريده ويستشير من يوثق به، ثم يستخير ربَّه، وينطلق في طريق التنفيذ فسيكون النجاح حليفَه بإذن الله، وإذا لم ينجح بالصورة التي أرادها، فليعلم أنها تجربة مهمة أضافها إلى رصيده من التجارب.

في المثل العربي: من التَّرقِّي، تَركُ الإفراط في التَّوَقِّي.

لغة الناجحين

العلاقة بين الجمل التي نردِّدها في حياتنا، وبين الإبداع في العمل والنجاح فيه علاقة قوية، ومما يؤكده علماء النفس أن

الإنسان يتأثر نفسياً وعقلياً وعملياً بما يحدِّث به نفسه سلباً وإيجاباً، ويرون أن تكرار العبارات المشرقة والكلمات الإيجابية يعطي الإنسان دافعاً هائلاً للعطاء، والتجديد الواعي، ويحقِّق له ـ بإذن الله ـ النجاح.

الناجح يقول: نعم، أستطيع أن أبذل جهداً وأرجو أن أوفَّق.

وغير الناجح يقول: لا أستطيع.

والرسول ﷺ يؤكِّد هذه القاعدة بقوله: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»، وفي هذا أمر بعمل ما يستطيع الإنسان، ومعنى ذلك أن كلَّ إنسان يمكن أن يكون عملياً في الحياة على قدر استطاعته، وأنَّ المتكاسل هو الذي يتعلَّل بعدم الاستطاعة.

الناجح يقول: سوف أعمل على تنمية قدراتي، إن لديّ القدرة على الاجتهاد.

وغير الناجح يقول: عندي شك في قدراتي، ليست لدي القدرة على عمل كذا.

ونقول: شتَّان بين الكلمتين؛ فإحداهما ترفع الهمة، وتجدِّد العزيمة، والأخرى تثبط الهمة، وتجمد العزيمة.

الناجح يقول: ربما يكون نجاحي في هذا الأمر ضعيفاً، ولكنَّه خطوة في الطريق.

وغير الناجح يقول: أنا لم أنجح في هذا الأمر، يبدو أن النجاح صعب على مثلي.

الناجح يقول: لكل مشكلةٍ حلٌّ، والصَّبر أوَّل الحلول.

وغير الناجح يقول: هذه مشكلة معقَّدة، من الصعب أن يحلَّها مثلي.

عبارات تقتل الطموح، وأخرى تحييه، نحن الذين نختار لأنفسنا منها ما نشاء، وعندنا ـ نحن المسلمين ـ من الأذكار والأدعية ما يحقق لنا نجاحاً وراء نجاح، فليس تكرار الآيات القرآنية، والأذكار والأدعية الواردة عن الرسول ﷺ مقصوداً في ذاته، وإنما هو وسيلةٌ إلى الرَّقيّ بالنفس، وتجديد نشاطها، ورفع مستوى العزيمة فيها، ودفعها إلى طرق العمل النافع في الدنيا والآخرة.

حينما نقول عندما نخرج من منازلنا: بسم الله، آمنت بالله، اعتصمت بالله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم إني أعوذ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلّ، أو أزِلَّ أو أُزَلّ، أو أَظلِمَ أو أُظلَم، أو أَجْهلَ أو يُجْهَلَ عليَّ يا رب العالمين.

فإننا بمثل هذا الدعاء نترقَّى إلى أعلى مراتب الهمة والعزيمة والعطاء، ونضع أقدامنا على أول طريقٍ للنجاح والفلاح بإذن الله.

إنَّ المسلم الذي ينطلق إلى عمله بعد أن يرطِّب لسانه بذكر الله، إنَّما يفتح لنفسه أبواب العطاء المتميز على مصاريعها؛ لأن القلب يسعد، والصدر ينشرح، والنفس تطمئن، وهذه هي أهم عوامل النجاح في العمل، بل إننا نملك بهذا لغةً للنجاح ليس لها مثيل.

الناجحون لا يعرفون عبارات التخذيل واليأس، ولا تَرد في قواميسهم كلمات الكسل والخمول، والتردُّد وعدم القدرة على الإنجاز.

الناجحون يقولون: نبذل الأسباب دون كسل أو وجل، ونتوقع أن نصل إلى نتائج ـ بتوفيق الله ـ لأن سنَّة الله في الكون تؤكد ذلك.

وغير الناجحين يقولون: الأمور صعبة، والأسباب غير مُواتية، فيحكمون على أنفسهم بالكسل والخمول، ويشعرون بعدم النجاح من بداية الطريق.

الناجحون يقولون: نعمل، ونعمل، ونجتهد في الوصول إلى النتائج، ولن يظلمنا الله شيئاً من أعمالنا.

فلنستخدم جميعاً «لغة الناجحين».

❀ ❀ ❀

عجائب نفسك

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾، توجيه قرآني كريم إلى النظر في أنفسنا لأنَّ فيها من الأسرار والعجائب ما يقوِّي الإيمان، ويوثِّق العلاقة بالرحمن.

إذا علمنا أن لدى كل إنسان منا عشرة بلايين خليَّة عصبيَّة في الدّماغ، تشكل ضعف السكَّان الموجودين على ظهر الأرض،

ويطلق عليها علمياً «عَصَبُون، استشعرنا الطاقات الهائلة المودعة فينا، وعملنا على صقلها، وتنميتها، وأدركنا فضل الله علينا بها.

ويتحدَّث العلماء عن العقل الواعي، والعقل الباطن، فيتحدثون عن ذلك بالعجائب التي تستحق الوقوف عندها.

فهم يقولون: إن وظيفة العقل الباطن أوسع وأشمل من وظيفة العقل الواعي، فالعقل الباطن هو الذي يقوم بخزن المعلومات والذكريات، وهو موطن المشاعر والعواطف الإنسانية والرغبات والميول، وهو الذي ينظم الأفعال غير الإرادية كالتنفس ونبضات القلب، ودرجة حرارة الجسم، وغيرها، وهو في منزلة السجل للعادات حسنها وقبيحها، وهو مكان تخزين المهارات المختلفة كالقراءة، والمهارت اليدوية والحسية، وله دور كبير في توجيه الطاقة الجسدية والنفسية.

وتؤثر البيئة، والانتماء الجنسي والعائلي والعواطف في العقل الباطن، كما يؤثر فيه التكرار والإيحاء والهندسة النفسية التي تخاطب العقل الباطن وتملي عليه مجموعة من المهارات يسجِّلها في سجلِّه الكبير ليحوّلها إلى مهارة سلوكية يقوم بها الإنسان تلقائياً.

أما العقل الواعي، فهو الذي يتعامل مع الأشياء الظاهرة في الحياة، يفكر فيها، ويحكم عليها، ويناقشها.

ويشبهون العقل الواعي بالفلاَّح الذي يضع البذور في التربة، والعقل الباطن بالتربة التي تحوِّل البذور إلى ثمر، ويشبهون العقل

الواعي أيضاً بقائد الطائرة الذي يوجهها، والعقل الباطن بمحركات الطائرة النَّفاثة التي تدفع الطائرة تلقائياً إلى الأعلى؛ لأن العقل الواعي يعمل في حالة اليقظة، والعقل الباطن في حالتي اليقظة والنوم.

ويقولون: حينما تنتفض من نومك قبل موعدك المهم وكأنَّ أحداً أيقظك فإن العقل الباطن هو الذي أيقظك.

وحينما تقود سيارتك بنجاحٍ مع انشغال فكرك بأمرٍ من الأمور، أو مكالمة بالهاتف الجوَّال، فإن العقل الباطن هو الذي وجَّهك، وكم من رجلٍ يقول: لقد سقت سيارتي من المكتب إلى المنزل وأنا مشغول بمكالمة مهمة وما أدري كيف وقفت عند الإشارات المرورية، وكيف سلكت طريقي بسلامة.

ولو أن للعقل الباطن لساناً يتحدَّث لقال لك بفخر: أنا الذي وجّهتك في الطريق.

تأمل هذا الغيض من الفيض من أسرار جسمك وعجائب نفسك وقل: سبحان الله العظيم.

ثم أبْرِمْ لنفسك أمرَ رُشْدٍ تسلك به الطريق المستقيم الذي يُرضي عنك من وهبك هذه المنح الجليلة.

❀ ❀ ❀

بين عبدالملك وعِرار

وفد أهل الكوفة على عبدالملك بن مروان، فلما دخلوا عليه رأى فيهم رجلاً أسودَ عاليَ الجسم، فلمَّا كلمه راقه ما سمع من فصاحته وبيانه، فلما تولَّى الرجل، تمثَّل عبدالملك ـ وكان أديباً ـ بقول عَمروِ بن شَأس:

فإنْ عِراراً إنْ يكن غيرَ واضحٍ
فإنّي أُحبُّ الجَوْنَ ذا المنكِبِ العَمَمْ

فالتفت عِرار الأدلم إلى عبدالملك وضحك، فقال عبدالملك: عليَّ به، ثم سأله: ما الذي أضحكك؟ قال: أنا عِرَارٌ يا أمير المؤمنين الذي عناه الشاعر.

فعجب الحاضرون لهذا الاتفاق، وقدَّمه عبدالملك وسامره حتى خرج.

***

أَريحيَّة الكرم

- الكرم أريحيَّة، وابتسامةٌ، وبشاشة وجهٍ، قبل أن يكون تقديم طعامٍ إلى الضيف:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله
ويُخصب عندي والمحلُّ جديب

- قال القاسم بن أمية بن أبي الصَّلت، يمدح قوماً بالكرم:

لا ينقـرون الأرضَ عند سـؤالهم
لتطلُّب العِـلاَّتِ بالعيـدانِ
بل يبسطون وجوههم فترى لها
عند السؤال محاسن الألوان

وفي هذا وصفٌ بغاية الكرم والسخاء، أنْ يلقاك الرجل بالبشر حينما تسأله شيئاً.

● من الناس من يكون كرمه سجيَّةً لا يتكلَّف فيه، فهو كريم بطبعه، إنْ وجد أعطى راضياً مبتسماً، وإن لم يجد بَذَل ما في وسعه لإجابة سؤال السائل، أو لإكرام الضَّيف والطارق وعابر السبيل.

تعـوَّدَ بَسْطَ الكفِّ حتى لو انَّه
ثناها لقبضٍ لم تُطعْه أناملُهْ
ولو لم يكن في كفِّه غير روحه
لجاد بها فَليَتَّقِ اللهَ سائلُه

ومن الناس مَنْ يكون كرمه لمصلحة، أو طلباً لسمعة، فهو كريمٌ في المواقف التي يعلم أنَّ الناس يرون فيها كرمه، وهو أقرب إلى البخل حينما يكون بعيداً عن مواقع المصلحة، أو عن نظر الآخرين.

قال لي أحدهم: كنت في مجلسٍ فيه بعض كبار القوم، فجرى فيه الحديث عن مشروعٍ خيري، فبادر أحد الحضور بالتبرُّع بمليون ريال، فأشاد به الحاضرون حتى كاد يبكي من إشادتهم به،

وكانت بي حاجة ماسة لا يعلمها إلاَّ الله إلى خمسين ألف ريال، فقلت في نفسي: الحمد لله، لقد قضى الله حاجتي، وفرَّج كربتي بهذا الرجل الكريم، وجئته اليوم الثاني في منزله.

وبعد انتظارٍ غير قصير التقيت به، وذكرت له حاجتي وأنا أكاد أقع على الأرض من الحرج والخجل، وطلبت منه مبلغ خمسين ألف ريال قرضاً، ويا ليتني لم أفعل، فقد تلوَّن وجهه، وتعكَّر مزاجُه، حتى هَمَمتُ بالخروج قبل أن ينطق، وليتني خرجت قبل أن أسمع أعذارَه الواهية، وقبل أن أرى انشغاله عني بهاتفه.

وذكرني هذا برجلٍ ذهب إلى صاحب ثروةٍ طائلة يطلبه ديناً يسيراً، فزجره، وتعامل معه بأسلوبٍ لا يليق، فشكا ذلك الرجل حاله إلى رجلٍ آخر ذي مكانةٍ اجتماعية مرموقة، فعجب لهذا التصرُّف، وقال للمستدين: تعال غداً إلى مكتب ذلك الرجل الثريّ في ساعة محدَّدة، وادخل عليه فسوف تجدني عنده وأعد عليه طلبك، فوالله لو كنت أملك ما تطلب ما خرجت الآن إلاَّ به.

قال: وفعلت ما طلب مني صاحبي، ودخَلْتُ على ذلك الرجل، وأعدت عليه طلبي بالأمس، ورحَّب بي صاحبي أمامه ترحيباً حارَّاً، فما كان منه إلاَّ أن قابلني ببشاشة وابتسام، ولبَّى طلبي كأحسن ما يكون السَّخاء والكرم.

وخرجت من عنده فرحاً بالحصول على هذا القرض الذي يسدُّ حاجةً ملحَّة لي، وحينما ذهبت بعد ذلك لأشكر ذلك الوسيط

الذي أحسن إليَّ بحيلته الجميلة، قال لي: يا بني، إنَّ من الناس مَنْ يتكلَّف الكرم والسَّخاء أمام الآخرين، والرجل الذي أقرضك بالأمس من هذا النوع.

● يقول الفرزدق في (زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب:

ما قال: لا قَطُّ إلاَّ في تشهُّده

لولا التشهُّد كانت لاؤه نَعَمُ

● أمَّا أكرم الناس قاطبةً، فهو محمد بن عبدالله ﷺ الذي يعطي عطاءَ من لا يخشى الفقر أبداً.

❀ ❀ ❀

هل تموت الأرض في الخريف؟

إنَّ الأرض تهمد في الخريف حيث تتساقط أوراق الأشجار، ويتغير لون الطبيعة حتى يظن الناظر إليها أنها قد ماتت، ولكنها تنتفض في الربيع فتزهو، وتعود إليها نضارتها وبهاؤها.

هكذا شأن أمتنا الإسلامية منذ أن عصف بها خريف الضعف والتفرُّق، والخلافات، والبعد عن التطبيق الصحيح لمنهج الله في الأرض، إنها هامدةٌ ذاوية الأغصان، ولكنَّها تحمل في أعماقها من الحياة ما يمكن أن يعيد إليها حيويتها ونضارتها.

إنَّ تطاول المعتدي، وقسوة الغازي، وتراجع الأمة المستمر قد سمح للدعايات الكاذبة، والأوهام، والأراجيف أن تستقرَّ في نفوس كثير من المسلمين، فتهزَّ الثقة فيها.

يقول د/ هارسي: الحرب النفسية تتوجه إلى معنويات العدوّ وتماسكه وعزيمته وعقيدته، ويؤكد قوله هذا بأنه بدلاً من استهلاك كمية كبيرة من الذخيرة الغالية لتدمير موقع عسكري أو موقعين أو أكثر أو أقلّ، فإن الأفضل والأرخص أن نستعمل الدعاية والحرب النفسية لشلِّ الأصابع التي تضغط على زناد المدفع.

يمكن تحطيم إرادة القتال والصمود بتهويل قوَّة العدو، والضغط المستمر على مشاعر الناس بالهزيمة، وخطورة قدراتنا عليهم.

وكلام د/ هارسي يؤكِّد ما نراه من توجيهٍ إعلامي غربي خطير يستهدف ثقة المسلم بربه سبحانه وتعالى، ويزيد من إحساسه بالضعف والهزيمة أمام العدوِّ، فإذا عرفنا أن هنالك إداراتٍ ذات ميزانية ضخمة في الدول الكبرى متخصصة في التوجيه الإعلامي للأحداث والمواقف، أدركنا خطورة ما تفيض به وسائل الإعلام في هذا الوقت من تحقيقاتٍ وأخبار مدروسة، وصور مختارة على نفوس المسلمين وعقولهم وقلوبهم.

إن إدارات التوجيه الإعلامي الغربية تقوم على مبدأ تضخيم الخبر الصغير، أو صناعة خبر جديد ليست له علاقة بالواقع،

ونشره وترويجه، مع طرح آراءٍ مختلفة مدروسة يتأثر بها الناس، ولا يخرجون مهما اختلفت آراؤهم عنها.

وهذا ما يعرف بقانون (ليبكين) في الدعاية، وليبكين رجل يهودي وضع قانوناً للدعاية يقوم على طرح آراءٍ مختلفة لعددٍ من الأشخاص الذين يؤمنون بفكرة واحدة؛ لأن ذلك سيحدث أثراً متعدِّداً في نفوس المتلقّين، فيمكن طرح آراء مختلفة في قضية ما توافق كل بلدٍ، وسوف يجد المتلقِّي الأجنبي في رأي من الآراء المعدَّة سلَفاً والمطروحة بشكل دعائي جذَّاب ما يعبر عنه وعن مشكلاته وأهدافه، وإشعاعه النفسي الداخلي فيسرع إلى تبنِّي ذلك الرأي مقتنعاً.

وهنالك ما يسمَّى بأسلوب (الجَوْقة) في الداعية الغربية، وهو اختلاف موقفٍ يسمح بإيجاد شحنة انفعالية عند المتلقِّي، أساسها التعاطف نتيجة للإشعاع الذاتي المنطلق من المستقبل نحو المرسل، بحيث يكون المستقبل أمام وجهات نظر متعددة لابدَّ أن يتعاطف مع واحدٍ منها، ناسياً الموضوع الأصلي الذي قد يكون غير موافق عليه في الأصل.

ويتمُّ ذلك بتسخير القدرات الإعلامية الموجودة بصورة مركزةٍ مستمرَّة لا تتيح للإنسان المستقبل لها أن يتخلَّص منها.

هنا نقول: إنَّ الخريف الذي تعيش أمتنا جفافَه لا يعني أن الأشجار قد ماتت، وإنما هي عواصف خريفية سوف تنكشف ـ بإذن الله ـ وحينما تهب نسائم الربيع فإنَّ الخصب سيعود.

المهم أن نعمل، ونخلص في عملنا ونستبشر بالخير المنتظر، والنصر القادم إن شاء الله.

❀ ❀ ❀

ثوابت الإعلام الغربي

هنالك سيلٌ جارف من وسائل الإعلام الغربية يتجه إلى واحاتنا وبيوتنا عبر الفضائيات وغيرها.

ولأن كثيراً من المسلمين ـ مع الأسف ـ قد أبدوا استسلامهم لهذا السيل الجارف، ورأينا آثاره في سلوكهم وسلوك أولادهم. فإنَّ من الواجب علينا أن ننبِّه إلى الثوابت التي ينطلق منها الإعلام الغربي؛ لأن معرفة تلك الثوابت تجعلنا قادرين على تحديد موقفنا الصحيح إن كنَّا حريصين على مستقبلنا ومستقبل بلادنا وأولادنا.

١ ـ الإنسان السوبرمان، فالإعلام الغربي يركز على ألوهية الإنسان من خلال طرح قدراته الخارقة كما يظهر في كثير من أفلام الأطفال، وأفلام هوليود وغيرها التي تعرض علينا الإنسان الغربيَّ عملاقاً قوياً لا يمكن أن يقاومه أحد، وهذا يحطِّم نفسيات أجيالنا، ومعنويّاتهم.

٢ ـ الحضارة الغربية الرائدة التى تستحق ـ وحدها ـ أن تهيمن على الآخرين.

٣ ـ الإلحـاح المستمـر على الوجـود الحضـاري الغـربي بمظاهره المتعددة، مقابل التركيز على إبراز التخلُّف في الدول الإسلامية والعربية.

٤ ـ الإيمان بأن الغرب، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية: هو القوة الوحيدة التي تتمتَّع بنظام ديمقراطي حضاري مستقر.

٥ ـ التركيز على إعطاء صفة العدوانية، والإرهاب، والأصولية للعرب والمسلمين، ودعم هذا الاتجاه بصورة قوية تقلب الحقائق، وتهزُّ الثقة بالمنهج والنفس.

هذه أهم ثوابت الإعلام الغربي في تعامله مع العرب والمسلمين في هذا الزمن فهل يجوز لنا أن نسلِّم أولادنا، ومجتمعاتنا لهذا الإعلام المتحامل؟

❀ ❀ ❀

بشِّروا ولا تنفِّروا

البشارة موجودة، ودواعي الاستبشار منتشرة في هذا الكون، إنما تحول الأوهام دون رؤية وجه البشارة المشرق الجميل.

الجميع الآن في خندقٍ واحد؛ الكبير والصغير، الحاكم والمحكوم، الرجل والمرأة، الملتزم بدينه والمفرِّط، الصادق والكاذب، المخلص والمنافق.

جميع المسلمين الآن في خندقٍ واحدٍ أمام أساطيل الأعداء، فلا مجال لليأس، ولا مكان للتنفير من الحقِّ، ولا موقع للتلاوم، والتشاتُم، والخصام والمجادلة العقيمة.

أخطأ من أخطأ في حق الأمة أخطاءً جسيمة أوصلتها إلى هذه الحالة المتهاوية من الضعف أمام قوة الأعداء المادية.

من المخطئ يا ترى...؟

هل هم المفكرون والمثقفون والأدباء والشعراء والكتَّاب الذين انساقوا وراء مدارس الغرب ومذاهبه، وتشبَّعوا بها، واستحسنوا منها ما لا يقبله دينهم، وسعوا إلى نشرها في بلادهم، وأصبحوا سفراء فوق العادة لثقافة الغرب وفكره وأدبه وفنِّه في أوطانهم؟ نعم.

أم أصحاب الفنِّ الذين كشفوا أستار الصبايا، ولمَّعوا وجوه الكاسيات العاريات وأطلقوا عليهن نجمات الفنّ، كما ولمَّعوا وجوه المنحرفين المسكونين بالميوعة والاسترخاء وأطلقوا عليهم نجوم الفن؟ نعم.

أم أرباب الأسر وولاة أمرها من الآباء والأمهات الذين وضعوا بيوتهم وأولادهم في مهب العواصف الجارفة من مجلاَّت ماجنة، وقنوات فضائية خليعة، وأقراص مدمجة وغير مدمجة، ومواقع على الشبكة العنكبوتية تحمل من الشر ما لا يواجهه أصحاب العقول الراجحة، فكيف بالمراهقين والأطفال؟ نعم.

أم العلماء والمفكرون المتنطِّعون المتزمتون الذين لا يرون أبعد من امتداد أذرعتهم، ويحسبون أنهم يعيشون في عصر الحياء، والحشمة، والوقار الذي عاش فيه آباؤهم وأجدادهم؟ نعم.

الكل قد أخطأ، وارتكب من الأخطاء ما يناسب موقعه ومسؤوليته، وليس من المصلحة الآن استعادة تفاصيل تلك الأخطاء، والانشغال بها عن الواقع الذي نعيشه بكل ما فيه من مفاجآت سريعة لا تخطر على بال.

هنا تبرز لنا لوحة «بشروا ولا تنفِّروا» ورديفتُها «يسِّروا ولا تعسِّروا» وهما لوحتان متألقتان واردتان في حديثٍ أخرجه أبو داود عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، لوحتان جديرتان بتعليقهما في كل حائطٍ حتى تراهما عيون التائهين، المضطربين، الخائفين.

كلُّنا الآن نحتاج إلى البصيرة والوعي، ولن تتأتَّى لنا إلا بالعودة الصحيحة لمنابع الخير في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

كلُّنا محتاجون إلى الرفق الذي قال عنه الرسول ﷺ: **«من يُحْرَمِ الرفقَ يحرَمِ الخيرَ كلَّه»**.

لأن الرِّفق، والتأنِّي، وسلامة التفكير تتيح لنا مجالاً واسعاً لمعرفة حقيقة ما يجري حتى نحسن التعامل مع الأحداث.

نداءٌ يصل صداه إلى الجميع «بشِّروا ولا تنفِّروا».

نسأل الله العافية

يقول إيان تُوفلر الدكتور المتخصِّص في شأن تربية الأطفال متسائلاً:

هل كان من الواجب السماح لجيسيكا دابوف البالغة من العمر سبع سنوات أن تقوم برحلتها الجوية عبر البلاد بتشجيع يشبه الإكراه من أهلها؟ تلك الرحلة التي انتهت بموتها؟!

وهل ساعدت الأوضاع الاستفزازية التي تمَّ تعليمها لجون رامزي البالغة السادسة من العمر، وما حصل من إلباسها الملابس البرَّاقة المغرية جنسياً هل ساعدتها تلك الأوضاع الاستفزازية على الحماية من القتل، حيث قتلت ملكة الجمال الصغيرة غيلةً وحسداً؟!

وعندما ابتعدت ميستي كوبلاند عن منزل أسرتها الفقيرة في سن السادسة عشرة لتتدرب وتعيش مع فرقةٍ للرقص، حتى لم يبق لديها وقت لزيارة أمِّها، فهل ربحت شيئاً ذا بال، أم أنها خسرت ما هو أهم من ذلك؟!

وعندما يحرص بعض الأهل على حَشْر أولادهم الصِّغار في برامج تدريبية مختلفة بحجة بناء شخصيَّاتهم، وحرمانهم من مَرح الطفولة ولعبها البريء، فهل يُعدُّ عملهم هذا جيداً، أم أنه جناية على الطفل، وحرمانٌ له من ألعاب الطفولة المهمّة؟!

وعندما يعرض الأبوان أولادهم ـ بحجة التطوير والتدريب ـ للذهاب إلى مراكز مختلفة تدريبية، وغنائية، ورياضية، يختلطون فيها بأجناسٍ مختلفة من الناس، مما قد يحدث معه بعض الاعتداءات الجنسية وغيرها، فهل يُعَدُّ ذلك تطويراً للأولاد، أم أنه تدمير لشخصياتهم في وقت مبكر؟!

أسئلة كثيرة خطيرة، يطرحها علماء التربية في عالمٍ غربيٍّ ذابت فيه الحواجز، وغابت فيه كثير من القيم، وأصبحت فيه المدنيَّة المتطورة عبئاً على القيم والأخلاق، والترابط الأسري، أسئلة مهمة جديرة بأن نقف عندها وقوف المتأمِّل لها ولإجاباتها الصحيحة التي توضح لنا الحقَّ في وقت نرى فيه كثيراً من المسلمين يميلون إلى بعض الأساليب التربوية الغربية.

إنَّ التربية الإسلامية السليمة للأطفال هي التي تُوازن بين احتياجات الطفولة، وطموحات الأهل، وحرصهم على تفوّق أبنائهم.

لعب الطفولة، ومرحُها جزءٌ مهم من عملية بناء الإنسان نفسياً وجسدياً، والإشراف الواعي من الأسرة على ذلك مهم لحماية الأطفال من التعرض للضّرر بكل أنواعه.

إن الرسول ﷺ كان يحمل الحسن والحسين على ظهره ويحبو بهما، وكان في بداية زواجه من عائشة رضي الله عنها يتيح لها اللَّعب مع صواحبها بالبنات المصنوعات من الأقمشة، وقد أخبرتنا عائشة رضي الله عنها أنه كان يأتي إلى بيتها وعندها صواحبها

يلعبن معها بالبنات فينقمعن لمَّا يرينه قادماً، وأنه كان عليه الصلاة والسلام يسرِّب إليها البنات الصغيرات ليلعبن معها.

وكان يعلم أن لطفلٍ من أطفال الصحابة رضي الله عنهم عصفوراً صغيراً يلعب به، فلما علم بموت ذلك العصفور، قال ـ ملاطفاً ـ: **يا أبا عمير، ما فعل النُّغَير؟!**

إنَّ التربية الإسلامية كفيلةٌ بإخراج أجيال قويّة ناجحة ـ بإذن الله ـ في الحياة، فلماذا نستدين أو نستعير من الآخرين مظاهر تربوية قد تضر أولادنا ولا تنفعهم؟

لقد قالها علي بن طالب واضحة: ربّوا أولادكم على غير أخلاقكم فإنهم يعيشون زماناً غير زمانكم.

وفي هذا القول نظرة تربوية متطوِّرة واعية، تنظر إلى المستقبل الذي سيكون مختلفاً عن الحاضر..، فيجب ـ فيما عدا القيم والمبادئ الثابتة في الإسلام ـ أنَّ نعلم أولادنا تعليماً يجعلهم قادرين على مواجهة ما يستجد من أمور الحياة، دون شعور بالضعف أو الانهزام أمام الجديد، ودون استسلام للذَّوبان الذي يقضي على مكانة الإنسان، ويجعله مَسخاً بعيداً عن قيمة ومبادئه.

إننا حينما نتابع ما يكتب ويقال عن المشكلات الخطيرة التي يواجهها الأطفال في العالم الغربي، وعن الأزمات النفسية القاتلة التي يتعرَّضون لها في مجتمعٍ شرع لنفسه الضياع والانحلال بحجة الحرية المطلقة؛ حينما نتابع ذلك نقول: نحمد الله الذي

هدانا للدين الحقِّ وأرشدنا إلى أفضل وسائل التربية والتوجيه والرعاية، ونسأل الله العافيةَ والسلامة من كل طريقٍ يؤدي بسالكيه إلى الهلاك.

❀ ❀ ❀

عمر وعبدالله بن الزبير

كان عبدالله بن الزبير يلعب مع بعض الصبيان، فجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلم رآه الصبيان هربوا، وبقي عبدالله في مكانه، فلما وصل إليه عمر سلَّم عليه وسأله: لِمَ لم تهرب كما هربوا؟ فأجابه: ليست الطريق ضيقة فأوسع لأمير المؤمنين، ولم أرتكب ذنباً فأهرب منه.

وقد صدق عبدالله ـ رضي الله عنه ـ فليس اللَّعب مع الصبيان في مكانٍ عامٍ بلا ضررٍ ولا إساءة إلى أحد ذنباً يمكن أن يعاقب عليه، فلماذا يهرب حينما رأى أمير المؤمنين؟!

لقد كان الرسول ﷺ يسلِّم على الصبيان إذا مرَّ بهم، ويُشعرهم بالرعاية، والعطف، وتلك هي التربية الصحية التي نتوق إليها.

❀ ❀ ❀

بُشرى للمظلوم

يتحدَّث الناس دائماً عن الظالم وعقابه الشديد، وعن الظلم ونهي الله عنه، ويتحدَّثون في أثناء ذلك عن المظلوم وقبول دعوته،

وكلٌّ ذلك سائغٌ لا غبار عليه، ولكنني آثرت هنا أن أُخصَّ المظلوم بالبشارة؛ لأنه أولى بها، ولأنها متحقِّقة في شأنه إذا صبر على مَنْ ظلمه، واتجه إلى ربِّه سبحانه وتعالى طالباً عونه ونصره.

إنَّ الظالم أولى الناس بالإحساس العميق بخطورة الظلم عليه؛ لأن الأحداث والشواهد تؤكد سوء نهاية الظالمين.

أما المظلوم فهو بحاجةٍ إلى أن يتذكر دائماً أنه الكاسب، وأنَّ العاقبة له؛ لأن الله معه، ومن كان الله سبحانه وتعالى معه انتصر وفاز.

ومن أهم بشارات المظلوم أنَّ له دعوةً لا تُرَدُّ، وليس بينها وبين الله سبحانه وتعالى حجاب؛ لأنها دعوةٌ في ساعة ضعفٍ وانكسار، يقابله جبروت واستكبار من الظالم، والله لا يرضى لأحدٍ من عباده الظلم؛ لأنه قد جعل الظلم محرَّماً على نفسه عز وجل وحرَّمه على عباده، ونهاهم عن التظالُم كما ورد في الحديث القدسي.

«اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب».

«ثلاثة لا تُرَدُّ دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمامُ العادل، ودعوة المظلوم؛ يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزّتي لأنصرنَّكِ ولو بعد حين».

«ثلاثُ دعوات مستجابات، لا شكَّ في إجابتهنَّ: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على الولد».

ومن بشارات المظلوم أنه إذا صبر على مظلمةٍ وهو قادرٌ على ردِّها وإنما صبر عليها ورعاً، فإنَّ الله يزيده بها عزّاً في الدنيا ورفعةً في الآخرة، وهذا معلومٌ مشاهد في حياةِ الناس قديماً وحديثاً.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما حصل لموسى وقومه من النصر والتأييد على فرعون وقومه بعد صبرٍ طويل وقولٍ ليِّن من موسى وأخيه هارون، وما حصل ليوسف عليه السلام الذي أُلقيَ في البئر مظلوماً، ثم صار خازن أموال مصر الطائلة.

وما حصل لمحمد ﷺ الذي خرج من مكة مظلوماً من عُتاة المشركين وعاد إليها فاتحاً في سنوات قليلة.

وما زلنا نرى في حياتنا اليومية نماذج واضحة لهزيمة الظالمين وعزَّة المظلومين.

ومن بشارات المظلوم أنَّ حقَّه لا يضيع أبداً؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد وعده بالنصر والتأييد، فيجب عليه ألا يستثقل الصبر، وألا يستبطئ الفرج من الله، فهو على خيرٍ في دنياه وآخرته.

ومن بشارات المظلوم أنَّه إذا صبر وعفا وصفح عن ظالميه ترقَّى بذلك إلى درجة الأنبياء عليهم السلام؛ لأن الله امتدح من كظم غيظه، وعفا عمَّن ظلمه، وأحسن إلى من أساء إليه، وكفاك فخراً أن يمتدحك الله عز وجل.

يخبرنا عبدالله بن مسعود بحديث فيقول: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيَّاً من الأنبياء ضربَه قومُه فأدْمَوه، وهو

يمسح الدمَ عن وجهه، ويقول: **اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون.**

وفي موقف رسول الله ﷺ من كفَّار قريش وغيرهم ممن ظلموه وآذوه دليلٌ واضحٌ على أن العفو خلق الأنبياء.

فالرسول ﷺ يدعو ربَّه لقومه الذين آذوه وحاربوه قائلاً: **اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».**

ويقول في فتح مكة للمنهزمين الذين أصبحوا في قبضة المسلمين من عُتاةِ المشركين وغيرهم: «**اذهبوا فأنتم الطُّلقاء**».

ولو لم يكن من البشارات للمظلوم إلا انضمامه إلى صفٍّ هؤلاء الأنقياء الأتقياء الأنبياء حينما يصبر على الظلم ويحتسب ويعفو لكفاه.

بُشرى للمظلوم فهو من الله عز وجل في خيرٍ وعافية.

وإنما الحسرة الطويلة على الظالم الذي لا يرجع عن ظلمه.

ـ حسرة المظوم طَيفٌ.. وستبقى حسرةُ الظالم دَهر.

ـ سيجيء زمانٌ يتسلَّى فيه المظلومُ بمن ظَلَمَهْ

❀ ❀ ❀

تلوين

● أكبَّ رجلٌ من بني مرّة على مالك بن أسماء يحدّثه في يوم

صيف ويغمُّه ويُثقل عليه، ثم قال: أتدري مَنْ قتلنا منكم في الجاهلية؟ قال: لا، ولكني أعرف من قتلتم منا في الإسلام، قال: ومَن هم؟ قال مالك: أنا، قتلتني اليوم بطول حديثك، وكثرة فضولك.

● شتم رجل أبا ذرّ رضي الله عنه فقال له: يا هذا لا تستغرق في شتمنا، ودَعْ للصُّلح موضعاً، فإنا لا نكافئ مَنْ عصى الله فينا بأكثر من أنْ نطيع الله فيه.

● قال لقمان الحكيم: خذ من الدنيا بلاغك، وأنفق فُضولَ كَسْبك تقدّمه لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كلَّ الرَّفض فتكون على الناس عيالاً، وعلى أعناق الرِّجال كَلاًّ.

● قال عمر رضي الله عنه: ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا، أو عمل للدنيا وترك الآخرة، ولكن خيركم من أخذ من هذه، ومن هذه. ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[البقرة:٢٠١].

● قال أفلاطون: في الإنسان أربع طبائع: العقل، والهوى، والشهوة، والعفَّة، فالعقل يعاتب الهوى، والهوى يقاتله، والعفّة تعاتب الشهوة، والشهوةُ تقاتلها.

فمن عمل خيراً جوزي به، ومن عمل شراً عُوقب عليه.

● إذا أردت أن يصلح لك يومك فابدأه بمعروف، واختمه بمعروف.

❀ ❀ ❀

هكذا يكون الإنسان نافعاً

يظل الإنسان مقصِّراً في أداء ما يجب عليه نحو أهله وجماعته وأمته والناس أجمعين، إذا لم يقدِّم لهم ما ينفعهم على قدر استطاعته: إما بعمل نافع، أو بقولٍ مفيد، أو بدعوة صادقة ينقذ بها فرداً، أو جماعة، أو أمة.

إنَّ من الناس من هو بركة على نفسه وعلى أهله وكلِّ من له بهم صلة، ومنهم من يتعدَّى نفعه إلى الناس بعيدهم وقريبهم، مسلمهم وكافرهم، فهو كالغيث حيثما وقع نفع، ومنهم من هو دون ذلك نفعاً، وفي كلٍّ خيرٌ، على ما بينهم من التفاضل، فالمهم ألاَّ يكون الإنسان سبباً في ضررٍ أو شرٍّ أو سوءٍ يفسد على الناس حياتهم.

ولسلامة صدر الإنسان، ونقاء قلبه، وصفاء نيَّته دورٌ في انتشار الخير على يده؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى يعينه على الخير إذا اطَّلع على نيته، ويفتح له مغلق الأبواب، ويسهِّل له المسالك الوعرة، ويزيل من طريقه الحواجز التي يقيمها الشيطان وأعوانه من منسقة الجن والإنس، فإذا به عظيم البركة، جليل النَّفع.

اقرأ معي هذه القصة:

بعثت بنو سعدٍ بن بكر ضِمامَ بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ فقدم عليه، فأناخ بعيره ثم عقله على باب المسجد، وكان رَجُلاً جَلْداً ذا غَديرتين (أي جديلتين من الشعر)، فأقبل حتى وقف على

رسول الله ﷺ، وهو في المسجد جالسٌ في أصحابه، فقال: أيُّكم ابن عبدالمطلب؟ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: **أنا ابن عبدالمطلب.**

فقال: يا ابن عبدالمطلب، إني سائلك ومُغلظٌ عليكَ في المسألة فلا تَجِدَنَّ في نفسك، فقال: **لا أجد في نفسي، سَلْ عما بدا لك** فقال: أَنْشُدك بالله إلهِك وإلهِ مَنْ كان قبلك، وإلهِ من هو كائنٌ بعدك، آلله أمرك أ نعبده وحده لا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأوثان التي كان آباؤنا يعبدون؟ قال: **اللهم نعم،** قال: ثم جعل يذكر فرائض السلام فريضةً فريضة، الصلاة والزكاة والصيام والحج، وشرائع الإسلام، يَنشُده عند كل فريضة كما نشده فى اللتي كانت قبلها، حتى فرغ، فقال: إني أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، وسأؤدّي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف راجعاً، فقال رسول الله ﷺ: **إنْ يصدُق ذو العَقِيصتَين يدخُلِ الجنة.**

وأتى ضِمامُ قومَه فاجتموا إليه، فكان أوَّل ما تكلَّم به أن قال: بئسَتِ اللاتُ والعُزَّى، فقالوا: مَهْ يا ضِمامُ اتَّقِ البَرص، اتّق الجُذام، اتق الجنون! فقال: ويلكم! إنهما والله ما يضرَّان ولا ينفعان، وإنَّ الله قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم مما كنتم فيه، وإني أشهد ألاّ إله لا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداًّ عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه.

قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضرته من رجلٍ ولا امرأةٍ إلاَّ مسلماً.

قال ابن عباس: فما سمعنا بوافدٍ قَطُّ كان أفضلَ من ضِمام.

في هذه القصة تتجلَّى لنا صفات الصِّدق والوضوح والرَّغبة في الوصول إلى الحقيقة عند ضِمام، وصفات الحلم والأناة، والرحمة، وسعة الصدر عند محمد بن عبدالله ﷺ، وهي صفاتٌ توصل إلى الخير دائماً، وتنتج الثقة وحسن الظن، وتعين الإنسان على اتخاذ القرار الصحيح على هدي وبصيرة، بعيداً عن المداراة والمجاملة.

«إني سائلك ومغلِظٌ عليك في المسألة فلا تجدنَّ في نفسك».

جملة صريحة من رجلٍ يبحث عن الحق الذي بعثه قومه من أجله.

«**لا أجد في نفسي، سَلْ عمَّا بدا لك**».

جملة صريحة من المصطفى ﷺ فتحت الباب أمام ضِمام، وأذهبتْ عنه الشعورَ بالخوف والقلق، والإحساس برهبة الموقف.

إنها جملة تليق بمقام نبيٍّ كريم يفتح قلبه للناس لينقذهم من ظلمات الشرك، ومن عذاب الله الذي يعاقب به العُصاة والمشركين.

ولذلك كان كلام ضِمامٍ بعدها متدفِّقاً، صريحاً سليماً من المداجاة التي تخفي ـ عادةً ـ وجه الحقيقة.

حتى وهو يسلم، ويعلن التزامه بفرائض الإسلام أمام الرسول ﷺ نطق بما في نفسه دون مواربة أو خفاء: «لا أزيد ولا أنقص».

سيؤدي الفرائض، ويجتنب النواهي فقط، ولن يحرص بعدها على النَّوافل الكثيرة من صلاة وصيام وصدقة، وهذا الموقف يدلُّ على الصِّدق والإخلاص، وهما سرُّ قبول الأعمال عند الله عز وجل.

وقد رأينا ـ عاجلاً ـ أثر الصدق والإخلاص حينما عاد ضِمامُ إلى قومه.

فقد كان واضحاً كلَّ الوضوح، صريحاً في نقل ما اقتنع به إلى قومه دون تلبيس أو تردُّد، فقد تحوَّل إلى داعيةٍ من دعاة الإسلام المتحمسين له، المؤمنين بمبادئه.

وماذا كانت النتيجة؟

كانت دخول قومه في الإسلام جميعاً، فأي فضل أعظم من هذا الفضل؟ إن قصة ضِمام تدلُّنا على أن الإنسان يستطيع بإخلاصه وصدقه، ووضوح فكره وهدفه أن يعمل عمل الجماعة بمفرده، لأن البركة تنزل عليه وعلى عمله الخالص لوجه الله.

إنَّ هذه القصة تؤكد لنا أهميَّة العمل الصادق، وتكشف لنا عن الطاقات الكامنة في نفس الإنسان، ودورها الكبير في عطائه المتجدِّد، وعمله النافع، وقدرتها على تذليل العقبات، وتيسير الصعوبات.

وهذا ما نحتاجه ـ نحن المسلمين ـ في هذه المرحلة الحرجة من حياة أمتنا الإسلامية.

إننا بأمس الحاجة إلى وضوح الفكرة والهدف، والبعد عن التعتيم والتضليل، وتدليس الحقائق، والتذبذُب في المواقف.

إن ضِمامَ بن ثعلبة قد حسم الموقف أمام قومه حينما قال بصيغة التأكيد والجزم عن اللاتِ والعُزَّى: «إنهما والله ما يضرَّان وما ينفعان»، وهو بهذا يكشف أوَّل حجابٍ عن وجه الحقيقة المغمورة في ظلال القوم وشركهم، وهي أوَّل خطوة مهمة في طريق إقناع قومه بالإسلام.

لقد ثبت لهم ـ فعلاً ـ أنّ اللات والعزَّى لا تضر ولا تنفع، ولو كانت تملك شيئاً من ذلك لصنعته مع ضِمَام الذي آمن بالله عز وجل، وكفر بما سواه.

إنه النَّفع الذي يملك كلُّ إنسان أن يقدِّم منه ما يستطيع، مهما كانت المواقف والأحداث.

فهل يعجز كلُّ مسلمٍ في زماننا هذا عن أنْ يكون نافعاً؟!

❀ ❀ ❀

بين المحاسن والمساوئ

يختلف الناس في النظر إلى الأمور ماديها ومعنويها اختلافاً كبيراً، فمنهم من ينظر إليها بمنظار التفاؤل والاستبشار، باحثاً عن

محاسنها ومواطن الجمال والخير فيها، ومنهم من ينظر إليها بمنظار التشاؤم والاستنكار، باحثاً عن مساوئها ومواطن القبح والشرِّ فيها.

وهنالك فريق يتخذ الموقف الوسط فينظر إلى المحاسن والمساوئ ويوازن بينها، ويحكم على الأمور حكماً موضوعياً متوازناً.

إنَّ النفس البشرية المستقرة السويَّة هي التي تنظر إلى محاسن الأشياء، وتغلِّب جانب التفاؤل، وتستشعر قيمة الجمال والحسن، والخيرية والصَّلاح في كل ما تراه وتلمسه وتسمعه وتتعامل معه في الحياة، وإذا رأت السوء غالباً علي شيء حذَّرت منه، وابتعدت عنه لأنها تعوَّدت على كل حسنٍ جميل.

وإذا نظرنا إلى تعاليم دين الإسلام، وتشريعاته وجدناها تحسِّن الحَسَن، وترفع من قيمته وترغِّب فيه، وتقبِّح القبيح وتحذِّر منه، وتفتح باب التفاؤل على مصراعيه؛ لأن الرسول ﷺ كان يعجبه الفأل الحسن، وكان يعلِّم أصحابه كيف يتعاملون مع محاسن الأشياء، ويشعرون بما فيها من الخير والجمال، ويربط ذلك كلَّه بالآخرة، ويرفع من مستوى الذوق عند أصحابه، ويعلمهم كيف يشعرون بجمال الأشياء.

وفي القرآن الكريم توجيهٌ دائمٌ إلى محاسن الأشياء، فكل كلمة فيه تحمل من معاني الجمال ما يرقى بذوق الإنسان، ويحسِّن نظرته إلى الكون والحياة، ويدعوه إلى التأمُّل في بدائع ما خلق

الله، ويتجاوز بتفكيره حدود الدنيا إلى ما في الآخرة من مظاهر الجمال، ومحاسن جنَّة الخلد التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وصلت إلى المدينة هدايا من أحد الملوك فيها مناديل من حرير ليِّنة الملمس، بديعة الصناعة، فأخذ الصحابة رضي الله عنهم يقلِّبونها متعجبين من لينها الذي يدلُّ على ترف أصحابها، فما كان من الرسول ﷺ إلا أنْ وجَّه اهتمامهم إلى ما ينتظرهم من نعيم الآخرة الذي لا يبلى، فقال لهم: **تعجبون من لين هذه، لمناديل سعد في الجنة أَليَنُ منها**، فهو هنا أثبت لهذه المناديل الحريرية صفة اللين والجمال فيها، ولكنَّه أشار إلى ما هو أجمل وألين.

والرسول ﷺ يضرب أعظم الأمثلة في إبراز محاسن الأشخاص، وجمال الأشياء الموجودة في هذا الكون الفسيح، فما كان يرضى بالغيبة التي تدعو أصحابها إلى إبراز مساوئ الناس، وتضخيم أخطائهم، وما كان يرضى أن يسمع السيئ من القول، بل كان يزجر من يتحدَّث به إذا سمعه، ويدلُّ على مواطن الحسن والجمال والخيريَّة، فعندما رأى الصحابة دِقَّةَ ساقي عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وسوادهما وبدت بوادر إشارة في نفوس بعضهم إلى ذلك، حسم الرسول ﷺ الأمر بإخبارهم أنَّ هاتين الساقين ثقيلتان في الميزان عند الله سبحانه وتعالى.

وعندما كان عيسى عليه السلام يسير مع بعض الحواريين مرُّوا بجدي ميت على الطريق، فقالوا: ما أنتن ريحه، فقال لهم: انظروا إلى نصاعة لون أسنانه، موجِّهاً إلى عدم التعوُّد على البحث عن المساوئ.

إن كثيراً من الناس مغرمٌ بالبحث عن مساوئ الأشياء، والتنقيب عن الجانب المظلم منها، والنظر إلى عيوبها ومثالبها، وتضخيم ذلك حتى تصبح الحياة في نظره قاتمةً لا مجال فيها لسعادة، ولا موقع فيها لخيرٍ أو صلاح، فالناس ـ جميعاً ـ عنده منحرفون، حاسدون حاقدون، لا يرحمون ضعيفاً، ولا يفعلون معروفاً، فإذا ذكر عنده شخص ناجح انتفض انتفاضة اللَّديغ، وبدأ يتحدَّث عن أسباب ذلك النجاح الملتوية ـ حسب رؤيته ـ، أو عن قصد ذلك الناجح السيّئ، وإذا ذكر عنده مشروع جيِّد ظاهر الجودة، قد نفِّذ وأصبح ماثلاً للعيان، تغيَّر لون وجهه وبدأ يذكر عيوب ذلك المشروع، أو يتبرَّع بصنع عيوب من تلقاء نفسه ليؤكد لك أن هذا المشروع الناجح الجميل سيّئ لا يستحق الإعجاب.

إنَّ هذه النظرة السوداوية إلى المساوئ مرض خطير يجب علينا أن نقاومه بتربية أنفسنا وأولادنا على النظرة السديدة المنصفة، وعلى الإحساس بالجمال فيما حولنا.

كنت أستمع إلى شخصين وصفا لي الطبيعة الربيعية الجميلة في روضة التنهات في منطقة نجد، فعجبت للتباين الكبير بين وصفيهما.

أحدهما وصف لي خضرة الأرض وجمال أزهارها، وبساطها الملوَّن البديع، والنسيم العليل الذي ينشر روائح الأزهار الزكيَّة في كل ناحية، وما تشعر به النفس من السعادة والانشراح في هذا الموقع البديع، وتحدَّث عن وجوه الناس المشرقة التي تدلُّ على استمتاعهم بهذه الطبيعة الخلاَّبة.

أما الثاني فوصف جمال الطبيعة في كلمات مختصرةٍ سريعة، ثم بدأ يتحدَّث عن تزاحم الناس على المواقع، واختلاف طبيعة الناس عن الماضي، وعدم التزام الناس برمي بقايا طعامهم في الأماكن المخصَّصة لذلك، وعن أصوات السيارات المزعج، وعن المشي المتعب، وعن سرعة زوال هذا الجمال الطبيعي حينما تزيد حرارة الجوِّ، ويؤكد ذلك بقوله: اترك عنك ما تراه الآن من جمال الطبيعة، واذهب إليها بعد شهرين لتراها ذابلة يابسة لا جمال فيها.

قلت لهما: ما أكبر الفرق بينكما، وتحدَّثت عن النظرة السلبية وأثرها السلبي في إحساس الإنسان بالجمال، وقلت لذلك الذي لم يورد في حديثه إلا الجوانب السلبية: لقد حرمت نفسك من الاستمتاع بجمال الربيع الأخَّاذ، وحرمتني من لذَّة الاستماع إلى وصف النباتات المزهرة، والجوِّ البارد الجميل، ولولا أنَّ صاحبك حدَّثني بغير ما حدثتني به، وأشار إلى جمال الطبيعة، وحسن الربيع، لترك حديثك المعتم أثراً سلبياً في نفسي.

لماذا لا نجعل المحاسنَ أمام أعيننا؟ ولماذا لا نرسم لوحاتٍ جميلةً لكل شيء نتعامل معه، وإذا ذكرنا الجانب السيِّئ فإنما نذكره لإصلاحه، أو التنبيه إليه والتحذير منه دون مبالغةٍ تتجاوز به حدَّه.

انظر بعينين صافيتين، وبقلبٍ متفتح للخير والجمال فسوف ترى المحاسن التي لا تنقطع في هذه الحياة.

* * *

إضاءات نبوية

- «لا يكن أحدكم إمَّعة يقول: أنا مع الناس، إنْ أحسن الناس أحسنت، وإنْ أساؤوا أسأت، ولكن وطِّنوا أنفسكم إنْ أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا ألاَّ تظلموا».
- ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ وبمن تحرم عليه النار؟ على كلِّ قريبٍ هيِّن سهلٍ.
- خيركم من يُرجى خيره ويُؤمن شره، وشرُّكم من لا يُرجى خيرُه ولا يُؤْمَنُ شرُّه.
- الظلم ظلماتٌ يوم القيامة.
- من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فَلْيَقُل خيراً أو لِيَصْمُت.
- لا يقولن أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل: لَقِسَت نفسي.

ومعنى لقست أصابها ما كدَّر صفوها، وإنما نهى عن «خبثت» تنزيهاً للسان عن سوء الكلمة.

• لقي عيسى بن مريم عليه السلام خنزيراً على الطريق، فقال له: انفذ بسلام، فقيل له: تقول هذا لخنزير؟، فقال عيسى: إني أخاف أن أعوِّد لساني النُّطْقَ بالسوء.

• إذا سمعتم الرجلَ يقول: هلك الناس، فهو أَهلكُهم.

❀ ❀ ❀

أَفياء

من شعري:

يا رياحَ الخوف في قلبي الحزين
لا تهزِّي بيد اليأس غصوني
لا تُثيري من صحاراكِ غباراً
يحجُبُ الآفاقَ عنِّي يحتويني
لم أزلْ أبني قصوراً شامخاتٍ
من رجائي، فوق آكام حنيني
أُوقِفُ الليل على أبواب صمتي
وأبثُّ النجمَ والبدرَ شجوني
لم أزلْ أغرس ريحانا وشيحاً
وخُزامى تحت أفياءِ يقيني
لم أزلْ أَغْزِلُ بالشعر خيوطاً
من أحاسيسي ومن حُبِّي الدَّفينِ
يا رياحَ الخوف في قلبي أَمانٌ
فاصرفي وجهك عني ودعيني

استبشار

في خضم الأحداث المعاصرة يصبح الاستبشارُ طريقنا إلى الاستقرار.

هل يعني ذلك تجاهل ما يجري من المآسي؟

هل يعني ذلك تَرْك الأعداء يصولون ويجولون كما يشاؤون وترك الضعفاء يعيشون المآسي ويعانون؟

كلاَّ...

إن الاستبشار عند المسلم يقوم على أسس ثابتة من تعاليم دينه الحنيف، ويتحقَّق بإيمانه ويقينه بربِّه، وإصلاح نيّته وقصده، فهو استبشار بالخير والنصر والتأييد، وخروج من دوائر اليأس والانهزام النفسي والقنوط.

استبشار بالخلق الحسن، والتعامل الطيِّب، والكلمة الطيبة، والابتسامة (الصَّدقة)، والصبر علي متاعب الحياة، ومصاعب هذه المرحلة التي تمر بها أمتنا الإسلامية.

«بشِّروا ولا تنفِّروا» لافتةٌ مهمة في وقت يَكاد ظلام اليأس فيه يقضي على هزائم كثيرٍ من المسلمين.

بإمكانك وأنت تبكي لمنظر بيتٍ يُهدَم فوق أهله في فلسطين أو لمنظر جندي محتلٍ يضع رجله على رقبة عجوز في بغداد.

أو لنظرة أطفالٍ مشردين في أفغانستان.

أو ثكالى في كشمير والشيشان، أو هياكل عظمية في بعض دول إفريقية.

بإمكانك، وأنت تبكي لذلك كله أن تردِّد: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾[الحج: ٤٠] وتردِّد: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[الفجر: ١٤]، و﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾[آل عمران: ١٢٦]، ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾[النحل: ١٢٧]، وعندها ستجد نفسك منشرح الصدر مطمئن القلب، متفتح النفس للإقبال على ربك، وإصلاح نفسك أولاً، ثم أهلك، ثم مجتمعك وأمتك، وهنا تصبح قادراً على أن تحقَّق معنى «بشِّروا ولا تنفِّروا».

تذكر أيها الحبيب: أن مركبة الحياة تسير، وأنَّ الشمس تضحك لنا كلَّ يوم، وأن ضوء القمر والنجوم لا يَظهر، إلا حينما يخيِّم الظلام، بإمكانك أن تردِّد منشداً: «سيولد من أقسى المتاعبِ لينُ».

❀ ❀ ❀

هل أودِّعك؟

نعم أودِّعك وكلِّي أمل قريبٌ في اللقاء، على رابيةِ اليقين الخضراء.

نعم أودِّعك....

فالوداع رديف اللقاء، وما الحياة الدنيا إلا لقاءٌ ووداع، هذا منهما يعقُبُ ذاك، حتى تودِّع الخلائق هذا الكون وداعَها الأخير

يوم تقوم الساعة، حيث يكون اللقاءُ الأبديُّ باليوم الآخر، نسأل الله أن نكون فيه من الفائزين.

نعم أودِّعك، وكلي أملٌ أن يظلَّ تواصلُنا على الحب والخير والصدق والوفاء قائماً لا ينقطع.

لقد التقيت بك منذ كتابة أوَّل صفحة من هذا الكتاب لقاء محبٍ يسعى إلى الخير معك.

وها أنذا أودِّعك في كتابة آخر صفحة من هذا الكتاب وداع محبٍّ سيظل ـ بإذن الله ـ يسعى إلى الخير مَعك.

أودعك وأقول لك: كن بالله ولا تبالِ بما يرتكبه الإنسان المكابر من مخالفةٍ لمنهج الله في هذا العصر.

كن بالله، ومع الله، وتوكلَّ عليه، فسوف ترى النجاح يتلو النجاح، والخير يتبع الخير، والبشارة تلاحق البشارة.

على ضفاف الكلمة الطيبة أودِّعك، وعلى ضفافها أستقبلك قريباً إن شاء الله.

أسأل الله لي ولك ولأمتنا من الخير كلِّه عاجله وآجله ما علمنا منه وما لم نعلم، فما خاب من رفع كفَّيه إلى الحي القيوم.

ولا خسر من وثَّق صلته به سبحانه وتعالى.

ولا ندم من لجأ إليه، واستعان به، وتوكَّل عليه.

سبحانه الحي الذي لا يموت، فهو القادر على كل شيء، وهو بكل شيء محيط.

أودِّعك أيها الغالي وداعاً يرفرف بجناحين خفَّاقين من الأمل الكبير، في لقاء قريب ـ إن شاء الله تعالى ـ.

أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبدالرحمن صالح العشماوي

فهرس الموضوعات

الموضـوع	الصفحة
بوَّابة الدخول:	٥
إليكَ أنت	٧
حِلْمُه يَسبقُ جهلَه	٨
بين الحُسْن والقُبح	١١
نـــور	١٢
بعـد ليلٍ طويل	١٢
رؤية مشـرقة	١٥
مـاذا نصنع؟	١٦
الرائد لا يكذب أهله	١٩
إشـراقة أمل	٢٠
تفاؤل	٢٠
توجيه	٢١
قـــوَّة	٢١
متفائلون	٢٢
فأين الله إذن؟!	٢٢
العلم والاستبشار	٢٤
الإبداع والاستبشار	٢٦
الاستغفار والاستبشار	٢٧
مرجعُك القرآن والسُّنَّة فلا تقلق	٢٩
تملأ الأفق	٣١

أيُّها الشاعر ٣٢
تشجيع المواهب ٣٣
مراتع الصِّبا ٣٤
ولكنَّ الخِبَّ لا يخدعني ٣٥
صُحْبَةُ الرِّجال ٣٩
دَعَوتُ، ودعوت ٣٩
وقفة مع الدعاء ٤٠
أعرابي يدعو ٤٤
ناصح الطريق ٤٥
مجيب ٤٨
تلوين ٤٨
السعة وحسن الرأي ٥٠
مرحباً وأهلاً وسهلاً ٥٢
سبحان ذي العرش ٥٣
لا تغلق باب الابتسامة ٥٣
محمد بن واسع يرشدك ٥٥
نظرة الإنصاف ٥٦
التلاميذ يحلقون رؤوسهم ٥٧
ابدأ بنفسك ٥٩
حكاية طريفة ٦٠
اثنتا عشرة جوهرة ٦١
سيُفتَح الباب ٦٣
تلوين ٦٣
ليس هذا من التَّذَبْذُب ٦٥

الرسول الكريم	٦٩
أين نَصّر المِليار؟	٧١
تلوين	٧٤
لوحة شعرية	٧٥
أنت الذي تصنع الجمال	٧٦
بين الأيائل والحيَّات	٧٨
جوف الليل	٨٠
من يدِ كسرى إلى يد عمر	٨١
لافتةٌ عمريَّة	٨٤
الثواب المبارك	٨٥
تلوين	٩٠
الحقُّ لا يهزم	٩٢
لوحة شعرية	٩٤
سبحان الله ... بين الطاعة والمعصية	٩٥
لماذا ضحكت يا محمد؟	٩٥
نحن نغرس شتلات السعادة	٩٧
أين دُعاة حرِّية المرأة؟	٩٩
حجَّة دامغة	١٠٢
لوحة شعرية	١٠٣
بين اللِّين وشدّة الثبات على المبدأ	١٠٤
بين العسر واليُسر	١٠٧
تلوين	١٠٨
فإذا خفتِ... ولا تخافي	١٠٩
ترنيمة صباحية	١١٥

من واحد إلى عشرة ١١٨
ثلاثة أبيات ١٢٣
بين متناقضين ١٢٤
رُقيّ ١٢٥
مشكاة نبوية ١٢٦
تلوين ١٢٧
نور السموات والأرض ١٢٨
تقديرنا لأولادنا ١٣٢
عندما يكذب من لا يحتاج إلى الكذب ١٣٦
تفاريق العصا ١٣٧
صاحب الصَّمْصَامة في القادسية ١٤٠
لوحة شعرية ١٤٢
تلوين ١٤٣
مُباعَدة ١٤٤
الغَدْرُ لا يأتي بخير ١٤٧
ناقتان كَوْماوان ١٥٠
يا راكب القصواء ١٥٢
تهاوت التماثيل ١٥٣
من المنزل يبدأ الاستبشار ١٥٦
كلماتٌ ملوَّنة ١٥٩
جوهرة الإخلاص ١٦٠
الوجه صفحة مقروءة ١٦١
بشارة شعرية ١٦٢
الأحد ١٦٣

النَّصر قادم ١٦٤
أين طريق الخير ١٦٥
تلوين ١٦٦
وقفة مع حبٍّ الوطن ١٦٨
أين تكمن المشكلة ١٦٩
حول الوطن ١٧٢
المطيَّة التي لا تتأخَّر ١٧٢
زينب بنتُ حُدَيْر وشُرَيْحٌ القاضي ١٧٥
صَدَمَتني أخلاقُ المسلمين ١٧٦
العلم وشجاعة الرأي ١٧٨
تلوين ١٨١
قِطَطٌ وفَأْر ١٨٣
آداب ١٨٦
من شرفة التأمُّل ١٨٦
«علاجٌ وإصلاح» ١٩٠
معرفة الداء أساس الاستبشار ١٩٣
ألف تجربة فاشلة ١٩٣
الكُلُّ يقوم بذلك ١٩٤
تلوين ١٩٧
نبغض ولا نبغض ١٩٩
تفاؤلٌ شعري ٢٠٣
الفاروق والشعر ٢٠٣
الشعر وأصحاب الفيل ٢٠٥
﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ٢٠٧

صَيْحَةُ الميلاد ٢١٢
لوحة شعرية ٢١٣
الماريشال ويڤل ٢١٥
تلوين ٢١٧
لوحة شعرية ٢١٩
مثلث النشاط الذهني ٢١٩
الدين دين الله ٢٢٣
اسأل نفسك ٢٢٤
بلا نقط ٢٢٦
لا يردُّ البُشرى إلاَّ محروم ٢٢٧
ربما تكون الخاتمة ٢٢٩
آداب اجتماعية ٢٣٣
إحصاء ٢٣٤
وصية ٢٣٧
زوارق النجاة ٢٣٨
مَنْ رَبُّ هذا الجمل؟ ٢٤٢
اثنا عشر مَلَكاً ٢٤٣
إلغاء ٢٤٤
معايير بلاتينية ٢٤٥
متى يكون الاستبشار ٢٤٧
وجهٌ مستدير ٢٤٩
رسالة وإمام ٢٥٠
النقد المتحامل ٢٥٣
لوحة شعرية ٢٥٧

تلوين ٢٥٨
لوحة شعرية ٢٥٩
تواصلٌ لا ينقطع ٢٦٠
تلوين ٢٦٦
تَعَبُ القلوب الحاسدة ٢٦٧
يا عجباً ٢٦٩
روائح الجنة ٢٧٠
ناقشوا أولادكم ٢٧٠
لوحة شعرية ٢٧٤
بين ابن مسعودٍ وأمِّ يعقوب ٢٧٤
اعلم، إن كنتَ لا تعلم ٢٧٩
الفاصلة في القرآن الكريم ٢٨٠
الكهرباء والإنسان ٢٨١
تلوين ٢٨٤
بين بشَّر ونَفَّر ٢٨٥
تنبيه ٢٩٠
توقيع ٢٩٠
تلوين ٢٩٠
الكلمة الطيِّبة واحة لا تعرف الذبول ٢٩٢
المهاجر المستبشر ٢٩٩
تلوين ٣٠٢
القواعد الذهبيّة للحوار ٣٠٣
أهمية الكلمة ٣٠٥
بين التردُّد والحزم ٣٠٧

لغة الناجحين ٣٠٨
عجائب نفسك ٣١١
بين عبدالملك وعِرار ٣١٤
أريحيَّة الكرم ٣١٤
هل تموت الأرض في الخريف؟ ٣١٧
ثوابت الإعلام الغربي ٣٢٠
بشِّروا ولا تنفِّروا ٣٢١
نسأل الله العافية ٣٢٤
عمر وعبدالله بن الزبير ٣٢٧
بُشرى للمظلوم ٣٢٧
تلوين ٣٣٠
هكذا يكون الإنسان نافعاً ٣٣٢
بين المحاسن والمساوئ ٣٣٦
إضاءات نبوية ٣٤١
أفـــيـــاء ٣٤٢
استـبـشـار ٣٤٣
هل أودِّعك؟ ٣٤٤
الفهرس ٣٤٧